المقتطف

الجزء الخامس من المجلد التسعين

١ مايو سنة ١٩٣٧ — ٢٠ صفر سنة ١٣٥٦

العلم في خدمة الانسانية

الفيتامينات واثرها

في الصحة والمرض والنمو

يقال — والعهدة على الراوي — ان ادمند كين الممثل الانكليزي المشهور كان يتناول طعاماً خاصًّا لكل دور يمثلهُ ؛ فكان يتناول لحم الخنزير قبلما يمثل دور طاغٍ ولحم البقر قبل تمثيله دور سفاك ولحم الضأن قبل تمثيله دور عاشق ولهان . ومن الاقوال المأثورة في هذا الصدد : قل لي ما تأكل أُنبئك من انت

فما الصلة بين خمسين طنًّا من الطعام يتناولها المرء خلال حياته ، وبين صحته من ناحية وطباعه وخُلقه من ناحية اخرى ؟ لقد كشف العلم عن بعض الحقائق المتصلة بهذا الموضوع في حياة الحيوان وحياة الانسان حتى ان الاستاذ هنري شرمن احد علماء جامعة كولومبيا صرّح بعد تجارب دقيقة جربها في هذا الصدد في الجرذان انهُ في استطاعة الباحث ان يطيل متوسط عمرها ويجعلها اكبر واقوى بالاشراف على تغذيتها على نحو معيّن

فكيف وصل العلم الى هذه النتائج ؟

في سنة ١٨٩٧ تفشى في جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندة مرضٌ قديم عرف في الشرق الاقصى من نحو اثني عشرة سنة ويدعى بريبري او « كاك — كي » وهو مرضٌ غريب تأثر في المصاب

به اعصاب الحركة والحس تأثراً عظيماً . فيصاب صاحبهُ باعياء عام وانحطاط في قواه العقلية ، وبالاستسقاء وفقر في الدم يصحبهُ شلل زاحف ، يبدأ عادةً في الساقين وينتشر صعوداً حتى يصل الى القلب فتحدث الوفاة

فعينت حكومة هولندة لجنة لبحث الموضوع عسى ان توفق الى معرفة سببه واستنباط علاج شافٍ لهُ

الرز المقشور وغير المقشور

وكان بين الرجال الذين عهد اليهم في مكافحة هذا المرض رجل يدعى كرستيان أيكمان Eijkman . كانت «البكتيريولوجيا» في اوج شهرتها حينئذٍ بعد مكتشفات باستور وكوخ وغيرهما ، فعمد أيكمان منساقاً بروح البحث الطبي السائدة حينئذٍ الى البحث عن ميكروب يحدث هذا المرض . ولكنهُ شاهد مشاهدة استرعت عنايتهُ فانصرف بعض الانصراف عن البحث عن الميكروب الى النظر في تعليل ما رأى . ذلك انهُ شاهد طائفة من الدجاج كانت تعيش على مقربة من معمله ، وقد اصيبت بشلل يشبه الشلل الذي يحسب من اعراض البريبري . فلم يستغرب ذلك لانهُ كان يعلم ان بعض الحيوانات معرض للاصابة بامراض يصاب بها الناس . فقال لعل هذا الدجاج عدى بالمرض من اتصاله بمن يرعاهُ . واذ هو ماض في البحث عن الميكروب ، كان يقضي بعض الوقت في مراقبة الدجاج ليعلم كيف اتصلت به العدوى

فلاحظ بعد قليل ان الدجاجات التي يسمح لها بأن تسرح في الحقل ، تكث منهُ بحثاً عما تتغذى به ، وتقيل في الشمس ، لا تصاب بالبريبري (يعرف الضرب الخاص من البريبري الذي يصاب به الدجاج باسم « پولينيوريتس ») . أما الدجاجات او أفراخها التي أصيبت بأعراض هذا المرض فكانت قد حفظت في حظائرها وغذيت ببقايا الرز الذي كان السجناء يتغذون به . فبحث في الغذاء الذي يتغذى به السجناء فلم يجد فيهِ ما يسترعي الانتباه الا ان الرز وهو عماد غذائهم ، كان قد قشر بالآلات الحديثة لازالة قشرته الصفراء . وكانت القشور تطرح جانباً لاعتقادهم أنها لا تصلح للغذاء . فخطر لأيكمان ان يقابل بين انتشار مرض البريبري في السجون المختلفة بالمقابلة بين أنواع الرز الذي يتغذى به السجناء . فتجلت لهُ حقائق غريبة

وجد ان ١٥٠ ألفاً من السجناء كانوا يتغذون بالرز المقشر وان واحداً في كل ٣٩ منهم يصاب بالبريبري . وان ٣٥ الف مسجون غيرهم كانوا يتغذون برز غير تام التقشير وان واحداً منهم في كل ٤٠٠ كان يصاب بهذا المرض . وان مائة ألف كانوا يتغذون بالرز غير المقشور فلم يصب منهم بالبريبري الا واحد في كل ١٠٧٢٥ مسجوناً . فحدوث الاصابة بالبريبري بين

الجريدة السورية اللبنانية

الجريدة الرسمية للنزلة العربية في الارجنتين

تصدر صباح كل يوم من ١٦ صفحة باللغتين العربية والاسبانية

أنشأها الاستاذ موسى يوسف عزرة في ١٢ ك ٢ سنة ١٩٢٩

مديرها الحالي: أمين قسطنطين

رئيس التحرير المسؤول في القسم العربي: الياس فضل

يحرر فيها نخبة من خملة الاقلام الحرة

عنوانها:

EL DIARIO SIRIOLIBANES

Reconquista 339

Buenos Aires—Argentina.

مجلة الشرق

ادبية سياسية مصورة

انشئت للدعاية عن الشؤون البرازيلية وما لي النزلاء الشرقيين في البرازيل تصدر باللغة العربية مرتين في الشهر — صاحبها ومحررها الاستاذ موسى كريم ويشترك في تحريرها طائفة من اكبر ادباء العربية في البرازيل وبدل اشتراكها ٢٤٠ قرشاً صاغاً

وعنوانها: Journal Oriente

Caixa Postal 1462, S.o Paulo, Brazil

الاصلاح

مجلة شهرية علمية

تصدر مرة في الشهر في بونس ايرس عاصمة الارجنتين

لصاحبها ومنشئها الدكتور جورج صوايا

عنوانها شارع سان مرتين ٦٤٠ بونس ايرس

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

ثمن	
٣٥	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠	» » » » (طبعة ثالثة)
٧٠	» » عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥	» المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	» » عربي انكليزي فقط
١٥	» » انكليزي عربي فقط
٢٠	سقراط سيسرو عربي انكليزي (باللفظ)
٢٠	» » » انكليزي عربي (باللفظ)
٢٠	» » » » وبالعكس
١٠	التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
٢٣	الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠	الف كلمة ألماني (لتسهيل الالمانية بسهولة)
١٠	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠	عشرة ايام في السودان » »
١٢	اخراجات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥	روح الاشتراكية (انوتاتف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد طلعت حيدر)
١٠	روح السياسة » »
١٠	الآراء والمعتقدات » »
١٠	اصول الحقوق الدستورية » »
٨	الحضارة المصرية (انوتاتف لوبون)
١٥	حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠	الحركة الاشتراكية (لمسيو مكدونالد)
١٥	ملتى السبيل في مذهب العشوء والارتقاء
٨	اليوم والغد (الاستاذ سلامة موسى)
١٠	مختارات » »
٨	نظرية التطور وأصل الانسان » »
٢٠	اناتول فرانس في منزله، للاميرشكيب ارسلان
١٥	الدنيا في امريكا (للاستاذ امير بقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف تسوسها (عبدالله حسين)
١٠	جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥	المرأة بين الماضي والحاضر
٥	مركز المرأة في تشريعي موسى وحمورابي
١٥	حصاد الهشيم (للاستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني)
١٠	قبض الريح (» » » »)
٨	نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠	رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
١٠	الغزال في الادب المصري (تماثيل نسية)
٥	حكايات للاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥	» » ثان » »
٥	» » ثالث » »
٥	تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥	جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦	مراثي النجاح (الارشعريت بنجر)
٥	مريم المجدلية (موريس مترلنك)
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ سلامة موسى فكري
٥	خواطر حائر (» » الجزء الاول)
٥	التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥	ذكرا وانثى خلقهم » » »
٤٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران) » »
١٥	اسرار الحياة الزوجية » »
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور نظمي
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات » »
٢٠	الضعف التناسلي في الذكور والاناث »
١٥	الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠	تاييس » » » »
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠	القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠	فتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨	الانتقام انتقيب (اسعد خليل داغر)
٥	فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢	باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	غرام الراهب او الساحرة المجنونة
٧٥	روكامبول ، ١٧ جزءا (ضابوس عبده)
٢٥	ام روكامبول ، ٥ اجزاء
٢٠	باردليان ، ٣ اجزاء
٢٠	الملكة ايزابيو ، اجزاء
٢٠	الاميرة فوستا ، جزآن
٣٠	صناق فيسيا ، جزآن
١٦	الساحر الاعظم ، اجزاء
١٦	كابيتان ، جزآن
١٦	الرهبة الحمراء ، جزآن
١٦	بائعة الخبز
١٢	فلمبرج ، جزآن
١٠	فارس المنك
١٠	ضحايا الانتقام
٨	المرأة المفترسة
٥	المتسكرة الحسناء
٥	سروحة الاسود
٥	شهداء الاخلاص
١٦	دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠	فرلسوا الاول » »
١٠	الجنرال لنون » »
٨	حورية » »
٨	الغلامان الطريدان » »
١٢	يسوع ابن الانسان جبران خليل جبران
٥	النبي (» » »)
٥	آلهة الارض (» » »)

جائزة اسعد باسيلي باشا

أذكري

الدكتور يعقوب صروف

مائة جنيه مصري

يقدمها اسعد باسيلي باشا عن طريق

المقتطف

لافضل ثلاث رسائل

في الموضوع التالي وهو:

« العشرة المقدّمون »

« في تاريخ الفكر العربي »

الجائزة الاولى — خمسون جنيهاً

الجائزة الثانية — ثلاثون جنيهاً

الجائزة الثالثة — عشرون جنيهاً

يجد القارىء بياناً عن موضوع الجائزة في الصفحة الرابعة

الدكتور يعقوب صروف

في شهر يونيو القادم يحتفل بازاحة الستار عن تمثال الدكتور يعقوب صروف في بهو المطالعة بمكتبة جامعة بيروت الاميركية

وانا نغتنم هذه الفرصة لتقديم واقر شكرنا الى حضرة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا والدكتور شخاشيري لما يذلا من همة وعناية في سبيل اخراج هذا التمثال من صورة جالت في أذهان اصدقاء الدكتور صروف وتلاميذه الى حقيقة واقعة ، وسيقف قريباً تمثاله في بهو المطالعة المذكور جنباً الى جنب مع تماثيل رئيس جامعة بيروت الاميركية الاول الدكتور دانيال بلس ، واستاذي الدكتور صروف الكبيرين لعني العلامتين الدكتور كرنيليوس فانديك والدكتور يوحنا ورتبات

ونقدم شكرنا كذلك الى حضرة السيدة الفاضلة والفنانة البارعة مدام توفيق بحري ، لقد افرغت التمثال في قالب تعهدته بأناملها الفنانة وذوقها العالي وقدمته الى لجنة التمثال هدية منها ومع هذا الكلام صورة التمثال .

وقد تولى عملية سباكة الاستاذ محمد حسن ناظر مدرسة الفنون التطبيقية في مسبكه الخاص ووضع تصميم القاعدة فصنعها الاستاذ حسن رضوان ونرفع شكرنا أيضاً الى الدكتور بارد ضدج رئيس جامعة بيروت وأعضاء مجلس ادارتها لتقبلهم هذا التمثال وتعيينهم موعد الاحتفاء بازاحة الستار عنهُ في خلال الحفلات السنوية التي توزع فيها الشهادات والرتب العلمية على المستحقين

وليس يخالجنا ريب في ان اصدقاء الدكتور صروف وتلاميذه وقراء المقتطف جميعاً يغتبطون بتجديد ذكراه بعد انقضاء عشر سنوات على وفاته، وذلك بنصب تمثاله في المعهد العلمي الكبير الذي تلقى فيه العلم ولقنهُ وحيث انشأ مع صديقه وأخيه الروحي الدكتور فارس نمر باشا ، مجلة « المقتطف » سنة ١٨٧٦

أسعد باسيلي باشا

جمع حضرة صاحب السعادة أسعد باسيلي باشا سراوة الأدب والفكر الى سراوة المال. فقد كان معلماً وكاتباً وأديباً قبل أن يخوض معمعة الحياة العملية ويسير فيها الى المقدمة.

«كان أسعد باسيلي أول ظهوره في الحياة العملية أديباً سليم التفكير، وللادب تأثير قوي في النفس حتى لا يستطيع المشتغل به أن يتخلى عنهُ الى حرفة أخرى ولعلّ اشتغالهُ بالادب كان نتيجة شعوره القوي بأنهُ خلق لرآسة عمل واسع وان من حقهِ أن يعرب عن آرائهِ وأن يرشد وأن يتولى توضيح النقاط الغامضة فيما يلحظهُ ويسمعهُ من أحوال الناس وأحاديثهم، فلم يكن الادب سبيله الى الحياة، وانما كانت ارادتهُ وشخصيتهُ وذكاؤه رأس نجاحه»

وأسعد باشا رجلٌ عصاميٌّ فيهِ من سجايا العصاميّ أجلُّها، مشيئة صلبة، وقدرة على الدأب، وذهن مرتب، واستقامة وايمان.

وهذه كلها من اسباب النجاح ولكنها لا تكفي ان لم تؤاتها بداهة هي بمثابة الالهام لرجل الاعمال تدلهُ على مواطن الاقدام والاحجام وتيسر لهُ سبيل التوفيق سواء أأحجم ام أقدم

ولد أسعد باشا في طرابلس الشام من نحو ستين سنة او اكثر قليلاً، ولكنهُ منذ أقام في مصر شارك وطنهُ الثاني سرّاءهُ وضرّاءهُ، وما كاد يعود من أوربا في الخريف الماضي ويعلم بالاكتتاب لمشروع الدفاع الوطني، حتى أسرع الى القاهرة وقابل رفعة الحاخام باشا وسلمهُ تحويلاً يبلغ خمسة آلاف جنيه، فقابلت الحكومة المصرية هذه العاطفة النبيلة وما احرزهُ صاحبها من مقام في حياة البلاد الاقتصادية بالانعام عليهِ برتبة الباشوية السامية

***

ونحن اذ نشكر لاسعد باسيلي باشا أريحيتهُ وتبرعهُ بهذه الجائزة لذكرى الدكتور صرّوف نهنئهُ بما احرزمن محبة واحترام بين جميع عارفيه

العشرة المقدمون

في تاريخ الفكر العربي

اذا وهب واهب سخي مبلغاً كبيراً من المال لتشييد بيه صرحاً علمياً يضمّ بين جدرانه كلّ ما خلفته عشرة من الرجال، كانوا مقدّمي رجال الفكر العربي في تاريخه المجيد، وتصل به بدراسة آثارهم خاصة، فمن تضع فيه؟

١ — الموضوع يقتصر على الادباء والفلاسفة والعلماء

٢ — لا يجوز ادخال رجال الدين ولا رجال السياسة والحرب

٣ — لا يجوز الاختيار من الذين على قيد الحياة

لقد اجمع كلّ من عني بدراسة الحضارة العربية على انها حفظت مصباح المعرفة منيراً في اشدّ العصور ظلمة، واضاف اقطابها الى كنوز المعرفة كنوزاً جديدة لا تقوم بمال، وقد ظلّ اثر بعضهم حيّاً في معاهد اوربا الى مطلع العصر الحديث تدرّس مؤلفاتهم فيها بعد نقلها الى لغات الاقوياء، ولا يزال اثرهم موضوع مباحث مستفيضة يقف عليها اقطاب العلماء في الشرق والغرب جلّ وقتهم وجهدهم

فمن هم مقدّموهم إبداعاً واثراً؟ سواء منهم المسلمون والمسيحيون، والقاطرة واليهود، والفرس والعرب والمغاربة. فكل فيلسوف وكل عالم كتب باللغة العربية يجوز اختياره لهذا الصرح، وطبعاً كلّ اديب؟

والحكم يكون على إحسان الاختيار من جهة، وإحسان اقامة الدليل على وجوب هذا الاختيار من جهة اخرى. فاختيار عشرة من الرجال وسرد تاريخهم لا يكفي بل يكون الاعتماد على تبيين الميزة في الرجل المختار، واثره في ناحية من نواحي ارتقاء الفكر العربي

وسننشر في العدد القادم من المقتطف مقالاً لكاتب اميركي، في «اعظم المفكرين في التاريخ» نحسبه نموذجاً صالحاً لما نقصد.

وفي الجزء القادم بيان وافٍ عن سائر الشروط

الذين يتغذون بارز المقشور ٣٠٠ ضعف حدوثها بين الذين يتغذون بالرز الكامل اي غير المقشور

فلما تبين لهُ ذلك اتضحت امامهُ الخطوة الثانية في البحث : اخذ طائفة من الافراخ (جمع فرخ وهو صغير الطير) وغذاها بارز المقشور دون اي شيء آخر . فأصيبت جميعها «بالبوليبوريتس» (بريبري الدجاج) وماتت . واخذ طائفة اخرى وغذاها بالرز غير المقشور دون اي شيء آخر فلم يصب احدها بالمرض . ثم اخذ طائفة من الافراخ المصابة ، واضاف الى رزها المقشور قشور الرز التي كانت تطرح جانباً فلم تلبث حتى شفيت مما المَّ بها . وكذلك تمكن أيكمان من اكتشاف سبب « بريبري الدجاج » في غذاء ناقص لا في ميكروب . واثبت بتجاربهِ انهُ يستطيع ان يحدث المرض بازالة العناصر اللازمة من الغذاء ثم يستطيع شفاءهُ باعادة هذه العناصر الى الغذاء الناقص . وبعد ذلك دعي الى هولندة وتقلد منصب استاذ في جامعة اوترخت

الاَّ ان شيئاً من الخطإ كان قد تطرَّق الى تعليل أيكمان لما رأى وكشف . كان قد اشار بوجوب اكل الرز كاملاً ولكنهُ لم يستطع ان يعلم سرّ الفائدة المنطوية في قشرة الرز الخارجية . ولم توجه عناية ما الى بحثه ، فظل مرض البريبري متفشياً وظلَّ الوف من الناس يموتون بهِ . فلما نشبت الحرب الروسية اليابانية في مطلع هذا القرن عُطِّل سدس القوات اليابانية عن العمل لتفشي البريبري فيها

وبعد انقضاء ثلاث عشرة سنة على تجاربه ، ذهب شاب بولوني يدعى كازيمير فونك Funk الى معهد لستر بلندن فكشف عن رسالة الطبيب الهولندي وبعد ما طالعها وتعلى معانيها قال ان قشور الرز تحتوي على مادة كيماوية لا ندحة عنها للصحة ، وحاول ان يستخلص تلك المادة مستعملاً الحمام لامتحان فعل ما يستخلص . وبعد عمليات لا عداد لها من الحل والترسيب والتصفية فاز بمقدار يسير من مسحوق ابيض وزنهُ جزء من الاوقية كان قد استخلصهُ من رطل من قشور الرز . ولما امتحنهُ وجد انهُ اذا اضيفت بضعة ملليغرامات منهُ الى غذاء حمام مصاب اصابةً قويةً «بالبوليبوريتس» شفاه منها فتشتد سيقانهُ وتستقيم عنقهُ الذابلة ويتحول حماماً سويًّا

اسم الفيتامين

ولما كان هذا المركب لازماً للحياة (Vita) ويحتوي على طائفة المركبات الامينية (Amine) دعا فونك هذه المادة المقاومة لمرض البريبري فيتامين Vitamine الاَّ ان فونك كان على خطإ في ظنهِ انهُ استخلص الفيتامين النقي من كل شائبة . والاسم الذي اطلقهُ عليهِ كان في غير محله لانهُ ثبت بعد ذلك أن هذه المادة الحيوية لا تحتوي على المركبات الامينية . ولكن الاسم الذي اختاره استهوى الناس ، فذاع في الخافقين وانتهى عليهِ في الكتب العلمية بعد حذف الحرف

الاخير منهُ سنة ١٩٢٠ فصار Vitamin . غير أن فونك كان أكثر توفيقاً في قوله ان المستقبل سيكشف عن امراض اخرى ترجع الى نقص هذه المواد الخيرية في الطعام أو خلوّه منها

وكان العلماء في ذلك العهد شغفين بدراسة ما تحتوي عليهِ الاطعمة المختلفة من مقادير الحرارة وقياس ما يحتاج اليهِ الرجل والمرأة والطفل والحيوان من الحرارة في حالي اليقظة والمنام. واستنبطوا لذلك اساليب متنوعة واجهزة بسيطة ومعقدة . لكن الكيمياء كانت قد اصابت من الارتقاء ما مكن اصحابها من تحضير المواد المغذية في الاطعمة نقية من الشوائب ، فعمد اليها الباحثون في الطعام والحرارة عامهم يستطيعون ان يتوصلوا عن طريق تجاربهم الى تركيب الغذاء الامثل لمختلف انواع الاحياء . ذلك ان جسم الانسان كان في نظرهم اكثر من اتون جلّ ما يحتاج اليهِ مواد تكون بمثابة الوقود . فقالوا : لعل في مواد الطعام اشياء يحتاج اليها الجسم ولا يستغني عنها بصرف النظر عما تولده من الحرارة

وكان قد سبق الى هذا الضرب من البحث رجل يدعى لونين Lunin بدأ يجرب تجاربهُ في مدينة بال السويسرية سنة ١٨٨١ بستة فئران . فوجد انهُ اذا غذاها باللبن عاشت وهي على أتم ما يكون صحة ونشاطاً . ولكنهُ اذا احل محل اللبن سائلاً يحتوي على جميع مركبات اللبن المنقاة اي بروتين اللبن (كاسين) ودهنهُ وسكره (لاكتوس) واملاحه المعدنية محلولة في الماء ماتت بعد انقضاء شهر عليها وهي تتناول هذا الغذاء . فخلص لونين الى النتيجة التالية وهي ان اللبن يحتوي على مادة او مواد غير البروتين والدهن والسكر والاملاح وان هذه المادة لا غنى عنها للصحة . وانقضى عقد من السنين فاذا استاذ لونين يسأل نفسهُ : اتي اللبن حقيقة مواد اخرى غير البروتين والدهن والسكر والاملاح المعدنية لا ندحة عنها للحياة . ام اخطأ لونين في تجاربه؟ وعلى كل حال قرّر الاستاذ بكلهارنج Pfaffenharing في جامعة اوترخت ان يمضي في المباحث التي بدأها لونين فاعاد تجاربهُ فخلص الى نفس نتيجته وهي ان في اللبن مقادير يسيرة من مادة غير معروفة لها اكبر الشأن في التغذية

تجربة هبكنز الحاسمة

وفي سنة ١٩٠٦ شرع هبكنز (فردريك جولند هبكنز وهو رئيس الجمعية الملكية الآن) احد علماء جامعة لندن وهو لا يدري شيئاً عن مباحث لونين وبكلهارنج وأ يكان في مباحث كانت حاسمة في هذا الموضوع . اخذ طائفتين من صغار ذكور الفئران كلٌّ منهما ثمانون فأراً وغذى احداها بغذاء مؤلف من كاسين ونشاء وسكر القصب وشحم واملاح معدنية وكانت جميعها نقية من الناحية الكيمياوية . وغذّى الطائفة الاخرى بالغذاء نفسهِ ولكنهُ اضاف اليهِ مقدار ملعقة شاي

من اللبن الطازج كلّ يوم . فكانت النتيجة ان فئران الطائفة الاولى لم تنمُ وان فئران الثانية نمت نموًّا سويًّا . ثم قلب الغذاء . فأضاف اللبن الى غذاء الطائفة الاولى وحرم الثانية منهُ فامسكت تلك النمو . واذ اخذت الاولى في النماء وتوقفت الثانية عنهُ . وفي سنة ١٩١٢ اذاع رأيهُ النهائي اذ قال ، ليس في وسع اي حيوان ان يبقى حيًّا وهو يتغذى بمركب من بروتينات وادهان وكربوهدرات نقية من الناحية الكيماوية . وقد منح هكنز بالاشتراك مع أيكمان جائزة نوبل الطبية سنة ١٩٢٩ جزاء لهما على مباحثهما

في صيف السنة التي شرع فيها هكنز يجرب تجاربهُ المشهورة ، كان شاب اميركي يدعى المر قُرَر ماكولُم McCollum قد اتمّ بحثاً مسهباً في الكيمياء العضوية بجامعة ييل . كان قبل عشر سنوات قد غادر حقول كنساس مسقط رأسهِ يؤمّ جامعة طالباً للعلم . ولولا حث امهِ لهُ لكان على الاكثر فلاحاً الآن يغالب الرياح والسيول والآفات

كان في حداثته فتىً خجولاً ضعيف البنية يكره دراسة القواعد اللغوية ويمقت الحساب وأخفق في اجتياز الامتحان لدخول المدرسة العالية ولكن سمح لهُ بدخولها تحت التجربة . هنا فقد ماكولم شيئاً من خجله فنبغ في دروسهِ وكان يكسب ما يوفي بهِ نفقات المدرسة باضاءة مصابيح الغاز في شوارع البلدة التي كان فيها وبنقل رزم الصحف من مكان الى مكان وبمساعدة مدرس الكيمياء التجريبية في معمل الكيمياء

وفاز بجائزة مكنتهُ من متابعة دروسهِ في جامعة ييل . ولم يكد يمضي فيها حتى أدرك ان البحث الكيماوي يستهويهِ دون الطب وكان قد وطن النفس عليهِ . قال : « ولو عرض عليَّ سنة ١٩٠٦ أن أكون مدرّساً للكيمياء لقبلت » ولكن أحداً لم يعرض عليهِ ذلك فقضى سنة أخرى يشتغل بإشراف باحث يدعى مندل في الكيمياء الفسيولوجية والفسيولوجيا التجريبية وهو ينتظر ان يتاح لهُ عمل يرتزق منهُ

وفي نهاية السنة وجّهت اليهِ دعوة من ثلاث محطات للتجارب الزراعية ، فأشار عليهِ مندل بالذهاب الى محطة التجارب الزراعية التابعة لجامعة وسكنسن حيث كانوا يجربون تجربة كبيرة الشأن في تغذية الحيوانات

وكانت المسألة التي تدور عليها التجربة هي هي ، تلك المسألة التي بحثها لونين وبكلها رنج وهيكنز — : هل ثمة فرق بين قيمة غذاء عند ما يعطى كما هو في الطبيعة وعند ما تعطى المركبات التي يحتوي عليها وقد جعلت نقية كل النقاء بأساليب الكيمياء ؟

من العجول الى الفئران

ولذلك قرّر الباحث بابكوك Babcock ان يجرّب عدّة تجارب ليمتحن النظريات المختلفة فقد كان يرى ان مقدار الحرارة في الطعام ليس كلّ شيء فيهِ . والمسألة لم تكن علمية مجرّدة في

نظر بابكوك ، لأن جمعة وسكنصن في بلاد تكثر فيها المراعي والقطان ، وأصحاب القطان كثيراً ما يلجأون الى الجامعة يسألون أساطين العلم فيها عما يجب ان يعنوا به قطانهم . وفي أول مايو سنة ١٩٠٧ بدىء في هذه التجربة البسيطة الشأن ، وعهد الى رجل يدعى هارت Hart في الاشراف عليها

أخذت أربع طوائف من العجول وغُذيت أغذية مختلفة . فواحدة منها غذيت بالحنطة ، وأخرى بالذرة ، وثالثة بالشوفان (الزمير) ، والرابعة بغذاء خليط من الحنطة والذرة والشوفان . وكان الباحثون يقيسون ما تأكلهُ العجول وما تتغوطهُ ويحللون هذا وذاك وكان من عمل ماكولم أن يحلل البراز . ولكنهُ كان غير راضٍ عن أسلوب التجربة لانهُ رأى انها لا يمكن ان تخضع لقواعد البحث العلمي الدقيقة ، وان الذين يجربون تجاربهم في الحيوانات الصغيرة كالفئران والحمام والارانب الرومية على الطريق القويم . فعزم ان يعيد تجربة هبكنز على ان يحدث فيها تعديلاً واحداً وهو ان لا يدخل في غذاء الحيوانات التي يجرب التجارب فيها اي مركب كيماوي الا اذا كان نقيًّا كل النقاء وتركيبهُ معروفاً حق معرفة

وبدلاً من ان يغذي الحيوانات بحنطة ، كما فعل الباحثون في تجربة وسكنصن ، وهي حبوب فيها مركبات معقّدة التركيب ، عزم ان يغذيها بغذاء نقي اي مركب من (كـ ١٦ يد ١٠ او ٥ — C16 H10 O5) وبدل اللبن يستعمل بروتين اللبن بعد تنقيته ، وسكر اللبن بعد تنقيته وهكذا

ولم تمض عليهِ بضعة اشهر في وسكنصن حتى شرع في جمع الفئران ليجرب تجاربهُ فيها . فلقي معارضة من مدير المحطة وعميد الكلية ومنع عنهُ المال لشراء غذاء للجرذان . اما غذاء العجول فقد كانت الجامعة مثالاً للسخاء في شرائه

ولكن بابكوك ذهب الى معمل ماكولم وجلس على كرسي فيهِ يبحث في الحطة التي يقوي الشاب ان يسير عليها ، وما خرج من هناك الا وهو يؤيدها . وكذلك استطاع ماكولم ان يمضي فيها

كان يعرف الفئران والجرذان من حداثتهِ وكثيراً ما نصب الشراك لها مع شقيقهِ في الحقول . ثم تعلم انها من خير الحيوانات لتجربة التجارب . فمدى حياتها نحو ثلاث سنوات ومدة حملها ثلاثة اسابيع . والانثى تستطيع ان تلد « بطنها الاول » وهي في نهاية الشهر الثالث من عمرها . ولا تبلغ الشهر الرابع عشر حتى تكون قد ولدت ستة بطون . ونفقات طائفة كبيرة من الجرذان يسيرة جداً

اكبَّ ماكولم على تجربتهِ الخاصة في اوقات فراغهِ من تجربة العجول ومن التدريس في الجامعة فاقام الفئران في صناديق صنعها بيديهِ من خشب وكانت نشأتهُ في مزرعة قد عودتهُ

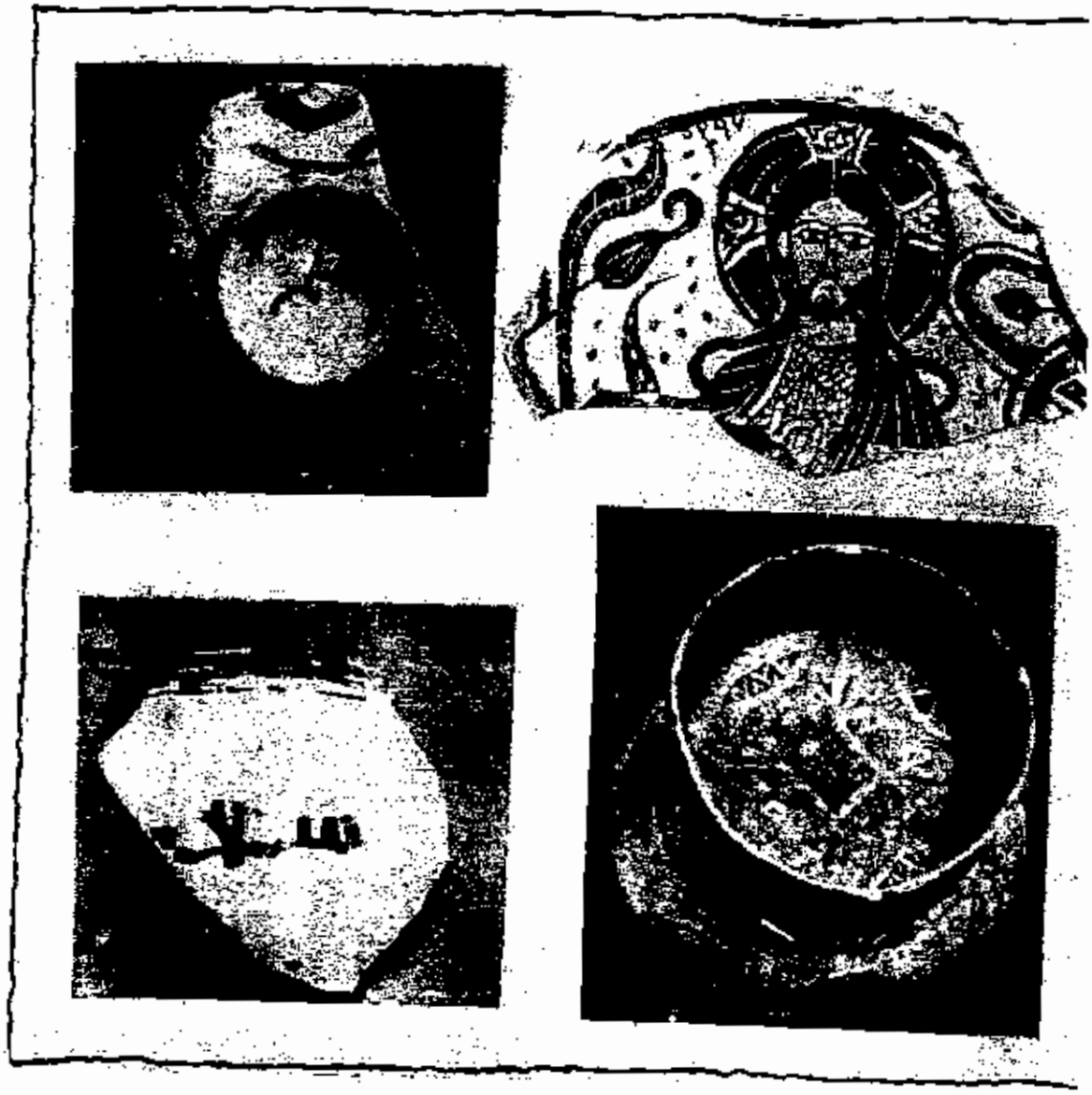

فوق الى اليمين — قطعة من الخزف ذي البريق الذهبي تمثل صورة السيد المسيح يحيط برأسه
هالة من النور — فوق الى اليسار — قطعة من خزف فاطمي عليها أمضاء صانعها سلم
تحت الى اليمين — شباك أناء من الفخار به زخارف هندسية ونباتية دقيقة
تحت الى اليسار — قطعة من خزف فاطمي عليها أمضاء صانعها سعد

الصبر على العمل الشاق ، فكان يشتغل ثماني عشرة ساعة كل يوم ولا يمل . وكان يجيد تفسير النتائج التي يصل اليها ، وفرض الفروض التي يقتضيها البحث ثم امتحانها . وتملكه من البدء طموح عجيب ، واقتناع بانه على الطريق الصواب . وراجع في ذهنه التجارب التي اشترك فيها في يايل ، لمعرفة ما في بعض الاغذية من القيمة والطاقة فضحك في نفسه ، لانه ادرك انها كانت بعيدة كل البعد عن قواعد التدقيق العلمي . اما هنا فتجارب دقيقة . وكل عامل فيها خاضع للقياس . فالجرذ في الصندوق هو انبوب اختباره ، والاغذية التي يغذيه بها هي مواد كيمياوية معروفة مركباتها ومقاديرها

ألغاز اللبن

كان ماكولم يغذي جرذانه بالمقادير الصحيحة من مركب فصفات الكلسيوم غير العضوي وبروتينين نقيين احدهما مستخلص من بزر القطن والآخر من الذرة وبنشائين احدهما من القمح والآخر من الذرة وبكربن سكر اللبن وسكر القصب وبمقدار كاف من الادهان وجميعها نقية من الناحية الكيمياوية . ولكن ظهر له ان الجرذان لا تستطيع ان تحتفظ بصحتها وحيويتها معتمدة على هذا الغذاء فقط فكانت تموت قبل اوان موتها . فظن اولاً ان هذا الغذاء يعوزه شيء يصح سائغاً لا تتقزز منه الشهية فحكم بان ما يجعل الطعام سائغاً عامل لا يستغنى عنه في أي غذاء . ولكنه كان على خطإ في هذا الرأي إلا انه لم يدرك ذلك حينئذ . فاضاف الى طعام الجرذان ما جعله مقبولاً ومضى يبدل في مقادير العناصر المختلفة الداخلة فيه فلما ثبت له ان بعض الجرذان عاش وبلغ الوزن السوي حسب انه اتم اولى التجارب في التغذية بمواد نقية من الناحية الكيمياوية وانه ادرك النجاح المرتقب

وفي خلال ذلك كان هناك باحثان آخران احدهما يدعى اوسبورن Osborne والآخر مندل Mendel يجريان التجارب بقصد معرفة القيمة الغذائية والفسيولوجية في اصناف مختلفة من البروتين التي . وكانا يعلمان ان في البروتينات المختلفة احماضاً « أمينية » مختلفة Amino-acids وكان مهمهما ان يعلما اي هذه الاحماض يجب ان يكون في البروتين الصالح للتغذية . وكانا يستعملان في تجاربهما مواد غذائية نقية كالمواد التي استعملها ماكولم إلا أنها لم تفض الى النتائج التي افضت اليها تجاربه من حيث الجرذان التي نمت وبلغت الوزن السوي . ولكنهما وجدا انه اذا اضاف الى هذه المواد لبناً خالياً من البروتين — وهو عادة في شكل مسحوق اصفر يحضر باستخراج البروتين والدهن من اللبن ثم يجفف — كانت الجرذان تنمو نمواً طبيعياً . فحكم مندل بان الباعث على النمو ما بقي في اللبن من المواد المعدنية . وكان ايضاً على خطإ

وكذلك يتبين القارىء الذي يسير فيه الطاهي وهم يحاولون فهم سرّ من الاسرار ، ولولا الشغف والمثابرة وغيرهما من الصفات التي يتصفون بها ، لما قادهم الخطأ الى الصواب

قرأ ماكولم ما كتبهُ مندل فكان باعثاً لهُ على المبالغة في التدقيق ، فوالى التجارب واضطر ان يتوقف عنها سنة كاملة لان ربة البيت كتسبح جرذانهُ فاماتها جميعاً ، وفي سنة ١٩١٤ نشر في مجلة الكيمياء البيولوجية رسالة فتحت عهداً جديداً في بحث الغذاء . وكان موضوع الرسالة ، « استفراد مادة في الزبدة تؤثر تأثيراً قويًّا في النمو »

كشف فيتامين A

احتوت هذه الرسالة وصف تجربة كان موضوعها الجرذ رقم ١٤١ ومدتها ثمانون يوماً . في خلال هذه الايام الثمانين كان هذا الجرذ يتغذى بطعام مؤلف من كاسين (بروتين اللبن) ولشاء وسكر اللبن (لاكتوس) وأملاح اجار (وهو المادة التي تستنبت فيها الميكروبات احياناً) ومزيج ملح وشحم . وكانت جميعها نقية من الناحية الكيمياوية . فنما الجرذ نموًّا طبيعيًّا ثم اخذ يهزل . فاضيف الى غذائه مقدار يسير من خلاصة الزبدة ، فاخذ وزنهُ يزيد زيادة سريعة . وبلغت الزيادة ٥٠ غراماً في ٣٥ يوماً . ثم ابدل ماكولم خلاصة الزبدة بخلاصة مخّ (صفار) البيض فظلت الزيادة مستمرة . فلما استعمل زيت الزيتون محل الزبدة وصفار البيض توقف النمو . فخلص ماكولم من ذلك الى النتيجة التالية ، وهي ان الادهان (fats) والزيوت (oils) تختلف في قدرتها على الايفاء مع انها لا تختلف الا يسيراً في تركيبها الكيمياوي وذلك لان في الادهان عاملاً غذائيًّا لم يعرف بعد يذوب في الدهن ودعاهُ فيتامين A

وكذلك توصّل ماكولم الى معرفة ذلك العامل الغذائي الذي ظن بكلهارتج وهبكنز انهُ في اللبن

واعاد مندل تجارب ماكولم مستوفياً في كل مرحلة منها اشدّ قواعد التحري ، فاسفرت عما يؤيد ماكولم كل التأييد

ولكن مندل ظل لا يفهم السبب في ان اللبن الخالي من البروتين يؤاتي النمو . ولا استطاع ان يحكم هل النقص في الغذاء الذي ركبهُ من مواد كيميائية يعود الى خطإ في مقادير عناصره المختلفة بقياس بعضها الى بعض او الى نقص عنصر اساسي غير معروف . ثم إن ماكولم قد كان مجيراً . فخلاصة الزبدة او مخّ البيض ، تجعل بعض الاغذية مؤاتية للنمو ، ولا تجعل اغذية اخرى كذلك . وقرأ فونك ما كتب ماكولم ومندل فقال ان العنصر الفعّال في خلاصة الزبدة التي استعملها الاول . انما هو هو الفيتامين الذي يمنع البريبري

ومن الواضح ان جميع الباحثين كانوا لا يزالون حتى تلك الساعة يتلمسون الطريق في التيه

كشف فيتامين B

عاد ماكوم الى جرذانه عازماً على ان يجرب تجربة واسعة النطاق ، مع انهُ كان عليلاً توالت عليه الاصابة بالزكام والصداع والتهاب الحلق والسعب وهبط وزنهُ الى ١٢٢ رطلاً . ولكن هذا البحث كان قد استهواه وملك عليه لُبّهُ . فجرب سلسلة من التجارب متنوعاً فيها مواد الغذاء ومراقباً نتيجة ذلك في نموّ الجرذان فخلص الى ان الحنطة كغذاء يعوزها الاملاح وفيتامين A وبعض البروتين . والى ان الغذاء الوافي يجب ان يحتوي مقادير كافية من البروتين والسكر بوهدرات والاملاح وفيتامين A . وكان الرز من الحبوب التي استعملها في تجاربه فوجد ان الرز غير المقشور يؤاتي النمو . ولكن اذا كان الرز مقشوراً واضيف اليه قليل من الزبدة اي فيتامين A والاملاح لم يسد النقص فيه اي لم تعوضهُ الزبدة عما فقد بقشوره . فاضاف الى الرز المقشور قليلاً من سكر اللبن (لاكتوس) علاوة على المواد الاخرى فكان نموّ الجرذان طبيعيًّا . ففكر ان في سكر اللبن عاملاً آخر خفيًّا من عوامل النموّ لا غنى منهُ . فخطر لهُ ان يمتحن نقاوة السكر الذي استعملهُ فوجد انهُ لم يكن نقيًّا كل النقاوة وان في السائل الذي يستخرج السكر منهُ مادة خفية تؤثر في النمو . ذلك انهُ عندما اضاف هذا المحلول الى غذاء حمام مصاب بمرض (البوليبوريتس) شفي من المرض فشأنهُ في ذلك شأنه لو تغذى بالرز غير المقشور . ففال ماكوم ان هذا العامل الحيوي يدعى فيتامين B وانهُ يختلف عن فيتامين A في ان فيتامين A يذوب في الدهن وامّا فيتامين B فيذوب في الماء وان كليهما لا غنى عنهُ للغذاء الكامل

وكان هذا الفيتامين اي فيتامين B هو هو فيتامين فونك الذي يشفي من مرض البريري

أفضى اعلان ماكوم اكتشافهُ فيتامين B الذي يقي من «البوليبوريتس» الى فهم كثير من الالغاز . فكلا الفيتامينين لازم للنمو السوي . وهذا يفسر عدم نمو الجرذان التي اضيف الى غذائها التي الزبدة النقية دون سكر اللبن . ذلك ان سكر اللبن كان يحتوي على فيتامين B . وهو يفسر كذلك لماذا نمت الجرذان نموًّا طبيعيًّا في تجارب اوسبرن ومندل عند ما اضافا الى الغذاء لبنًا اخرجت منهُ مادتهُ البروتينية . لان هذا اللبن يحتوي على فيتامين B . وهو يفسر تجارب هبكنز الانكليزي وما اصابهُ من نمو في الجرذان عند ما اضاف الى غذائها قليلاً من اللبن الكامل

***

لقد اتضحت مشكلة الفيتامين وقاعدتها الاساسية ان هنالك مواد لا غنى عنها للصحة والنموّ توجد منها مقادير يسيرة جدًّا في بعض الاطعمة ، وقد كشف ماكوم مادتين منها ، فهل ثمة اخرى ؟ (وهذا موضوع البحث القادم)

الجباية في الاسلام (١)

لفارس بك الخوري
رئيس مجلس النواب السوري

في عصر الامويين

كانت دولة العرب على عهد بني أمية في أوج عزها وعنفوان مجدها فكان العرب يمتهنون الشعوب الاخرى ويستضعفونهم ويسمون غيرهم « الموالي » او « العلوج » ويحسبون ديارهم بستان قريش « ما شئنا اخذنا منهُ وما شئنا تركنا » لخزينة الدولة العربية هي جيوب الرعية يتناولون منها ما شاؤا فكان العمال يقولون للناس « انما نحن خزانة لنا ان كثر علينا كثر عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم » وبهذه العقيدة ابتزوا اموال الناس بحق وبغير حق وكان الخراج مفروضاً على الاراضي بمقدار ما يزيد من غلتها عن حاجة الزراع فقط بحيث لا يترك للعامل الا ما يسد به عوزه الضروري ومع ذلك فان بعض العمال سولت لهم نفوسهم أن يستولوا على الغلة برمتها فكانت الشكاوى ترفع الى الخلفاء من جور العمال وتهمهم في الجباية فاذا كان الخليفة منصفاً أنصفهم والا بقي الظلم سائداً والعسف مستفيضاً . من ذلك ما كتبهُ عبد الملك بن مروان الى الحجاج في امر اهل العراق ان «لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً »

وكان للحجاج امثال كثيرون بين عمال الامويين في الظلم والجور وابتزاز الاموال بغير حق تزادوا في الجزية عن الحد الذي اقره الخلفاء الراشدون وخرجوا في الخراج عن النصاب المشروع وفرضوا على الناس الهدايا في الاعياد والافراح وتناولوا النقود بأقل من سعرها الرائج وكانوا يخرصون الحاصلات اي يحزرون مقدارها ويخمنونها باكثر مما هي ويقومونها بالسعر الذي ينالون به ربحاً جزيلاً . وكثيراً ما كان الخلفاء يغمضون العين عن امثال هذه الافاعيل لحاجتهم الى المال ليبذلوه في كم الافواه وغل الايدي وارضاء الناقمين والانفاق في وجوه التبذير والبذخ

(١) من فصل في كتاب « علم المالية » يقوم بطبعه ونشره « مكتب النشر العربي بدمشق »

واتصلت هذه الاعمال بالدور العباسي ايضاً حتى كتب ابو يوسف الى الرشيد يستنفره على العمال والجباة ويحرضهُ على الاقتصاص منهم لانهم « لا يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونهُ وانما مذهبهم اخذ شيء من الخراج او من اموال الرعية. ثم انهم يأخذون ذلك كله بالعسف والظلم والتعدي . ويقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام » . كان من اسلم توضع عنهُ الجزية وينضم الى فريق المجاهدين يتناول الاعطية والانياء فيتحول ما في يده من الارض الى الباقين من اهل قريته يحرثونهُ ويؤدون خراجه فرغب الناس في الاسلام ليخلصوا من عسف العمال والجباة حتى قلّ مكلفو الضرائب ولم يعد في حولهم تأدية الاموال المضروبة على قراهم فصار العمال يجبرون من أسلم ايضاً على العمل في الارض وتأدية خراجها ولم يعد الاسلام يعصم احداً فقلت الرغبة فيه وشكا الناس امرهم الى عمر بن عبد العزيز الذي استنّ بسنة عمر بن الخطاب فكتب الى عماله « ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثهُ جابياً » وأعاد الامور الى مجراها السابق من جهة اعفاء المسلمين

ليس لدينا ارقام يوثق بها عما كان يرد الى خزينة الخلافة في عصر الامويين وانما يؤخذ من اقوال المؤرخين ان متوسط ارتفاع جباية الشام نحو مليوني دينار وجباية مصر ثلاثة ملايين وجباية العراق عشرة ملايين وجباية البلاد الاخرى اكثر من خمسة ملايين فيكون المجموع اكثر من عشرين مليون دينار اي نحو عشرة ملايين جنيه انكليزي وهو المبلغ الذي يدخل في خزينة الخلافة فقط ما عدا الاموال التي يحتفظ بها العمال والجباة لانفسهم او ينفقونها في الامور المحلية وهي اضعاف مضاعفة عن الارتفاع الذي يبثون به الى مقر الخلافة. وقد كان اكثر العمال يحشدون الملايين من الدراهم والدنانير بعد ما يبذخون به ويبذرونهُ من الاموال الطائلة حتى يوجسوا بسعة ثروتهم حسد الخلفاء ويغرومهم بمحاسبتهم واستخراج المال المكنوز منهم جرياً على سنة عمر بن الخطاب الذي كان يمنع عماله من الحشد والتوفير واذا وجد عند أحدهم مالاً قاسمهُ إياه او استخلصهُ منهُ وشاعت هذه الطريقة في عهد الامويين والعباسيين شيوعاً عظيماً

في العصر العباسي

ازدادت الجباية في عصر العباسيين بتوسع الفتوح وانتظام حال الدولة واشتراك الموالي في الحكم والادارة فان العرب لم يكونوا أهل جباية ودراية في الاصول المالية وتنظيم التكاليف والنفقات وانما كان الموالي من الفرس والروم أعرق منهم وأطول باعاً في هذه الامور فمنذ ما بلغ بنو العباس مبلغهم من تقويض الدولة الاموية وولاية الأمر بنجدة الاعاجم من أهل خراسان

امتدت أيدي هؤلاء الاعاجم الى السلطة والاشتراك في الاعمال العامة حتى كادت تقضي على سيادة العرب وكانت أمور المال في جملة ما عني به هؤلاء الموالي لتكثير موارد الخزينة وتشديد شكيمة الدولة على النحو الذي كان جارياً في عهد كسرى

الخليفة العباسي الاول لم يتيسر لهُ جمع كثير من المال لقصر مدته وجدّة دولته ولكن المنصور بعده ضاقت خزائنه بالأموال الوفيرة التي كانت تتسرّب اليه من الأداني والأقاصي فأنفق منها ما أنفق في سبل الصلاح والحاجة وترك بعد موته خزينة احتياطية فيها ما يربي على خمسين مليون دينار وأوصى ابنه قائلاً « قد جمعت لك من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين يكفيك لأرزاق الجند وعطاء الذرية ومصلحة الثغور فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً ». غير ان ابنه المهدي لم يأتمر بهذا الامر بل أسرف وبذخ فبدد ما جباه في زمانه وما خزنهُ لهُ أبوه ولم يخلف شيئاً للهادي الذي تولى الأمر بعده كما ان هذا ايضاً لم يخلف شيئاً للرشيد الذي بذل المال بسخاء عظيم ونقل عنهُ عند موته أكثر مما نقل عن المنصور وقد جرى ملوك الاسلام على اختزان الاموال خلافاً للسنة التي استنها عمر بن الخطاب وبالغ المؤرخون في تعداد ما اجتمع في خزائن الخلفاء والملوك في الشرق والغرب فقيل انهُ وجد في خزانة عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس المتوفى سنة ٣٥٠ هـ نحو عشرين مليون دينار مع أن جبايته السنوية لم تتجاوز ستة ملايين

منابع الجباية في العصر العباسي لم تختلف كثيراً عن منابعها في العصر الأموي وسنذكر شيئاً عن تفصيلها عند البحث في كتاب الخراج لابي يوسف . اما مقاديرها فقد حفظ التاريخ ثلاث قوائم في تواريخ مختلفة جاء فيها مقدار الجباية في كل اقليم من أقاليم الدولة العباسية بحسب الارتفاع الذي كان يقدم لخزينة الخلافة

القائمة الأولى نقلها ابن خلدون في تاريخه وزعم انهُ استحوذ على أوراق رسمية من أيام المأمون اعتمد عليها في تدوين الدخل والخرج في عهد المأمون وليس ثمة مرجع رسمي لما قبل ذلك لاحتراق الديوان في عهد الأمين وضياع الوثائق وهذه القائمة تتضمن جباية احدى السنين بين سنة ٢٠٤ وسنة ٢١٠

والثانية قائمة قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ للهجرة ويظهر انهُ كتب هذه القائمة في كتابه (الخراج) معتمداً فيها على ما وصلت يده اليه من الوثائق الرسمية عن جباية سنة ٢٢٥ في أيام المعتصم

والثالثة قائمة ابن خرداذبه صاحب كتاب المسالك والممالك الذي أدخل فيه هذه القائمة حوالى سنة ٢٥٠

ولا يخفى ان الدولة العباسية اشتملت على جزيرة العرب بكاملها وبلاد الشام ومصر وافريقيا الشمالية كلها الى بحر الاتلانتيك والعراق وبلاد فارس وما وراءها الى حدود الهند وأواسط آسيا الى الحدود الروسية وقسماً كبيراً من بلاد آسيا الصغرى فكانت الجباية في عهد المأمون من

هذه الدولة الواسعة على رواية ابن خلدون تناهز أربعمائة مليون درهم سنويًا وذلك يقارب ثلاثين مليون دينار ما عدا الحيوانات والعروض والسلع التي كانت تستوفى عينًا من الحلل النجرانية والسكر وماء الورد والزيت والعود الهندي والبرادين والارقاء والاهليلج والعسل والبزاة والمناديل والاكسية والفرش وغيرها . اما مجموع الجباية في عهد المعتصم حوالي سنة ٢٢٥ بحسب قائمة قدامة بن جعفر فلم ينقص كثيراً عما كان في عهد المأمون واما القائمة الثالثة التي احصت الارتفاعات حوالي سنة ٢٥٠ فقد نقص منها نحو ربعها ولم تبلغ ثلثمائة مليون درهم . وليس لدينا بعد هذا التاريخ احصاء موثوق به عن ارتفاعات الجباية في الدولة العباسية وانما جرت على هبوط مستمر مع ضعف الدولة وانقسام بلادها بين امراء الترك والديلم والاكراد وسائر المتغلبين من الغزاة

اذا قابلنا هذه الارقام بمعظم الجباية عند الدول الاخرى القديمة وجدنا ان خزائن الخلفاء من العباسيين بلغت شأواً من الثروة تحسدها عليه اعظم الدول قدراً واوسعها جاهاً فان ارتفاعات الدولة الرومية في عنفوان مجدها لم تتجاوز اربعمائة مليون درهم . ومجموع جباية الفرس في ايام كسرى برويز تجاوزت سبعمائة مليون درهم غير ان هذا الرقم يشمل ما كان يجبيه العمال وينفقونهُ في اعمالهم مع ما يرفعونهُ لخزينة الملك على قاعدة شمول الموازنة ولو تيسر لنا احصاء ذلك عند العرب لبلغت جبايتهم اضعاف جباية الفرس

في عهد الراشدين لم تكن قاعدة تقبيل الجباية (تلزيمها) جارية في دولة العرب بل كان العامل يجبي الخراج والجزية وينفق من حصائلها ما يلزم لادارة عمله ويرفع الفضلة الى خزينة الخليفة واذا لم تكفه جبايته طلب ما يلزمهُ من الخليفة . ثم بدأ التقبيل في عهد بني امية وازداد انتشاراً فكان وسيلة لاطلاق ايدي العمال بالعسف والارهاق وزادهم ايغالاً في هذا الجور فقدان القوانين المالية الواجبة الاتباع في اصول الجباية فكان كل منهم مختاراً في استنباط الطرق ووضع التعاليم التي تضمن له جباية اوفر وحصيلة اكثر . ولم يكن هذا العسف والظلم الا معجلاً في تخريب البلاد وتقليل خراجها . خذ مثالاً على ذلك خراج مصر الذي جباه عمرو بن العاص على عهد ابن الخطاب اثني عشر مليون دينار وجباه عبد الله بن سعد في زمن عثمان اربعة عشر مليوناً فتدنى حتى وصل الى مليونين ونصف مليون في عهد المعتصم العباسي

ان اسماء الولايات التي اوردها قدامة بن جعفر في تقويمه لا تتفق تماماً مع الاسماء التي جاءت في تقويم ابن خلدون وتقويم ابن خرداذبه وذلك لانهُ لم يكن للولايات حدود ثابتة وعواصم مقررة بل كان يكثر اندماج عملين او اكثر لعامل واحد وانتقال العاصمة من مدينة الى اخرى فيسمى العمل باسم عاصمته ويتبدل اسمه بتبدلها فبينما نرى في التقويم الاول اسمين لعملين مختلفين نراهما في التقويم الثاني اندمجا في عمل واحد وظهرا باسم مدينة اخرى اتخذت

قاعدة للمال الموحد . ومما يجدر بالذكر ان جدول قدامة خلا من ذكر برقة وافريقية مع ان ارتفاعها في جدول ابن خلدون ورد باربعة عشر مليون درهم وكانت في عصر المعتصم باقية في طاعة العباسيين فاذا اضفنا هذا الرقم الى جدول قدامة تجاوز اربعمائة مليون درهم . وهذا يعدل بنقود هذه الايام ما يقرب من ثلاثة عشر مليون جنيه انكليزي . واذا اتخذنا قوة النقود الاشترائية مقياساً لقيمتها وعلمنا ان اجور العمال واسعار الغذاء كانت في عهد المنصور نحو ثلث ما وصلت اليه قبل الحرب العامة تكون هذه الواردات معادلة لـ ٣٩ مليون جنيه انكليزي . اما وقد تضاعفت ايضاً هذه الاسعار منذ قبل الحرب الى الزمن الحاضر فتكون واردات خزينة المأمون او المعتصم معادلة لمبلغ ٧٨ مليون جنيه انكليزي في هذا الزمان وهي جباية عظيمة جداً كانت ترد الى الخزينة العامة من صوافي الخراج والجزية والعشور على انها في هذا الزمان قد تناولت مطارح لا تحصى وصارت التكاليف الاميرية تجبى عن عروض وسلع واعمال مثل رسوم المسكرات والتبغ والطوابع على امور كثيرة مما لم يكن له اثر في عهد العباسيين . كما ان واردات الدول الحاضرة تنفق جميعها في مصالح الدولة العامة فلا يبقى شيء منها والواردات المذكورة في زمن العباسيين هي فضلات الجباية المرفوعة لخزينة الخليفة الخاصة

وجوه الانفاق

بقي علينا ان ننظر في وجوه انفاق هذه الاموال والاساليب التي يخرج فيها المال من بيت المال بعد دخوله اليه . في الدول الحاضرة لا ينفق قليل او كثير من الاموال العامة من دون معاملة قانونية تقي آمر الاعطاء من التبعة . اما عند العرب وغيرهم من دول الاقدمين فلم يكن شيء من ذلك بل كان امر الاعطاء منحصراً بالخليفة في اموال خزينة الخلافة وبالعامل في اموال ولايته بغير ان يكون هذا الامر مقيداً بقانون او موازنة . فيبذل ويمنع ويكافىء ويجيز ويشتري ويبيع بحسب ما يملي عليه عقله وتقتضيه احواله ورغائبه . اللهم الا ما كان من قبيل الرواتب المقررة لاعوانه وحاشيته والنفقات المقدرة لجنده والاعطيات المعينة لعسكره . وهذا الشطر من النفقات لم يكن في ايام السلم يستغرق الا جانباً من الواردات . ولدينا جدول عن الرواتب والاعطية اليومية عن سنة ٢٧٩ في خلافة المعتضد العباسي عندما تولى الانفاق احمد ابن محمد الطائي فبلغ الخرج اليومي نحو سبعة آلاف دينار يدخل فيها ارزاق القواد وعلوفة الجند واجور الخدم والحشم ورواتب موظفي الدواوين وغيرها من النفقات المقررة فيكون الانفاق السنوي في هذا الباب نحو مليونين ونصف مليون دينار وتبقى اموال الجباية الاخرى مرصدة في بيت المال على اجتهاد الخليفة ورأيه . ولم تكن هذه الارقام والوظائف جارية على شيء مما

معروفة في العصر الحاضر تابعة لموازنة ثابتة وتشكيلات راسخة وانما كانت تتبدل بين سنة وسنة وبين خليفة وآخر بانشاء الوظائف واحداث غيرها وتخصيص رواتب وإبطال غيرها بلا قيد ولا شرط . فينما نرى واحداً ينفق في هذه الوجوه عشرة ملايين دينار في السنة يجيء من بعده فلا ينفق مليوناً واحداً . وقد تقهقرت الجباية مع تقهقر الدولة السياسية فلم يعد الخلفاء يتمكنون من الانفاق بالسخاء الكثير . ولدينا قائمة علي بن عيسى وزير المقتدر العباسي وقسمها عن جباية الدولة ونفقاتها سنة ٣٠٦ ولم يكن وضعه اياها لاجل انشاء موازنة لمالية الدولة وانما جاء بها ليدفع عن نفسه التهمة التي ألصقها به مزاحمه ابن الفرات بسبب العجز الذي ألم ببيت المال في وزارته فبلغ الدخل في السنة المذكورة ١٤٢٥٠١٢٩٠٤ دنانير

ومن ذلك ترى ان الجباية نزلت في هذا العصر الى اقل من نصف ما كانت عليه في عصر المأمون والمعتصم وظهرت ابواب جديدة للانفاق وردت في جدول النفقات الذي اثبتهُ علي بن عيسى مثل نفقات الحرمين وطريقهما ورواتب القضاة في الممالك ورواتب ولاة الحسبة والمظالم ورواتب اصحاب البريد وزيادة رواتب الجند وعدده بحيث بلغ العجز في ميزانية تلك السنة اكثر من مليوني دينار . ومن جملة اسباب هذا العجز ترقي الرواتب من عصر الى عصر . فالخلفاء وأهل بيوتهم والعمال والوزراء والقضاة والقواد والجند كانوا في بادىء الامر يتناولون رواتب صغيرة جداً فزدادت مع الايام حتى صارت أرقاماً عالية . من ذلك رواتب الخلفاء التي بدأ أبو بكر بفرضها على مقدار الكفاية مع الاقتصاد التام وبلغ جميع ما تناولهُ عمر في مدة خلافته كلها لنفقات بيته ونفسه الضرورية ثمانين الف درهم حسبها سلفةً وأوصى بوفائها من أموال آل الخطاب . ثم صارت هذه الرواتب تنمو حتى بلغت حداً فاحشاً وصار الخلفاء يقتنون الاموال والضياع لانفسهم ولاعضاء اسرهم واقربائهم من الرجال والنساء من الاسرة المالكة التي بلغت في عهد المأمون نحو ثلاثة وثلاثين الف نفس يملكون الضياع والدساكر والاقطاعات والنقود والرياش ويجري عليهم الارزاق من بيت المال بسخاء لا مزيد عليه . ومن ذلك رواتب القضاة فقد كان راتب القاضي في عهد الراشدين مائة درهم في الشهر ثم ارتقى حتى صار راتب قاضي مصر في عهد الامويين الفاً ومائتي درهم . وجاء في جريدة المقتدر العباسي ان راتب القاضي خمسمائة دينار في الشهر ، وكانت دخول جبريل بن بختيشوع رئيس الاطباء في عهد الرشيد تناهز خمسة ملايين درهم في السنة يتناول منها من بيت مال العامة (١٨٠٠٠٠٠) ومن جيب الرشيد الخاصة (٤٢٠٠٠٠٠) ومن اصحاب الرشيد واهل بيته (٤٠٠٠٠٠٠) ومن البرامكة (٢٤٠٠٠٠٠٠) ومن غلة ضياعه (١٥٠٠٠٠٠٠) وعلى هذا المنوال ازدادت الرواتب والمخصصات وثقل عبؤها على بيت المال

الجغرافيا الحديثة

رسالتها وأغراضها

لمصطفى عامر
استاذ الجغرافيا في الجامعة المصرية

﴿رسالة الجغرافية الحديثة وأغراضها﴾ لجغرافيا كما لكل علم من العلوم رسالة تؤديها ، وربما كانت رسالتها هذه اكثر اتصالاً بالانسان من رسالة اي علم آخر . فهي لا تدرس ، كما يحسب الكثيرون ، الظاهرات الطبيعية على سطح الارض فحسب ، بل هي تتناول كذلك دراسة الانسان ومظاهر نشاطه ، وتبحث في اثر البيئة في حياته ، وأثره هو في البيئة التي ينشأ فيها . ومن هاتين الناحيتين ، الناحية الطبيعية والناحية البشرية ، اي دراسة المكان ودراسة الانسان ، يتكوّن علم الجغرافيا الحديث

ولا يقتصر شأن دراسة الظاهرات الطبيعية على تفسير بعض أسرار هذا الكوكب الذي نعيش فيه ، بل هي تتعدّى ذلك الى شرح طرق المعيشة وأساليب الحياة عند شعوب الارض وجماعاتها ، كل منها في بيئته الخاصة . وتوضح لنا كيف ان المسائل التي تواجه كلاً منها ، سواء اقتصادية كانت أم سياسية ، هي الى حد كبير متصلة بالاحوال الطبيعية المحيطة بها . فاذا عرفت الامم المختلفة كل هذا ، امكنها ان تنظر بعين العطف الى مشكلات جيرانها ، وأن تتفاهم وتتعاون معهم على حل تلك المشكلات بما يلائم مصلحة الجميع . فيقل الاحتكاك بين الشعوب ويحل التفاهم محل الخصام ، وتتغلب المصلحة المشتركة على المصلحة الخاصة ، وتصبح الحياة على سطح الارض اسعد حالاً مما هي عليه الآن

هذه هي الروح التي تبثها الجغرافيا الحديثة في نفس كل من يتعلمها . فهي تؤمن بالوطنية المعتدلة لا بالوطنية الطائشة ، وتدعو الى التعاون بين شعوب الارض لأنها اجزاء من الوحدة الارضية الكبرى التي لا تقبل تجزئة ، إذ لا يمكن لجزء منها ان يعيش عيشة مستقلة عن بقية أجزائها . وقد ساعد تطور وسائل النقل في العهد الاخير ، كما ساعد التقدم الاقتصادي ، على توثيق الرابطة بين الامم ، واصبح كل ما يمس عضواً من اعضاء الجماعة البشرية يمس العضو الآخر ، كما صار لكل حادث يحدث في ركن من اركان المعمورة صدًى في بقية أركانها . فسائل الانتاج والاستغلال ، ووسائل الاسواق والتوزيع ومسائل الهجرة والاستعمار ،

كلها اصبحت مسائل عالمية، ولا يمكن حلها إلا بتفاهم امم الارض اجمع والتوفيق بين مصالحها المشتركة

من اجل هذا كانت دراسة الجغرافيا ضرورية لكل شخص مثقف يرغب في فهم ما يجري حوله من حوادث ووزن الامور بميزانها الصحيح ، ولاسيما من يتصدّى لمعالجة المسائل القومية والدولية . فاتجاهات الجغرافيا الحديثة ، كما يرى القارىء ، تختلف تماماً عن روح الجغرافيا القديمة ببياناتها المطوّلة عن الرؤوس والخلجان ، والبحار والأنهار ، والسهول والوديان ، والمسافات والأبعاد . على انهُ من الغريب ان تبقى تلك الصورة البالية لعلم الجغرافيا شائعة بين أغلب المثقفين، ومنهم من يُعد من قادة الرأي وأساطين المعرفة . ولطالما سألني كثيرون ، ومنهم بعض الزملاء الافاضل في الجامعة نفسها ، هل للجغرافيا شخصية مستقلة ، تسوّغ وجودها كعلم خاص . فالجغرافيا عندهم مزيج من علوم مختلفة ، اذ هي كما يقولون ، تستمد بعض الحقائق من علوم الجيولوجيا والمتيورولوجيا والنبات والحيوان ، كما انها تتصل اتصالاً وثيقاً بعلمي الانثروبولوجيا والاجتماع . وليس هناك زعم أبعد عن الحقيقة من تلك الآراء . أولاً لان اتصال العلوم بعضها ببعض واعتماد كل منها على الآخر هو من الامور المعترف بها في كل عصر وفي كل دراسة ، وثانياً لان الجغرافيا الحديثة وان كانت تعتمد على بعض النتائج التي وصل اليها الباحثون في شتى العلوم ، فان اعتمادها هذا لا يتعدّى الاستعانة بتلك النتائج في شرح وجهات النظر الجغرافية

ولقد سبق أن حدّدنا أغراض الجغرافيا في أنها تدرس الظاهرات المختلفة المتصلة بالبيئة التي يعيش فيها الانسان ، كما أنها تدرس مظاهر نشاط الانسان كنتيجة لتلك الظاهرات . وهذا البحث لا يُعنى به علم آخر غير علم الجغرافيا . فالانسان في هذا الكوكب يعيش في اقاليم متباينة أو متشابهة ، يتميز بعضها عن بعض في أحوال سطحها ومناخها ونباتها ، وهو موزع على سطح الارض توزيعاً يتبع قواعد خاصة ، وهو في بعض الجهات يزرع الارض ويعيش على ناتجها ، وفي جهات أخرى يعيش على الصيد او الرعي ، أو يشتغل بالصناعة أو التجارة . والانسان عامل على تغيير وجه المعمورة بشتى الوسائل فهو يقطع الاحجار من محاجرها ويستخرج المعادن من باطنها ، وهو يحفر الترع والآبار ويسوق ماء الري الى جهات لم تكن تعرف غير الجفاف والجدب ، وهو يشق الطرق ويخرق الجبال ، ويقطع الاشجار من الغابات ، ويردم البرك والمستنقعات ، وهو يقوم بانشاء المدن والموانىء ، وإيجاد المواصلات السهلة السريعة بين بلاد الارض وما كثيها . كل هذا يمثل بعض نواحي نشاط الانسان على سطح الارض ، والجغرافيا تدرس كل تلك النواحي وتبحث في أسبابها ونتائجها ، وجميعها يدخل في ميدانها وضمن دائرة نفوذها ، ويسوّغ قيامها كعلم مستقل عن بقية العلوم

﴿ الدراسات الجغرافية في الجامعة المصرية ﴾ : أما وقد حدّدنا أغراض الجغرافيا وبيّنا رسالتها ، فيجب علينا أن ننتقل الى بحث مقام هذا العلم بين الدراسات المختلفة في الجامعة المصرية . نشأت الجغرافيا نشأة محدودة ، فكانت عند قيام الجامعة في عام ١٩٢٥ تكوّن هي والتاريخ قسماً واحداً من أقسام كلية الآداب . وكانت الدراسة في هذا القسم واحدة في السنتين الاولين ، ثم تتفرع بعد ذلك الى فرعين ، أحدهما للتخصص في الجغرافيا والآخر في التاريخ . ولم يكن للجغرافيا في ذلك الوقت مكان خاص بها ، كما لم تكن لديها الادوات المختلفة التي يستعان بها عادةً في تدريسها . وكانت الدروس تلقن باللغة الفرنسية ، مما حوّل جهود الطلبة من التحصيل العلمي الى العناية باللغة . غير أن هذه الحال لم تدم طويلاً ، ففي سنة ١٩٢٧ صارت اللغة العربية لغة التدريس ، وان كان قد بقي النظام السابق دون أن يلحقهُ تغيير أو تبديل . وفي سنة ١٩٣٠ نال قسم الجغرافيا استقلاله ، وأصبح قسماً قائماً بذاته ، وأخذ ينمو نمواً سريعاً ويزداد نشاطه وتتسع دائرة اعماله ، واتخذ لهُ مكاناً فسيحاً يسمح بانشاء مكتبة جغرافية تحوي عدداً كبيراً من الكتب والمراجع الحديثة ، كما يسمح بانشاء متحف دراسي صغير ، وأنهاء للمحاضرات والدراسة العملية . ويدرس الآن في هذا القسم سبعون طالباً ، منهم طالب يستعد لدرجة دكتور في الآداب ، وستة يتنسبون لقسم « الماجستير » والباقون في دراسة « الليسانس » . وقد زاد عدد اعضاء هيئة التدريس فأصبح ستة أساتذة ومدرسين ، ثم ساعد يقوم بالاشراف على الناحية العملية من الدراسة كالمساحة والخرائط . اما التدريس فيتناول جميع فروع الجغرافيا الطبيعية والبشرية (وتشمل الناحية البشرية ، الجغرافيا الجنسية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والاقليمية) ، ويعنى القسم عناية خاصة بالدراسات الجغرافية الخاصة بمصر وحوض النيل ، وذلك من جميع النواحي التي ذكرناها . ويقوم القسم بتعويد طلابه البحث والدراسة الشخصية ، فهو يختار في بدء كل عام موضوعاً جغرافيًّا ، توزع اجزاؤه على الطلبة ، وهم يحاضرون فيه زملاءهم واساتذتهم بعد اعداده ، ويناقشون فيه بعد الانتهاء من القائه . ودروس البحث هذه ولو أنها مقتصرة على طلبة الليسانس الممتازين ، الا أن الكثيرين من الطلبة العاديين يأتون اليها بمحض رغبتهم مستمعين ، وهي ظاهرة تدل على ميل واضح للتحصيل دون نظر الى اي اعتبار آخر . هذه كلمة موجزة عن النظام الحالي لقسم الجغرافيا ، وهو نظام لا نعتقد انهُ يقل شأناً عن نظم اقسام الجغرافيا ومعاهدها التي عرفها في الكثير من الجامعات الاجنبية ، وانهُ ليحق لنا فعلاً ان نفخر بذلك كل الفخر . وللقسم صلات طيبة ببعض الجامعات الاوربية ، وقد نشأت تلك الصلات من العلاقات الشخصية بين الاساتذة المصريين واساتذة الجغرافية بتلك الجامعات . وقد ساعد هذا الجو في كثير من الاحيان على تسهيل مهمة بعثاتنا الجغرافية الى الخارج

وعلى الخصوص الى بريطانيا العظمى وفرنسا . وقد سمحت جامعة لفربول كما سمحت جامعة مانشستر لخريجي قسم الجغرافيا بالتحضير للدرجات العالية مباشرة، وذلك بعد أن تحققوا من أن المستوى الذي بلغته دراسة الجغرافيا في الجامعة المصرية لا يقل عن المستوى المعترف به في معاهدهم. وقد كانت البداية عند ما نبتت فكرة ارسال بعثة جغرافية الى بلاد اليمن ان تشترك جامعة مانشستر مع الجامعة المصرية في هذا العمل العلمي الجليل ، ولكن حال دون تنفيذ هذا المشروع على الوجه السابق قيام ظروف سياسية خاصة نشأت عن الحرب الايطالية الحبشية . على اننا قد ذكرنا هذا المثل ليكون دليلاً آخر على ثقة الجامعات الاوربية بمعهدنا ورجاله

﴿ دائرة نشاط قسم الجغرافيا ﴾ : أما دائرة قسم الجغرافيا فتظهر في نواحٍ شتى . فهناك أولاً ناحية تعريف النشء ببلادهم ، وهي تتمثل في الرحلات التي ينظمها القسم بين حين وآخر لأغراض جغرافية بحتة . وقد قام الطلبة والاساتذة برحلات مختلفة الى منخفض الفيوم وخليج السويس وشبه جزيرة سيناء والواحات الخارجة ، وهذا فضلاً عن الزيارات القصيرة لبعض الجهات في منطقة القاهرة وهي زيارات لا تستغرق في العادة أكثر من يوم واحد . ويكاد يكون من المسلم به أن من لا يعرف جغرافية بلاده ولا يعي تاريخها ، لا يمكن ان يكون وطنيًّا نافعاً لوطنه مفيداً لقومه ، كما أن من يجهل الحقائق الاولية لجغرافية العالم يكون محدود المعرفة والثقافة . ويكون حكمه على الحوادث والشؤون العالمية حكماً ناقصاً

ثم هناك ناحية النشاط التي تظهر في المحاضرات العامة ونشر المقالات العلمية والكتب الجغرافية ، ومحصول القسم من تلك الناحية محصول طيب اذا قيس بمحصول غيره من الاقسام . وقد ظهرت بعض ابحاث اساتذة القسم في المجلات المصرية كمجلة الجمعية الجغرافية الملكية ومجلة كلية الآداب ، وفي بعض المجلات الانجليزية والفرنسية كمجلة « الجغرافيا » التي تصدر بمانشستر ومجلة المعهد الانثروبولوجي الملكي بلوندرة ومجلة « الانثروبولوجيا » الفرنسية . وقد طبعت الجامعة المصرية على نفقتها مجلدين ضخمين يحويان نتائج البحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ وهو البحث الذي يقوم به قسم الجغرافيا في جهة المعادي

كذلك اشترك القسم في المؤتمرات الجغرافية الدولية المختلفة منذ عام ١٩٢٨ ، وقد ألقى ممثلوه في كل مؤتمر من تلك المؤتمرات ابحاثاً جغرافية عن مصر . وقد اشترك القسم كذلك في عدة مؤتمرات أخرى منها المؤتمر الدولي للسكان والمؤتمر الدولي لعلوم ما قبل التاريخ والمؤتمر الدولي للعلوم الانثروبولوجية . ونجح قسم الجغرافيا في العام الماضي في تنظيم بعثة جغرافية لارتياد بلاد اليمن وحضرموت ودراسة احوالها الفزيوغرافية والبحث عن ادلة تثبت سكنى الانسان فيها في عصر ما قبل التاريخ . وقد اشترك في تلك البعثة قسم اللغة العربية لدراسة اللهجات والنقوش القديمة،

وقسما الجيولوجية والحشرات بكلية العلوم وكان المشرف على البعثة أحد أعضاء هيئة التدريس بقسم الجغرافية ممن عرفوا بالجد والنشاط وقوة الملاحظة والولع بالبحث والتدريس. وقد قضت البعثة في تلك البلاد زهاء ثمانية شهور، جمعت في خلالها كثيراً من المعلومات القيمة، وهي تشتغل الآن بدرسها وفحصها تمهيداً لنشر نتائج بحثها في الاوساط العلمية. هذا ولا يخفى ما لموقع إقليم اليمن من شأن كبير في دراسة الكثير من مسائل الجغرافيا الطبيعية والبشرية، ولا سيما هجرات الشعوب القديمة وانتقالها، إذ اليمن حلقة اتصال هامة بين شرق افريقية وشبه جزيرة العرب

وفي الناحية التعليمية، يعنى قسم الجغرافيا عناية كبيرة بالسعي لتحسين تعليم الجغرافيا في المدارس المصرية. وقد اشتركت وزارة المعارف بعض رجاله في وضع مناهج الجغرافيا الجديدة في مراحل التعليم المختلفة، واتصل القسم في السنتين الأخيرتين بمدرسي الجغرافيا في مدارس القاهرة الثانوية، ونظم لهم محاضرات خاصة في تلك المادة يحضرونها في اوقات فراغهم. والقسم على اتصال دائم بخريجيه الذين يشتغلون بالتدريس والذين أصبحوا منتشرين في كل ناحية من نواحي القطر المصري حتى المحطات النائية أمثال مرسى مطروح والواحات الخارجة. ونحن نرجو من وراء هذا الاتصال أن نصل بتدريس الجغرافيا إلى المستوى اللائق به، وأن نشجع بعض المدرسين الممتازين على مواصلة ابحاثهم الشخصية في الجهات التي يقومون فيها بأعمالهم الرسمية

﴿حفائر قسم الجغرافيا في المعادي﴾: أما الحفائر التي يقوم بها قسم الجغرافيا للبحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ في المعادي فيرجع عهدها الى عام ١٩٣٠ حينما بدأ أول موسم للحفر وأسفر عن نتائج علمية خطيرة لم تكن في الحسبان. ولربما كان من الجدير بنا هنا ان نشرح الظروف التي حدت بالقسم الى القيام بتلك الابحاث علاوة على ما لديه من اعمال. فمن الدراسات الجغرافية التي تعنى بها دراسة الجغرافيا التاريخية، وهي دراسة جديدة لم تكن معروفة عندنا من قبل، والغرض منها تتبع الادوار المختلفة التي مرت فيها الحضارة المصرية منذ أن ظهر الانسان أول مرة في مصر، وبحث الجنس أو الاجناس البشرية التي تنتمي اليها، والاحوال الجغرافية التي سادت في خلال كل دور من تلك الأدوار. فكما اننا ندرس الجغرافيا البشرية لمعرفة مظاهر نشاط الانسان الحالي وعلاقة ذلك بالبيئة الطبيعية التي يسكن فيها، فاننا ندرس الجغرافيا التاريخية لمعرفة حياة الانسان واعماله منذ العصور الحجرية. وعلاقة ذلك بالظروف الفزيوغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية في تلك العصور. من أجل هذا كانت دراسة عصر ما قبل التاريخ، وأن كانت متصلة بالناحية الاركيولوجية، الا انها متصلة كذلك، والى حد بعيد، بالناحية الجغرافية. ومن هنا نشأ اهتمام الجغرافيين في كلية الآداب بدراسة عصر ما قبل التاريخ، وبدأت رغبتهم تتجه الى فحص الجهات الاثرية القريبة من القاهرة والتي يرجع عهدها الى ذلك العصر حتى تسير الدراسة النظرية جنباً الى جنب مع التطبيق العملي

وقد وقع الاختيار فعلاً على الأكوام القائمة في الصحراء شرقي المعادي ، وحفرت الجامعة في تلك الجهة في خلال المواسم الستة السابقة (سنة ١٩٣٠ — سنة ١٩٣٦) ، وبلغت المساحة التي تمَّ حفرها حوالي ثمانية أفدنة . وقد أدى هذا البحث الى الكشف عن حضارة جديدة من حضارات مصر في العصر السابق للتاريخ ، وهي حضارة لم يكن يعرف عنها شيء من قبل ، سكنَ أصحابها اقليم المعادي قبل قيام الأسرات بعضة قرون ، وعاشوا بالزراعة وتربية الحيوان . وقد حذقوا صناعة الاسلحة الصوانية والآنية الفخارية والحجرية ، وعرفوا النحاس وصناعة النزل والنساجة ، وشيدوا أغلب مساكنهم من أغصان الاشجار والطين . وان كان البعض قد حفر كهوفاً عميقة في التربة الرملية ، واستخدم البعض الآخر الحجر والطوب في البناء ، وربما كان ذلك لاول مرة في شمال مصر . وقد جلبوا معدن النحاس والمانجنيز من سيناء ومادة القار (الاسفلت) وبعض السلع من فلسطين ، واتصلوا بالصعيد بوساطة النيل كما يتبين ذلك من دراسة بعض آثارهم .

هذه هي أهم مظاهر الحضارة الجديدة التي كشف عنها قسم الجغرافيا في المعادي ، والتي أدّى كشفها الى القاء ضوء كثير على حياة الانسان في الدلتا في عصر ما قبل التاريخ ، وعلى علاقاته بجيرانه سواء أكان ذلك في مصر أم في خارجها . وقد كانت كل معلوماتنا عن ذلك العصر تأتي من الصعيد ، ونسب الكثير من العلماء نشأة الحضارة المصرية الى الوجه القبلي . والمباحث الجديدة في المعادي وفي غرب الدلتا (حيث تعمل بعثة نمسوية) أظهرت ان الدلتا كانت دون شك أعرق حضارة وأعظم تقدماً وأكثر عمراناً من الصعيد . وقد ساعد على تقدمها هذا ثروتها الزراعية ومراعيها الغنية وموقعها الجغرافي الذي سهل اتصالها بالاقاليم المحيطة بها . ونحن اليوم نؤمن بان الحضارة المصرية هي وليدة البيئة المصرية وليست حضارة غريبة وصلت مصر من الخارج ، كما نؤمن أن تطور تلك الحضارة استمر منذ العصور الحجرية الى اليوم ، وقد حافظت تلك الحضارة على صبغتها المصرية على الرغم من الغزوات التي انتابت هذا البلد في اوقات مختلفة

وقد كان من نتائج تلك الاعمال الموفقة في المعادي أن اخذت تتصل بقسم الجغرافيا بعض الهيئات الاوربية التي تعنى بدراسة عصر ما قبل التاريخ في مصر ، وتستعين به في بحوثها . فقد قام احد اعضاء هيئة التدريس فيها بدراسة مجموعة الآلات الصوانية التي جمعتها البعثة البريطانية التي تقوم بالحفر في جهة أرمنت ، وكان لهُ شرف كتابة جزء كبير من تقرير هذه البعثة ، كما اشترك في الابحاث التي تقوم بها بعثة بريطانية اخرى في اقليم الفيوم . وقد قدمت تلك البعثات الى متحف القسم بعض ما وجدتهُ من آثار ، وفي هذا مكسب كبير للمجموعة الدراسية النفيسة لعصر ما قبل التاريخ في مصر ، وهي المجموعة التي يعمل القسم على إعدادها وتنظيمها لتضاف الى متحف كلية الآداب في المستقبل

أهذا دم بشري

اسلوب بديع في تضريب دم عن دم يعتمد عليه في المحاكم

ذهب رجلان الى الصيد معاً ثم عاد احدهما وبقي الآخر حتفه في اثناء الصيد . فلما سئل رفيق الصيد في ذلك قال انه لقي جثة صديقه في حالة تدل على انه اصيب خطأ بقذف ناري. ودلت حوادث القاجعة على ان روايته صحيحة . ولكن ارملة القتيل لم تقتنع بما قيل فطلبت اجراء البحث . وفي اثناء التحقيق سئل الرجل المشبوه ، عن بقع قاتمة على السترة التي كان يرتديها وهو في الصيد ، فقال انها بقع من دم إيّل اصطاده وجره الى المضرب الذي اقامه. فدعا وكيل النيابة كيمياوياً حيوياً وطلب اليه ان يفحص هذه البقع وهل هي حقيقة بقايا من دم الايل

اخذ الكيمياوي السترة وعاد بها الى المعمل واقتطع منها القطع التي عليها بقع الدم وغمسها في محلول مالح . ذلك ان التحقيق المطلوب منه كان يقتضي منه معرفة امرين : اولهما هل هذه البقع بقع دم وثانياً هل هي بقع دم ايل ؟

فللاجابة عن السؤال الاول ، اي لمعرفة هل هذه البقع بقع دم اطلاقاً ، عمد الباحث الى المجهر باحثاً في النقيع عن كريات الدم الحمر ، ولكن البقع كانت قديمة ، فانحلت الكريات وتلاشت ، اذا كان ثمة كريات . ثم نظر في المحلول بوساطة المطياف فتبين الخطوط السود التي يمتاز بها طيف الدم فاستوثق من ان هذه البقع بقع دم حقيقة

بعد ذلك تقدم الى البحث في هل هذا الدم دم إيل كما يقول صاحب السترة ام هو دم آخر . فكيف يفعل ذلك ؟

يعرف قراء المقتطف ما يراد بلفظي « الاجسام المضادة » فهي اجسام دقيقة يولدها الجسم عندما تدخله مادة غريبة تتهيج انساجه فتفرز مواد كيمياوية اطلق عليها اسم « اجسام مضادة » . فيصبح الجسم منيعاً لا تؤثر فيه تلك المادة زمناً يطول او يقصر. فالطبيب اذا شاء ان يحصن رجلاً ضد مرض الجدري حقنه بميكروبات المرض بعد اضعافها

فيثير وجودها انساجه فتنشط الى افراز المواد الكيميائية المعروفة باسم الاجسام المضادة وبذلك يصبح هذا الرجل منيعاً او محصناً ضد هذا المرض

وعاد الباحث في دم هذا المشبوه ، أجسام مضادة كذلك ، بل أنواع مختلفة منها . ولكنها يجب ان تكون وهن اشارته في الثماني والاثنا عشر ليتمكن من تجربة التجارب بها . فعليه ان يصنعها أولاً في دم بعض الحيوانات ، ثم يستخلصها منها ويعدها للتجريب بها متى شاء

وهو يتوسل الى غرضه هذا بالارانب فيأخذ منها طائفة مؤلفة من ٢٥ الى خمسين أرنباً ويقيم كلاً منها في قفص ويرقم كل قفص برقم ، ثم يحقن كلاً منها بقدر يسير من دم حيوان آخر ، فيثير وجود هذا الدم في دم الارنب انساج الجسم فتفرز المواد الكيميائية المعروفة باسم « أجسام مضادة » . فيحقن الارنب الاول بدم الفرس والثاني بدم الغزال والثالث بدم الحمار والرابع بدم الدجاج والخامس بدم المعز وهكذا

ثم عليه ان يستخرج هذه الاجسام المضادة المنوعة من دم الارنب ليحفظها في أنابيب خاصة فيستعملها حين يشاء . فيخز شرياناً في أذن كل أرنب عولج بالطريقة المتقدمة ، ويجمع مقداراً من الدم السائل منه ، فيتركه في وعاء نظيف حتى يختثر ، فينفصل مصل الدم عن المواد الجامدة التي كانت معلقة فيه ، وتكون الاجسام المضادة في هذا المصل ، فيوضع كل مصل في زجاجة وترقم الزجاجة برقم الارنب الذي استخرج المصل من دمه . فاذا كان الارنب رقم ٢ هو الارنب المحصن ضد دم الفرس كانت الاجسام المضادة التي في زجاجة رقم ٢ هي الاجسام التي تستعمل في امتحان بقعة دم قيل فيها انها بقعة دم فرس

وعلى ذلك تكون هذه المصول معدة للعمل ، ولكن قبل استعمالها يجب ان يستوثق من انها تحتوي على الاجسام المضادة . وليس ثمة فارق ظاهر بين مصل يحتوي على أجسام مضادة وآخر لا يحتوي عليها . وللاستيثاق من ذلك أسلوب بديع

* * *

تؤخذ عشرة حالات للانابيب وتوضع متوازية ويوضع في كل حالة منها عشرة أنابيب ويوضع في أنابيب الحالة الاولى مصل دم أرنب محصن ضد دم الكلب . وفي أنابيب الثانية مصل دم أرنب محصن ضد دم الدجاج وهكذا . والغرض ان نعرف هل كل مصل من هذه المصول العشرة يحتوي على الاجسام المضادة الخاصة

ثم يأخذ قليلاً من دم الكلب ، فيضع قطرة منه في الانبوب الاول من كل حالة . وقليلاً من دم الدجاج ويضع منه قليلاً في الانبوب الثاني من كل حالة . وهكذا . ثم يهز كل انبوب هزاً عنيفاً حتى تختلط محتوياتها بعضها ببعض ، ثم يغطسه مدى يضع دقائق في ماء حرارته ٣٧ درجة مئوية وهي الحرارة السوية في اجسام الحيوانات الدافئة الدم

وبعد ذلك يشرع الباحث في فحص هذه الانابيب . والفحص غاية في الدقة ، لان اقل

خطإ يرتكبه قد يفضي الى اعدام بريء . ولكن الكيميائيين المدربين لايخطئون ، ولذلك لا تعتمد المحاكم في مثل هذه الشؤون الا على من استوفت من كمال دربته ودقته فعندما يخرج الانابيب من المغطس الساخن ، يرى في بعضها تبيراً اذ يشاهد راسب ابيض في الانبوب الاول من الصف الاول والثاني من الثاني والثالث من الثالث

فعلى ما يدل ذلك ؟ قلنا ان المصل في الصف الاول كان مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب . وقلنا اننا اضفنا الى الانابيب الاولى من الصفوف العشرة قطرات من دم الكلب . فلم يحدث الراسب الاَّ في الانبوب الاول من الصف الاول

اي ان في مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب مواد اذا اجتمعت بدم الكلب احدثت راسباً . وهذه المواد هي الاجسام المضادة . فاذا لم يحدث ترسيب دل ذلك على ان الاجسام المضادة التي تحدث ترسيب مادة معينة غير موجودة وهذا يعني ان مصل دم ارنب محصن ضد دم الكلب لايحدث راسباً الا اذا اجتمع بدم الكلب . وان مصل دم ارنب محصن ضد دم بشري لايحدث راسباً الا اذا اجتمع بدم بشري . وجميع هذه المعدات تعد تمهيداً وليس على الكيميائي الا القيام بمراتب الامتحان الاخيرة عندما تطلب اليه المحكمة ذلك

***

لنعد الآن الى قصتنا وقضيتنا . عاد الكيميائي الى معمله وقطع قطع النسيج المتلطخة بقيع الدم وأثبت انها دم اولاً ثم حاول ان يعرف هل هي دم إبل كما يدعي صاحب السترة او لا . فأعد انبوباً ووضع فيه مصل دم ارنب محصن ضد دم الابل واضاف اليه قليلا من المحلول الملاح الذي يحتوي على نقيع الدم الذي على السترة ، فلم يحدث اي ترسيب فكان ذلك قاطعاً بأن الدم الذي على السترة ليس دم إبل . ولعله دم ديك . فأخذ انبوباً ووضع فيه مصل دم ارنب محصن ضد دم الديك واضاف اليه قليلا من المحلول الملاح المحتوي على نقيع دم السترة فلم يحدث ترسيب فكان ذلك قاطعاً بأن الدم على السترة ليس دم ديك . فلما وضع في انبوبة قليلا من مصل دم ارنب محصن ضد دم بشري وأضاف اليه قليلا من المحلول الملاح المحتوي على نقيع الدم الذي على السترة حصل الترسيب فثبت ان الدم على السترة كان دماً بشرياً

لحقيقة والتاريخ

الزهاوي

في ديوانه الاخير — تحية ذكراه الاولى

لاحمد محمد هيثم [1]

— ١ —

« الأوشال » هو أحدث دواوين الزهاوي وأوضحها مقصداً وأصدقها اتجاهاً وأقتها وأكثرها معنىً وأظهرها على الاطلاق . أبان عن شخصيته أيما ابانة وكشف ما استتر منها بوضوح وجلاء ، تغلب عليه لغة العلم الجافة التي لا تصلح كثيراً للشعر والتي فيها من التداني والتدلي ما يقربها من الارض — ووالله ما عرفت الشعر يوماً الا في السماء !!

وهو — الأوشال — كأخوته دواوين الزهاوي فيه من الايمان آيات بينات ومن التحرر ضلالات وترهات ومن اليقين حسنات طيبات ومن الشك شبهات وترغات ومن الترح لفحات وصدمات ومن البكاء عبرات وزفرات ومن الربيع ورود وباقات ومن الخريف روايع ونسمات ومن المنطق غدوات وأمسيات ومن التمرد سرحات ووثبات . فيه من البحر أواذيّ مصطخبات ومن الأوشال حفنات قليلات ومن اللذة سرور ونشوات ومن الألم إعوال وحسرات . فيه من الشباب صبوات وجهالات ومن الشيخوخة كبوات وشهقات ، فيه من الفجر أنوار وابتلاجات ومن الليل غشيات وظلمات . فيه ما يمتع الانسان وما يتعشقهُ من سحر وروعة وما يدهشه العالم من قياس ومنطق وما يتطلبهُ الفيلسوف من استشفاف للغيب وارتياد لمجاهل قضايا الكون المجهول منها والمعلوم

— ٢ —

ليس لك يا صاحبي أن تقرأ ديواناً من دواوين الزهاوي الا بعد أن تقرأ رسائله الذهبية التي أودعها خلاصة آرائه ومذاهبه في الكون والحياة . ذلك لأنها بمنزلة الشرح والتفسير لشعره في مختلف أطواره وجدير بك ان تتحرر كثيراً وتتحصن وراء ثقافة علمية ومعلومات رياضية عالية قبل البدء في قراءة ذلك الرجل ومذهبه في الشعر ذلك المذهب العجيب ، حتى

(١) — أحد فصول كتابنا « جميل صدقي الزهاوي » الذي لم يطبع بعد

لا تغرنك سهولة ذلك الشعر وسذاجة ألفاظه ورواعها فان وراء الاكمة ما وراءها ووراء تلك الالفاظ السهلة معانٍ بعيدة الغور وفلسفة للكون من العجب بمكان مبنية على استنتاجات منطقية وقوانين رياضية محتومة لا مفرّ منها، حتى لا تُظلم ولا تظلم وتكون في حكمك على هذا الرجل من الصائبين

افتتح الديوان بمقدمة أجمل فيها رأيه في الشعر وأبان عن وجهة نظره وأنهُ ذلك الطائر الفرد الذي يستوحي الطبيعة وجمالها ويفرد غير آبه بالقيود والاصفاد حاملاً رسالة التجديد والانشاء لا بناء الرافدين . ولا يعترف في مقدمته بالعاطفة التي هي قوام الشعر الصحيح ، وقد جرّه ذلك الى مشاكل جمة مع نقاده — وسنينهُ كله في موضعه من الكتاب — ولا يحب الشعر شعراً الا اذا كان لحنه وسداه مسائل العلم كشعراء الترب في هذه الايام على حد قوله ، وادروع الشعر عنده ما كان علميًّا فلسفيًّا « ولم يشتهر الخيام والمتنبي والمعري الا بشعرهم الفلسفي وهو الذي يجري على الالسنة كالامثال » . ولنا ردٌّ على ذلك في حينه لانا من مخالفي هذا المذهب ، وقد عرّف الشاعر وقال انهُ لا يكون شاعراً الا اذا توفرت فيه ثلاث « الاولى ان يكون لهُ استعداد ذاتي للشعر والثاني ان تغزر مادته في اللغة والعلم والثالث ان يكون قد مارسهُ طويلاً » الخ . . . .

وهذا كلام لا غبار عليه غير انهُ ينقصهُ شيء من التحديد والتعريف . فكل شعور يسم لك اغلظ الايمان انهُ اوتي ملكة الشعر وانهُ يرى في نفسه القدرة على صوغ قلائده الجميلة بله على ارتجال عيونه ! ! . . . ولكن العبرة بروح الشعر روح الجمال والحب والحقيقة ذلك الروح المنطلق في الآفاق العالية والاغوار البعيدة النائية والاجواء العاطرة الساحرة المجهولة البقاع

لنترك هذا التعريف — تعريف الشعر والشاعر — فله مكانه من الكتاب ، ولنعود الى المقدمة هذه فنجد انها لا تنفع غلة ولا تشفي علة وبانيها شرحت لنا مسميات شعره وأبانت عن مذاهبه الفلسفية بعض الشيء واوضحتها كبلج الصبح ، كما يجب ان يكون الوضوح والبيان

— ٣ —

شعر هذا الديوان من الشعر الجديد لا مشاحة غير انهُ يشوبهُ بعض قصائد من المديح والرثاء ولولا انها بريئة ولشخصيات تستحق التقدير لشنت الغارة عليه

وعلى ذكر هذا الشعر شعر المناسبات — نذكر حسناته — ان كانت لهُ حسنات — احقاقاً للحق رغم تحاملنا عليه وازدرائنا لهُ ، فمن حسناته عند القدامى تلك الحكم الباهرة والاوصاف الباهرة التي زفها أمثال المتنبي والنواسي والبحتري بين ثنايا قصائدهم الى ممدوحيهم ووالله لا أدري متى تجرؤ مدارسنا الشعرية الحديثة على حذف المدح من تلك القصائد وهاته

المقطوعات كي نُقبل على هذا الشعر بشغف لايقل عن اقبالنا وشغفنا بالشعر الغربي أو الشعر الحديث في العالم العربي

ومن حسنات شعر الزهاوي — رثاء ومديحاً في ذلك الديوان وفي غيره ، رسمه صوراً مختلفة لصورته وشخصيته وقسيته وأمانيه وآماله بجانب شخصياته ، وانها لحسنة فضل نشرها لهُ عداد الاعجاب. وحسنة اخرى كبرى نشرها لهُ عداد الفخر والاشادة بذلك الشاعر الفحل ، الذي لم يمتهن كرامة الشعر والشاعر ويتجر بشعره ويتزلف به الى اولي الامر او الملوك والامراء على الاقل ، الذي حقق ان الشاعر بثابة ملك غير متوج وحقق أيضاً — عملياً — نظريتنا المتضمنة عدم الاعتراف بشعر الرثاء والمديح لعدم صدقه وروعته وانسانيته في معظم الاحايين. فقد آثر المغفور لهُ الملك فيصل عقب تتويجه ان يجعل من المرحوم الزهاوي شاعره الخاص مقابل مكافآت مالية لامقطوعة ولا ممنوعة لفقره وعوزه يومئذ ، فرفض بأباء وشمم ان يكون — طيلة حياته — «العصفور السجين الذي تلقى اليه الحبات في قفصه الصغير ليعيش ويتردد مكرهاً وينوح مكرهاً» فألح عليه المغفور لهُ الملك فيصل ان لايخالفهُ في مسألة كهذي — وما اراد جلالته بهذا غير سد عوزه وفقره يومئذ لما يطلبهُ عن صلاته ومبلغ اعتداده بنفسه — فلم يتزحزح عن رأيه قيد أنملة قائلاً لهُ « ان مدحك يامولاي فرضٌ عليّ اذا ما ومضت بارقة امل للوطن العزيز في عهدك السعيد . اما الذهب يامولاي فلا حاجة للشعر به لانهُ لن يجمّل تاجه الجميل » ! ! . .

— ٤ —

يطالعك هذا الديوان بقصيدة فلسفية عنوانها « منك أنا » ومطلعها

يا روح هذه الدنى شرارة منك أنا
قد استطارت تبتغي لنفسها ان تعلنا
إن بصيصي كلهُ من بعض ذلك السنا
انك انت الكون والذي لهُ قد كوّنا

فيخيل لك هذا المطلع وتحسب ان ذلك كلام لا شية فيه واذا بك تتحدر الى فلسفة غريبة فيها منطق واضطراب وشك وايمان وتحرر من الايمان — الايمان الذي لا يسلم به العقل ويقف حجر عثرة في سبيل تحقيقه — وفيها تقراءى فلسفة الرجل وعقيدتهُ ، فهو هنا يؤمن بمذهب الدور — التغير — ذلك المذهب القديم الذي انفرد به هو في العصر الحديث وكاد يضع اصوله والذي يقول فيه اننا نموت هنا ونحيا هناك ، نموت هنا بصورة ونحيا هناك بصورة أخرى فلا فناء ولا عدم ونظل هكذا دواليك الى ما شاء الله ابد الآبدين . وهذا المذهب لا يقرب من

مذهب الحلول كما يفهم بعضهم اذ الاول مبني على قوانين علمية اما الثاني فسائله افتراضية محضة قاله بعض المتصوفين في حالات غيبية بحتة شاهدوا في خلالها بصفاء ارواحهم كثيراً من غوامض الكون واسراره العجيبة فانطلقوا غير واعين لما يقولون . وقد فصل الزهاوي مذهب « الدور » هذا في رسالته العلمية الصغيرة « الجمل بما أرى » وسنفصله ونرد عليه بدورنا في مكانه من الكتاب . انظر اليه يخاطب هذه الروح التي تمثلها في قصيدته سيطرة آمرة

منك انبثقت بدءما فيك كنت أزمنا
فكنت طوراً خافياً وكنت طوراً بيّنا
وسوف أبقى بك من بعد الردى مرتهنا
وليس موتي غير تغيير يّ فيك السكنا
وليس في انتقالتي منك اليك من عنا
فلا انفصال عنك لي هنالك كنت ام هنا

يقول ذلك في الوقت الذي لا يصدق فيه الاساطير والمعتقدات باسلوب حكمي لاذع وبعقل متشكك جبار متحرر لا يمتّ الا بالمنطق والمادة وما يتبعها من قوانين واحكام

فهو لا يؤمن الا بتلك الومضات الكهربائية التي تنبثق من تفاعل المادة تلك التي يعزو اليها تنسيق الكون بما بثته من حياة في هذه الاحياء وانها ذلك الينبوع الذي يثرّ عليه السحاب ماء فلا ينضب وسيظل باقياً ما بقي ذلك السحاب عند قوله

ان الحياة ومضة منك ابت ان تكمنا
الى ان يقول الكون قد بنيته وانت خير من بنا
بك الوجود واجب فليس يقبل الفنا
وليس كون ماله من اول مكونا

وهو هنا على ما يلوح لي يخاطب المادة او بعبارة أخرى يخاطب الأثير وهذا هو الصحيح . فالاثير عنده هو كل شيء ، وهو هنا يفترض الاثير كأداة خالقة مسيطرة وان كان الاثير كما نعتقد ليست له تلك القوة الفعالة القادرة التي ينسب اليها الزهاوي كل شيء في حين أنها هي بعض الشيء وعلى حد قول العلماء المعاصرين « ليس الأثير غير افتراض علمي لتفسير بعض مظاهر الكون العجيبة » وانه — اي الاثير — بعد تجربة ميكلصن — مورلي وأضرابهما من العلماء المعاصرين فقد سحره القديم ومكانته التي كان عليها . . . . . ولنا كلام طويل عن الاثير للحيز الكبير الذي شغله في حياة الزهاوي العلمية سنثبته في مكانه من الكتاب . ولنعود لنحدثك عن ذلك الروح الذي عناه في ذلك القصيد فما هو الا الاثير وما الاثير عنده غير ما اثبته

أحدى مقطوعات ملحمته الخالدة « ثورة في الجحيم » التي سيأتيك ذكرها في هذه الابيات الاربعة عندما سألهُ المتحدث عن الذات الالهية

ما لكل الاكوان الا إلـه واحد لا يزول وهو (الاثير)
منهُ هذا الوجود فاض عمياً واليه بعد البوار يصير
ليس بين « الاثير » و « الله » فرق في سوى التقطان هذا الشعور
وبحسبي أني صدعت بما اد ري على علمي انهُ سيضير

ومن تحقيقاتي العلمية مع المرحوم الزهاوي نجد انهُ في تعليلاته لظاهر الكون لا يخرج عن دائرة المذهب المادي الذي يؤمن به ويتعصب لهُ ولا ضير عليه في ذلك لولا انهُ تبعاً لذلك يثير في هذا الموضع وفي غيره قضية من اكبر القضايا الفلسفية « اصل الحياة » و « غاية الحياة » ويعزو الى المادة كل شيء في حين أن الماديين انفسهم بعد النشاط العجيب الذي ابدوه طوال قرون عديدة قد تقهقر دعاتهم في مستهل هذا القرن واعترفوا بعجزهم المطلق عن تفسير بعض عجائب الكون ومظاهره وفي هذا ما يخذلهُ — ان لم يدمغهُ — غير أنهم لم ينسحبوا من الميدان بعد ولم يكفوا ايديهم الا ان دعواهم أصابها الفتور والعياء الى حد كبير . .

وسنرد عليهم وبين هذا المذهب ومدى تأثيره عند الزهاوي فيما سأطالعك بهِ من فصول أثبتها في كتابي عنهُ ولا استطيع قولاً في هذا المجال اليوم، الا ان الفلاسفة والعلماء طوال هاته القرون من عهد الانسانية الى اليوم سعاة في اماطة اللثام عن هاته الحقيقة الكبرى ولم تسلن الفاصلة بعد

كنا نريد ان نمر كراماً على هذه القصيدة وما يشابهها فان للرجل تفكيره وسطه الخاص وقد أودع خلاصة آرائه في رسائله العلمية وناقشناه فيها وفي معتقداته وانتهينا من ذلك كله الا ان للحقيقة حرمة وللتاريخ حكماً ، ورى ان تلك الآراء رغم طابعها العلمي لم تحقق علمياً ولذا تناقشها في مكانها ونرد عليها رداً هادئاً يدحضها — في رأينا — من أساسها

ويجب أن لا يختلط عليك الأمر يا صاحبي فتعتقد أننا نرفض الشعر الفلسفي او الشعر العلمي كلا بل بالعكس نعتقد أننا في حاجة ماسة الى شعراء علماء فلاسفة ! ! علماء يسبحون في أجواء الكون ويقصون علينا رحلاتهم ويخلقون لنا جواً عطراً عبق الشذى فوّاح العبير لا يقصون مشاهد العلم فحسب ، بل يقصون مشاهد الطبيعة ومشاهد الجمال ومشاهد الحب بعاطفة من الشعر الجميل

ويغوصون الى الاعماق باحثين عن الدر والذهب غير متناسين جمال البحر وسحره الرائع العجيب ، ثم يعرجون الى معارج الأفلاك المتناثرة فيضعوا أصابعهم فوق الحقيقة المطلقة ويعلموا الناس معنى الحياة ومعنى الخلود . . . وعندي أن الشاعر الفحل هو الذي لا ينسى الحب والجمال والعاطفة في قصائده العلمية والفلسفية ، حتى اذا فقده العلم أو أغفلتهُ الفلسفة يوماً ما لا يضيع

هباءة ، وكذلك الشاعر انشاشد الحب والخير والجمال يعوزه العلم الغزير والمعرفة الشاملة والثقافة الدسمة حتى لا تنقد أفكاره وأخيلته بجانب أفكار السوقة وخيالاتهم

أما الشاعر الفرد فهو ذلك العالم الفيلسوف المتعمق واثقاً بأناشيد الحب وأهازيج الجمال

— ٥ —

ايمان الرجل بالمذهب المادي مما لا ريب فيه ، وهذا المذهب من اعرق المذاهب الفلسفية القديمة — وسنرد عليه في حينه كما اسلفنا — غير اننا لا نرى مندوحة عن مناقشة بعض قصائده التي أوردها ناحية من ايمانه ونكتفي بمناقشة القصائد وتحليلها تركيز نقد معظم التراكيب والالفاظ لفرصة اخرى . ففي قصيدته (الشاكية) التي مطلعها

بعد ان اردى فأهبط رمسي ... بسنا غدي ويومي وأمسي
جدث فيه كل دهري ليل ... ما رضواه فجره من بجس
ظلمة فوق ظلمة انا فيها ... ابداً مصبح كما انا ممسي

تشم رائحة ايمان الرجل وسخره بالمعتقدات الفاشية في منطق عجيب يتكرمها اجتمع عليه الناس ويهدم آمال العامة جملة — ولا غرو فهذا هو لباب المذهب المادي — داعياً في الوقت نفسه الى الاستمتاع باطايب الحياة ومباهجها قبل ان تأتي ساعة الرحيل الذي ليس له من بعده من نشور

انما الدنيا جنة لسعيد ... وجحيم لذي شقاء وبؤس
لك فيها الحياة ما طبت عيشاً ... كل شيء فلا تبعها ببخس

وكلها على هذا النسق الابيقوري وليس فيها من جديد غير قوله

ما نظمت القريض الا بإلهام ... جديد من السماء لنفسي
قيسوه من قول من سبقوهم ... ومن الشمس والكواكب قيسي

وقصيدته (لظرات وزفرات) التي مطلعها

نأى بي عن الاصحاب في سيره العمر ... ويرجع أحياناً اليهم بي الذكر

كشفيقتها — الشاكية — تبين ما استتر من عقيدة الرجل

ألا انما الارض التي نحن فوقها ... هي المهد للابناء ثم هي القبر
وان شئت فاعدها وان شئت فاسمها ... فليس بذي بال عقوقك والبر

الى ان يقول : يقولون في الايمان كل نجاتنا ... وما ربّ ايمان قوي هو الكفر
وينتظرون الفجر في ليل قبرهم ... ولكن ليال القبر ليس لها فجر

وثالثة الاثافي قصيدته (الموت) التي لولا الاستشهاد بها لما ذكرتها ذلك لانها فوق حلها الموت في طياتها مهلهة الاسلوب مفككة الاوصال سقيمة المعنى ومطلعها

زاغت زوال الحياة فانتهي الحركات
هوى الحياة ولكن ما للحياة ثبات

وانها حقاً زاغت منها الحياة فقضت نحبها من غير دمعة رثاء او كلمة عزاء، انظر اليها في الديوان تجده فيها قد وصف الموت والاموات وخاف الموت خوف الشاة الذئب وقطع انها بالموت تودع الآمال وتنتهي وينتهي معها كل شيء وفي القبور يتساوى الجميع لافرق بين احد وهذا كلام لا غبار عليه ... ولكن ... وما اقسى ولكن هذه... تلك الكلمة التي يرد بها الناقد الغربه الحق الى نصابه ... ان منهُ قول المعري « غير مجدٍ في ملتي واعتقادي »

فالمعري قد تصوَّف وتأمل وفكر .. ونظر الى الكون نظرة الفيلسوف الشاعر فأبدع في تصوير الحقائق الشعرية وفي تصوير الحقائق المادية وكانت قصيدته نحتاً جديداً في الشعر الفلسفي المعزوج بالعاطفة ذلك الذي تتوق اليه ونشده وكأننا ننشد الضناء واخويها

اما (الموت) عند الرجل فخالٍ من كل شيء خال من العاطفة التي حيكت حوله من ملايين السنين اي من عهد الانسانية الى اليوم ، خال من الروح التي ليس لنا ان نتخلى عنها قيد شعرة. مهما تخلت عنا ، خالٍ من الحلم الجميل الحلم الذي يحبب لنا الحياة

ولا عجب له غير تمجيد الحياة تمجيد عبادة في الوقت الذي ينكر فيه البقاء بعد الموت — الخلود — والبقاء بعد الموت حلم من احلام الانسانية العذاب، ونحن تشبثنا به لان الانسانية لو افتقدته لشتيت طويلاً واختل التوازن الاجتماعي وعمت الفوضى ارجاء الارض قاطبة وما اغنت القوانين الوضعية قتيلاً في كبح جماح الغرائز البشرية التي تتمرد — في جميع اطوارها — على العدم قبل البناء. وهذه في الواقع — انكار البقاء بعد الموت — اهم شعب المذهب المادي ، ولنا كلام طويل للرد عليها سنثبتهُ في حينه وليس لنا في هذا المقام من عزاء نتعزى به غير قول الشاعر « ما ضاق العيش لولا فسحة الامل »

— ٦ —

أهم ظاهرة في شعر الرجل وفلسفته — بل خير ظاهرة في فلسفته وشعره — التمرد والثورة، التمرد على الطغاة والظالمين والمنافقين والمتصنعين والجهلاء والمتكبرين ، الثورة على الجمود والجهل ، والضعف ضعف الشرق واستكانته لما تحيفهُ من ظلم وينزل به من بلاء ، الثورة التي تفشلنا من وهدتنا هذه الى الحق والحرية والنور . وخير شيء عند الرجل يمثل فلسفته ويطبعها بطابعها الخاص « القوة » التي لا تنبأ بالسدود ولا بالقوى مجتمعة ، القوة التي تريد التحرر والانطلاق الى رحاب الارض بما وسعت وآفاق السماء بما اتسعت، فبقدر بساطة أسلوبه ووداعته تجد قوته في معانيه هذه المعتدة بنفسها الشامخة بأنفها تروعك بكبريائها وتحملك على أجنحتها الى طريق المجد الذي عبَّدهُ لنا الاجداد

« البقية في مكتبة المقتطف »

أتدري ؟!

أتدري الطير حَيْرانا ؟ أتدري القلبَ ولهانا ؟
أتدري الغصن دَاعَبَهُ نسيمٌ عابثٌ آنا ؟
أتدري الورد محتالاً وبين الزهر نشوانا ؟
أتدري الحُسْن مؤتلقاً بثوب السِّحرُ مزدانا ؟
أتدري البدر غفلانا ؟ أتدري البدر يقظانا ؟
وعين النجم ساهرةً لتشكو منهُ هجرانا !
أتدري الكون في ليلٍ عليهِ الصَّمْتُ قد رانا ؟
وتهمس فيهِ ارواحٌ فما تَسْطيعُ تبيانا
أتدري الفجر اذ يسري بجَفن الروض وسنانا ؟
أتدري الفجر تَسْأما ؟ أتدري الفجر فتانا ؟
أتدري ؟ كيف لم تدر ؟ ! وصفتُ الآن... «فتّانا»...

القاهرة

محمد فهمي

أين تنشأ الحياة ؟

سر «الڤيروس»

وصلته بسر الحياة

تطلق كلمة «الڤيروس» Virus في اللغات الاعجمية على كلّ خلقٍ تسند اليه بعض الامراض ولكن لا يعرف لهُ قوام مبيَّن لانهُ من المواد الراشحة التي تجتاز أدق المرشحات سامّ ، وقد انقضت أربعون سنة منذ عرف ، فاتجه النظر اليه لأنهُ في رأي بعضهم من أبسط المواد الحية تركيباً

الدكتور وندل ستانلي ، كيماوي حيوي ، تخرّج من جامعة ايلينوي وندب من قبل مجلس البحث القومي لدراسة المركبات الجذامية في المانيا . ثم عاد الى معهد ركفلر سنة ١٩٣١ وفي السنة التي تليها أنشأ المعهد فرعاً في نيوجرسي فذهب اليه ستانلي وجُعل همّه متجهاً الى «الڤيروس»

وطبيعة الڤيروس من المشكلات الاساسية في علم الباتولوجية . فشلل الاطفال والانفلونزا وحمى البقان والسعار والحمى الصفراء وبعض انواعي الحمّيات تحدثها على ما يظهر مواد ليست بالجراثيم اي الميكروبات هي ما يطلق عليهِ اسم ڤيروس . فالبحث في طبيعة هذه المواد ، ناحية كبيرة الشأن من نواحي البحث الطبي . وقد عني الباتولوجيون واليولوجيون بدراسة الڤيروس من وجوهه الباتولوجية واليولوجية . ولكن عُهد الى ستانلي في دراسته من الناحية الكيمياوية ، اي عهد اليه في استطلاع طلع الڤيروس وما هو بالقياس الى الجزيئات العضوية ، وما هي هذه الجزيئات وما خواصها وما الذرات التي تألف منها

وقد اختار لبحثه اقدم المواد الڤيروسية المعروفة وهي ڤيروس آفة تصيب ورق التبغ وتعرف باسم «آفة الفسيفساء» . ان زرّاع التبغ يخشون هذه الآفة ، لانهُ اذا اصيبت نبتة واحدة بها ، امتدت العدوى على الغالب الى جميع النباتات في الارض المزروعة ، فتذويها وتضنها وتجعد اوراقها بعد ان تتقبع الاوراق تبقعاً يشبه الفسيفساء ومن هنا اسم الآفة

لما وصفت هذه الآفة اولاً في سنة ١٨٥٧ خلط بينها وبين آفة اخرى تشبهها في بعض مظاهرها بعض الشبه ، ولم يفرق الباتيون بين الآفتين الا سنة ١٨٩٢ ، ويعزى هذا التفريق

الى باحث رومي يدعى ايڤانوفسكي ، ادهش بكتريولوجيي ذلك العهد بقوله ان العصارة المستخلصة من نبات التبغ المصاب بآفة الفسيفساء تبقى قادرة على احداث المرض حتى بعد ترشيحها بمرشح تشمبرلند ، وهو جهاز من خزف دقيق المسام جداً ، بحيث اذا وضعت فيه كوبتين من الماء المقطر ، يستغرق مرور هذا الماء من مسام المرشح اياماً . ولم يكن ثمة ميكروب واحد يمرون العلماء يستطيع ان يجتاز هذه المسام . ومع ذلك فالمادة الفعّالة التي تحدث «آفة الفسيفساء» تجتازها . فوالى العلماء التجارب فأسفرت عن تأييد النتائج التي خلص اليها ايڤانوفسكي . وفي سنة ١٨٩٩ اكتشفت اولى المواد الفعّالة الراشحة التي تحدث مرضاً في الحيوان ، وكان ذلك المرض الحمى القلاعية وقد تبين حتى الآن ان عشرات من الامراض التي تصيب الحيوان والنبات ترتد في نشأتها وسببها الى مواد (فيروسية) راشحة وفيروس آفة الفسيفساء التي تصيب التبغ هو من خيرها للبحث علاوة على انهُ يمثل هذه الطائفة من المواد خير تمثيل

فزرع الدكتور وندل ستانلي ، التبغ في ساحات واسعة قرب برنستن ، ونفث فيها المرض ثم جمع النبات المصاب ومرثهُ حتى صار بمثابة الرُبّ ، ثم استخلص منهُ عصارته . ان الفيروس في هذه العصارة ، ليس في وسعك ان تراهُ ، ولا ان تفصلهُ عن سائر العصارة بمرشح ، لانهُ يخترق مسام المرشح ، ولا ان تستنبتهُ في المستنبتات المألوفة التي تستنبت فيها الميكروبات ، ولا سبيل الى معرفة وجوده هناك الاّ باثره في احداث آفة الفسيفساء في تبغ سليم منها . خذ قطرة واحدة من هذه العصارة ومُسّ بها ورقة نبتة من نبات التبغ ، تبدُ خلال بضعة ايام اعراض الآفة عليها لا غشّ فيها ولا ريب . ان الفيروس هنا فما السبيل الى دراسته من الناحية الكيماوية

تقسم المواد التي تدخل في تركيب الخلية الحية (البروتوبلاسمة) الى خمسة أقسام هي الاملاح المعدنية ، والكربوهيدرات ، والهيدروكربونات ، والادهان ، والبروتينات . والبروتينات هي أعقد هذه المواد تركيباً . وثمة مواد يطلق عليها اسم انزيمات وهي نوع من خمائر تحل المواد البروتينية ، فتوصف بانها هاضمة البروتينات . والبيبسين يفعل ذلك في المعدة في اثناء عملية الهضم . فاذا وضع البيبسين في انبوب من انابيب التجارب ، ومعهُ مادة بروتينية ، حللها او هضمها

فسأل ستانلي نفسهُ : وما يفعل البيبسين بمادة الفيروس من هذه ؟ اخذ قليلاً من العصير المستخرج من نبات التبغ المصاب بالآفة المذكورة ، ووضعهُ في أنبوب التجارب وصب عليه البيبسين ، وحفظ الخليط على درجة من الحرارة توافي عمل البيبسين الهاضم . ثم بعد مدة معينة امتحن العصارة ، فلم يجد فيها اثراً للمادة المرضية . فمسح بقطرات منها اوراق التبغ السليم فلم تصب بالآفة . اذن يمكن القول ان البيبسين قد اتى على فيروس الفسيفساء . ولكن البيبسين لا يهضم الاّ المواد البروتينية ، وليس يؤثر تأثيراً ما في الادهان او النشويات او الاملاح فيصح القول بان الفيروس مادة بروتينية

في الكيمياء الحيوية تعرف مواد معينة ، ترسّب البروتينات . فلتجرب على عصارة نبات التبغ المصاب بآفة الفسيفساء . فما كادت تضاف هذه المواد المرسّبة الى العصارة حتى بدأت كتل صغيرة في الراسوب في قعر الاناء . فأخرجت منهُ واسحق الباقي من العصارة فظهر انهُ لا يحوي المادة التي تحدث المرض . فلما اضيف قليل من الكتل الراسبة الى العصارة السليمة ، عادت اليها قدرتها على احداث العدوى . واذن يمكن القول ان عامل الآفة مستقرّ في هذا الراسب البروتيني

* * *

هنا توقف ستانلي قليلاً ، واعدّ عدّتهُ لتعقب عامل الداء الى عقر داره

حلّ الراسب البروتيني في سائل متعادل واضاف احد مركبات النشادر — ومن خواصّهِ ترسيب مادة بروتينية من دون تغيير تركيبها — فتكوّنت بلورات دقيقة في قعر الانبوب. الاّ ان ستانلي خشي ان لا تكون هذه البلورات تلك المادة البروتينية نقية من الشوائب ، فاخذ يكررها ، باذابتها ثانية وثالثة الى العاشرة في مقدار كبير جدًّا من المحلول المتعادل وكان في كل مرة يبورها باضافة مركب الامونيا الى المحلول ففاز في آخرها ببلورات يمكن ان يقال فيها انها خالية من اي الشوائب النباتية او الحيوانية. بعد ذلك أخذ ستانلي حفنة صغيرة من هذه البلورات بعد تنقيتها وحلّها في مقدار كبير جدًّا من سائل متعادل يبلغ مائة مليون مرة حجم البلورة نفسها ، ثم اخذ قطرات منهُ ومسح بها ورق تبغ سليم ، وبات ينتظر النتيجة ، وفي الميعاد المتوقع ظهرت على النبات اعراض اصابة حادة بآفة الفسيفساء. اذن يمكن القول بأن هذه البلورات تحتوي على الفيروس . ولما كانت البلورات قد نقيت من كل شائبة على قدر ما يستطيع علم الكيمياء ان ينقيها ، فمن المعقول ان يقال ان هذه البلورات هي الفيروس نفسهُ

ان بلورة السكر مؤلفة من عدّة جزيئات من السكر . وكذلك يظن ان هذه البلورات الدقيقة كالابر مؤلفة من عدة جزيئات من البروتين وان كل جزيء « فيروس » واحد

ويؤخذ من تحليل ستانلي الكيمياوي ان جزيء هذا الفيروس مؤلف من كربون وايدروجين ونتروجين وكلور . وهو يختلف عن البروتينات الفعالة من الناحية الفسيولوجية في انهُ لا يحتوي على الكبريت ولا الفصفور . أما عدد الذرّات في الجزيء ، وطريقة ترتيبها فيه ، فلا يزالان من الأغراض التي يتجه اليها البحث . وانما هناك ما يدلّ على ان الجزيئات ضخمة جدًّا

فقد عني حديثاً العلامة سڤدبرج بجامعة أپسالا السويدية والدكتور ويكوف أحد علماء معهد ركفلر الطبي ، باستعمال طراز جديد من الآلات الطاردة عن المركز . وقد بلغ من قوة هذه الآلات وسرعتها ، انهُ اذا وضع داخلها قطعة نقد من ذوات القرشين ودارت الآلة بسرعة عظيمة ليست بأقصى سرعتها ، بلغ ضغط قطعة النقد على جدار الآلة الداخلي نصف طن .

ولكن الغرض من هذه الآلة ليس تجربة التجارب المستوفقة للأنظار وانما فصل الدقائق الجامدة التي تكون في المحلولات الغروية (Colloidal) . وقد بلغ من دقة سڤدبرج وسيطرته على جهازه انهُ يستطيع ان يضع فيهِ محلولاً غرويًّا فينفصل منهُ الدقائق المختلفة المعلقة فيهِ عند حدود معيّنة من سرعة دوران الآلة ، وبحسبان السرعة والوقت الذي ينقضي قبل انفصال الدقائق يتمكن من تعيين اوزانها الجزيئية

وقد بعث الدكتور ستانلي الى سڤدبرج وويكوف بنماذج من بلوراته ليمتحنها بآلتهما هذه لم تنشر تفصيلات التجارب التي قام بها سڤدبرج وويكوف ، ولكن يمكن ان يقال ان اكبر الجزيئات البروتينية المعروفة هو جزيء « هيموسيانين » (المادة الملونة في دم الخراطين اي دود الارض) ووزنهُ الجزيئي خمسة ملايين . ولكن ظهر ان جزيء البروتين الذي يحسبهُ ستانلي فيروس الفسيفساء اكبر من ذلك

هل هذا الجزيء حيٌّ ؟ يقول ستانلي انهُ يمكن بلورتهُ . وهذه صفة كيميائية بحتة . ثم انهُ زرع في مستنبت بكتيريولوجي كما تُزرع البكتيريا فلم ينمُ ولم يتكاثر . ولكن العجيب ما يقع لهُ عندما يتصل بنبات التبغ . فانهُ لا يكاد يتصل به حتى يبدأ جزيئهُ يتكاثر . ان كمية صغيرة جدًّا تكاد لا تُرى لصغرها من بلورات هذه المادة كافية لبث العدوى في حقل خلال أيام معدودة ، اي انها تتصف في هذه الاحوال بقدرة عجيبة على التكاثر والانتشار . أوليست هذه الصفة من اخصّ صفات الاجسام الحيّة ؟ او لعلّ الفيروس ، كبعض الناس ، مزدوج الشخصية ، حيٌّ احياناً وغير حيّ احياناً اخرى فهو حيٌّ في نوعٍ معيّن من الوسط ، وغير حيّ في سائر الاوساط

بين جزيء بروتين الفسيفساء وجرثومة [1] (gene) الخلية وجوه شبه كثيرة . فانهما يكادان يكونان من رتبة واحدة في الحجم . وكلاهما يتوقف مدداً متفاوتة عن التكاثر من دون ان يخسر القدرة عليهِ . فالجرثومات تكمن في البويضات غير الملقحة او في البزور المخزونة ، وفيروس الفسيفساء يكمن كذلك في انبوب الباحث ، ثم يفيق كلاهما عندما تؤاتيهما الاحوال فيأخذان في التكاثر . ثم هناك وجه شبه آخر بينهما وهو انهما كلاهما غير مستقر التركيب . وقد اثبتنا ذلك فيما يخص الجرثومة ، في مقتطف ابريل الماضي وبينا ان التغير في تركيب الجرثومة ، يحدث التحوُّلات الفجائية mutations . وقد لاحظ ستانلي ان فيروس الفسيفساء يصيبهُ التغير كذلك فيحدث ضروباً من آفة الفسيفساء تختلف في بعض مظاهرها وخواصها عن الآفة الاصلية

ويذهب الدكتور اوسكار رندولفس قسم الوراثة في معهد كارنيجي بواشنطن ان الجرثومة اعلى مرتبة في عالم التنظيم العضوي من فيروس الفسيفساء . ويلحظ بين الاهتمام ان الجرثومة

(١) راجع مقال « اين تبدأ الحياة » في مقتطف ابريل الماضي (١٩٣٧)

يجب ان تكون مقترنة بجريثيات أخرى لتقوم بعملها ويرتاب اشد الريب في قدرة الجريثيمة ان تقوم بعملها وهي وحدها . بل يشك في امكان اطلاق صفة « الحي » على الجريثيمة الفردة وهو ما يقوله سنانلي في صدد جزيء الفيروس الذي يسبب آفة الفسيفساء

من البكتيريا ما يعرف باسم « ازوتو باكتر » azotobacter وهو كائن في حجم خلية الخميرة تقريباً . يعيش في التربة ويتنفس ويتناول الطعام من وسطه وينمو وينكاثر — اي ان هذا الكائن حيّ في نظر جميع الثقات . بل انهُ يتصف بصفة يندر ما يتصف بها من الاحياء وهي صفة تثبيت النتروجين . فهو يتناول النتروجين الصرف من الهواء ويركّب منهُ ومن بعض المواد التي يأخذها من الارض الامونيا ومن الامونيا يصنع الاحماض الامينية ، ومن الاحماض يصنع بروتينات . وهذه القدرة لا ندحة عنها للحياة كما نعرفها لان الخلية (البروتوبلاسمة) مستحيلة من دون بروتين . حتى لنكاد نقرن بالقول بأن القدرة على صنع البروتين مقياس من اهم مقاييس الحياة . ومن عهد قريب جرّبت طائفة من علماء الروس تجارب طريفة « بالازوتوباكتر » فانهم زرعوا طائفة نقية منهُ في وعاء زجاجي ، وغذوها بالسكر فتولد قليلٌ من الامونيا . ثم اخذوا البكتيريا ومرّنوها مرناً واستخلصوا عصارتها منها . ثم رشحوا هذه العصارة حتى لا يبقى فيها بقية من مادة الخلايا وامرّوا في هذه العصارة المرشحة فقاعات من غاز الاكسجين وغاز النتروجين فتولد غاز الامونيا . اي انهم وجدوا في هذه العصارة ما يصنع الامونيا كما كانت تصنعهُ البكتيريا الحية

ويفسّر هؤلاء العلماء ماشاهدوه بان تثبيت النتروجين في هذه البكتيريا يتمّ بواسطة «انزيم» (نوع من الخمائر) وان مرث خلايا البكتيريا يطلق هذا الانزيم او يحرّره ، فيبقى في العصارة يقوم بعمله ، بل هو في رأيهم يقوم بعمله في انبوب التجارب على وجه اتمّ من قيامه به في جسم البكتيريا ، ولهم في ذلك جداول واحصاءات . ويعللون هذا الفرق بأن الاجسام الحية تستهلك جانباً كبيراً من السكر الذي تتناولهُ في أفعالها لا في توليد الامونيا فقط

وقد زار دين برك احد علماء وزارة الزراعة الاميركية روسيا في الشتاء الماضي وقضى ثلاثة اسابيع يحادث هؤلاء العلماء وهو الآن يعيد تجاربهم ليرى هل تسفر عن النتيجة نفسها

***

ولعل النتيجة التي يخرج بها الباحث من هذه التجارب هي ان الحياة مرتبةٌ من مراتب تنسيق المادة ، فالكهارب والبروتونات تنتظم ذرات والذرات تنتظم جزيئات ومن الجزيئات ما هو كبيرٌ معقد التركيب ، وفي كل مرتبة من مراتب الانتظام والتنسيق تبزغ صفة جديدة ، فالكهارب والبروتونات اذا انتظمت على نحو معين كانت حديداً وعلى نحو آخر كانت ذهباً والذرات تنتظم فتكون ماء او ملحاً او بروتيناً من نوع معين يدبّ فيه دبيب الحياة

تبادل الاحساس

Reciprocal Feeling

للدكتور نقولا حداد

ورث الانسان المتمدن عن الجماعة الانسانية الاولى احساساً نبيلاً وشعوراً سامياً حملهُ قديماً على مشاطرة الانسان في شتى مناحي الحياة نشعر بشعور غيره واشترك معهُ في احساسه سواء في الالم والفرح في الشدة والرخاء ، فساهمهُ اتعابه ومصاعبه وافراحه ومسراته . وقد نما هذا الاحساس في الاسرة الانسانية نماء يمشي مع سنن التطور والارتقاء حتى تشبَّعت به النفس البشرية فأهابت بصاحبها لزيادة افراح الحياة وجلب الهناء للبائس ، وتخفيف آلام المنكوب

وتكاد تنحصر هذه الحالة في الانسان فهي تقوى فيه على مقياس رقي دماغه وانتظامه وهي من اسمى خصائص الدماغ واشرفها تزيد في صاحبها روح الشفقة والرحمة وتملأه بعناصر العدل والتعاون

وقد نشأ هذا الاحساس في احضان المجتمع ودرج في مهاد الحياة الاليفة الوادعة في حين انهُ تلاشى وانعدم عند الانسان المتوحش الذي آثر العزلة ولازم الانفراد واستسلم لغرائزه الحيوانية الاصلية . وظلَّ هذا الاحساس في قرارة المجتمع البشري طيلة الاجيال الغابرة يسل عمله الصامت المستتر في صقل شخصيات جبارة هدفها الاعلى توثيق عرى المحبة وتوطيد اركان السلام وتمهيد سبل الخير والسعادة لابناء هذا العالم

والثابت ان هذا الاحساس مغروس في النفوس ، وهو من اقوى ما فطر عليهِ الانسان الاجتماعي ، واكثره تلوناً لسلوك الافراد والجماعات لانهُ يولد فينا انحيازاً في الشعور ورغبة في ادغام ذواتنا في الاشياء والاشخاص ، غير شاعرين بهذا الاشتراك حتى يفيق شعورنا من غفوته وخيالنا من سباته ، فندرك معنى ذلك الاندفاع الشديد وتركز ذواتنا بعد ذلك الانحياز الجلي . ومصداق قولي ارتياحنا الى الخطيب الذي يندفع في كلامه ، واندماج نفوسنا في سحر بيانه وعذوبة الفاظه . ولن نصحو من سحرنا واندفاعنا الاَّ عندما تفتر الخطيب عقبة

لفظية او معنوية تقف سيل اندفاعه الخطابي عندئذ تشعر بالاخفاق وتمض العين حياء وخجلاً وتخفض الرأس حزناً وغماً مشاطرينهُ حيرتهُ وارتباكه ، ومبادلينه عوامل الحيسة . وكذلك تظل نفوسنا تلوّن شعورها بحسب اندفاعه متشبعة بحالاته النفسانية فتسومهُ ساعات توهيج بحالات من التجلي والوحي ، وتنخفض عند ما توقفهُ عقبات الحصر والارتباك

والظاهر ان هذا الاساس توهان واقعي وتصوري وينشأ النوع الاول عن مشاهدة الحوادث والاحساس بالوقائع وهو اكثر شيوعاً بين طبقات البشر المؤتلفة في حين ان النوع الثاني ينشأ عن تصور الحالات التي لا تقع تحت الاحساس المباشر بل تقتصر على قوة التبصر وامتداد المخيلة الى الامور غير المنظورة ، كأن تهب الجماعات الى جمع الاعانات لقوم اصيبوا بقحط او مدينة دمرت بزلزال او مؤسسة التهمتها النيران . وقد تجلت نتائج هذا الاحساس المتبادل في أعمال الرسل الكرام والانبياء العظام الذين أماروا سبيل البشرية بنورهم الساطع وأنوالهم الصائبة وأقالوها من كبوتها بتعاليمهم وبذلهم وشرائعهم المقدسة

نقف في حلبة السباق أو أمام فرقتين متباريتين فينحاز شعورنا تجاه فريق دون الآخر ونمضي في مشاطرة ذلك الفريق الاحساس عن طريق التشجيع والهتاف والاستفزاز كأننا مأجورون لذلك وتشعر عند انتصاره بالغبطة والارتياح ، وتتكش عند الانكسار وتبقى نفوسنا تلوّن تبعاً لدرجات الانتصار والانكسار حتى ينتهي اللعب ، فنشعر ان لا علاقة لنا بالنتصر سوى هذا الاحساس المتبادل الذي أشرك نفوسنا فهراً وقسراً في اللعب

واذا أنحنا بنظرنا الى العلاء وشاهدنا الطيور تسبح في الفضاء بعضها ينشد والآخر يشقشق، وفريق يطارد فرائسه وآخر يعتني بصغاره نشعر في جميع هذه الحالات مع سابحات الجو ، فنفرح لدى سماعنا الأغاريد الجميلة ، ويتحرك فينا العطف وتمثل أمامنا غرائز الأمومة لدى رؤيتنا الطير يعتني بصغاره ، وتنفر من ذلك الجارح الذي يطارد العصفور الصغير ، ونشعر مع ذلك المخلوق الذي يطلب النجاة وينشدها بكل ما أوتي من قوة اشتقها من حبه للبقاء والحياة. لمست أشك يا صاح انك تحمل الى الفضاء وتشاطر العصفور الشفقة والرحمة وتتمنى لو أوتيت أجنحة توصلك اليه لتخلصهُ من مخالب عقاب الجو الفتاك . ولم يحرك مجال العطف في عروقك سوى هذا الاحساس المتبادل الذي استفزك لحماية صغير الطير وحقير الحيوان

وتندلع نيران في بلدتك تحرق الاخضر واليابس وتروع الكهل واليافع فتندفع من تلقاء نفسك الى تبادل الاحساس والتضحية السامية في تخفيف نتائج تلك الكوارث والمصائب والمآسي ويصيب فيضان احدى القرى المجاورة لمدينتك فتهرع بدافع الانسانية النبيل لتبادل الاحساس قوماً اكتسح السيل مأواهم وهدم مساكنهم وجرف ماشيتهم . وفي الاعياد العامة والمهرجانات

الشعبية تأخذك نشوة الفرح فتشاطر ابناء قومك مسرات العيد وافراح الوطن . ولا تعرف لهذا تعليلاً سوى هذا الاحساس المشترك للجماعة البشرية تمكنه في شتى ضروب الحياة

وقد يتعدى هذا الاحساس عالم الحياة الى الشعور مع الجماد ومرعان ما فطن لتلك رواد الفن وكبار الادباء فأودعوه قطعهم الخالدة اذ اشركوا الطبيعة حوادث قصصهم وتآليفهم فرسموها مشرقة زاهية عندما يجلي البطل ظافراً منصوراً وقرنوها بالاضطراب والظلمة ساعات الشدة والضعف . فالقمر يتلألأ بأشعته الفضية ساعة يناجي الحبيب معبودته ، والرعد يقصف والعاصفة تهب ساعة يتوقع البطل المغوار فاجعة أليمة او مأساة مفزعة

وقابلية تبادل الاحساس والامتزاج بالشعور لا تقف عند حد العلائق الانسانية بل تتعداها الى الجماد ، وها نفوسنا تتكمش لدى مشاهدة صخرة شاهقة تتحدر على حصاة صغيرة او لدى رؤية عمود صغير يحمل عمارة كبيرة وقد نعجب بالبحر الواسع الذي يوحي الينا الاتساع والجبل العالي الذي يلهمنا العظمة والنهر الجاري الذي يدعونا الى الحركة فنحن في كل هذه الحالات نبادل الجماد الاحساس فنرثي للحصاة المتقتة ونشفق على العمود الرازح تحت ثقل البناية وندهش لسعة البحر ونعجب بعظمة الجبل ونطفر مع حركة النهر وانسيابه البديع وتكون الطبيعة قد ألفتنا ذواتنا فتقربنا من مظاهرها وارتبطنا بأوصافها ودغدغنا نفوسنا تيها

ويختلف هذا الاحساس في الناس قوة وضعفاً فهو أظهر في الانبياء والمشترعين منهُ في السوقة والعامة وهو عامل اساسي في بناء الشخصية وعنصر فعال في تمامها . فهذه شخصية عاجزة لا تتقن احساسها وتلك اخرى تشع نبلاً وتشيع عاطفة بدفعها الى المثال الاعلى والكمال المنشود

اما الاحساس التصوري فقد شاع في نفوس هداة البشرية ومصلحيها فاستقرؤا آلامها في الماضي السحيق وتصوروا مصائبها في المستقبل الغامض البعيد فعملوا على اصلاح اوضاعها وأسكان اوجاعها وتجديد نظمها ومرعان ما سنوا الشرائع الحكيمة ليحولوا دون عسف الجماعات القوية وثراء اقليات معدودة . ومن ثمار هذا الاحساس مارأه بين الآونة والاخرى من تحفز الجماعات النائية لطلب المساعدة وجمع التبرعات لقوم نكبوا في زلزال مدمر او فيض عميم او حريق شامل . وقد تبين ان لا رابطة تربطهم باولئك الاقوام غير البحار الشاسعة والصحاري الواسعة سوى رباط الاحساس المشترك والشعور المتبادل الذي وقع على اوتار قلوبهم نغمات العطف والحنان وهزَّ اغشية نفوسهم بقدس المحبة والاخاء . وانا على مثل اليقين ان البشرية تصل مصاف الانبياء الاطهار وان ارضنا تصبح فردوس النعيم وجنة عدن ، حالما تنظم البشرية علاقاتها وتسوّي مشكلاتها على ضوء هذا الاحساس المتبادل السامي وذاك الشعور المشترك الرفيع فتشعر اذا بصل كافراد وجماعات لخير بلادنا واقوامنا ولاعادة امجاد اسلافنا ومرسلينا

جزء من طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني عليه زخرفة من نباتات وأوراق شجر ورسم انسان وفي الجزء الأيمن كلمة قد تكون (جعفر) ومما يستوقف النظر ان غطاء الرأس يشبه ما كان معروفاً عن بعض الفرسان الأوربيين في القرون الوسطى

جزء من طبق من الخزف الفاطمي ذي البريق المعدني عليه زخرفة من رسم فارس يقصد الصيد كما يظن من صورة البازي الجاثم على يده اليسرى وعلى الفارس رداء من نسيج مزين بدوائر فيها صور طيور . ومما تجدر ملاحظتهُ شكل العمامة التي يلبسها والذؤابتان المتدليتان على خديه

الخزف الفاطمي

للدكتور كارل جوهان لام
استاذ الفنون الاسلامية بمعهد الآثار

ترجمة وتعليق عبد الرحمن زكي

وجدت نماذج مختلفة من الخزف الفاطمي في الفسطاط معظمها قطع مكسورة . والظاهر أنه ليس في الاستطاعة ان نصل الى معلومات أثرية تاريخية تعين على دراستها وتحديد تاريخها . أما الخزف الذي وجد في حفريات قلعة بني حماد فيمكن ان ينسب الى القرن الحادي عشر . ولم يعرف غير القليل عن الخزف السوري لذلك العصر وسنقصر دراستنا هنا على أهم أنواع الخزف المصري

١ — الفخار غير المطلي (Unglazed Pottery)

تتألف أهم مجموعات الفخار غير اللامع من شبابيك القلل المصنوعة من الصلصال (الطين) ذي المسام . وأقدمها على ما يظهر من صناعة العصر الطولوني . وأما القطع المصنوعة منها في العصر الفاطمي فكثير عددها . وأهم النماذج الخزفية تلك القطعة المحفوظة بدار الآثار العربية والمغطى سطحها الخارجي بطبقة مزخرفة ذات بريق معدني على أرض بيضاء من طراز القرن الحادي عشر . أما شباك القطعة فغير لامع

٢ — الفخار المطلي (Glazed Pottery)

ا — القسم الاول من هذا النوع عبارة عن فخار لامع عليه خطوط ظاهرة مفصولة بعضها عن بعض بمسافات من الطين المحروق

الطريقة الفنية لهذا الفخار على مثال الصناعة المراكشية المتأخرة Cuerda seca وفكرة الألوان التي تتألف من الابيض والاخضر والبنفسجي ذات شبه قريب بصناعة بعض القطع الخزفية الملونة البيزنطية التي عثر عليها في استانبول وباتليا في بلغاريا . ويمكن مقابلتها بآنية من

صناعة القرن الثامن او التاسع وجدت في سوس (١) . وبالخزف الذي يطلق عليه اسم (خزف جاري) (٢) . وبعض الخزف المصنوع في الغرب الاسلامي . وعلى الرغم من ان هذا الفخار المطلي لا نعرفه الا بواسطة قطع وجدت في مصر فليس من المؤكد انه صنع على ضفات النيل . ويمكن ان ينسب هذا الفخار المطلي الى القرن العاشر الذي يشمل العصر الاخشيدي . وفي دار الآثار العربية نموذج رائع يتكون موضوعه الزخرفي من طيور على جانبي شجرة الحياة (٣)

ب — القسم الثاني : فخار مطلي في بعض أجزائه

أكثر هذا النوع من الفخار مستمد من الصناعة العراقية التي سارت على منوال النماذج الصينية وقد وجدت نماذج منه في سامرا (٤) . ومن هذا الفخار المصري لم نكن نعرف حتى الايام الاخيرة سوى أمثلة غير متقنة الصنع ولا عناية كبيرة بألوانها ثم اكتشفت حديثاً نماذج أدق صنعاً معظمها الآن معروض في دار الآثار العربية وفي متحف بنا كي باكستا . وأغلب النماذج المذكورة من صناعة القرن الحادي عشر والنصف الثاني من القرن العاشر وفي هذه المجموعة نجد من الصعب التمييز بين قطع العصرين الفاطمي والسابق له

ج — القسم الثالث : فخار ذو زخارف محزوزة او محفورة (Champlivé) تحت طلاء ذي لون واحد

هذا النوع من الفخار المطلي مع النوع الآخر من الفخار ذي البريق المعدني يؤلفان أهم أمثلة صناعة الخزف الفاطمي . ومعظم تلك المجموعة ان لم يكن كلها من عمل فخاري الفسطاط . وقد عثر في سوريا على بعض نماذج من هذا الفخار قد تكون من أصل مصري

---

(١) مدينة قديمة في اقليم خوزستان بايران تبعد عن بغداد نحو ٢٥٠ ميلا الى الجنوب الشرقي . وقد ظلت زمناً طويلا مقر ملوك الفرس او دولة عيلام . وكان اول خراب اصاب المدينة عند ما تغلبي آشور بانيبال بين عامي ٦٤٢ و ٦٣٩ ق . م على دولة العيلاميين (تراث الاسلام — الجزء الثاني من الترجمة العربية للدكتور زكي محمد حسن . ص ٣٨)

(٢) خزف جاري هو نوع خزفي يظن انه من صنع عبدة الشمس الذين عثروا في بعض جهات فارس وفي بعض جهات ايران متمسكين تمسكاً شديداً بديانتهم القديمة حتى بعد الفتح العربي بمدة طويلة . وقد وجدت أمثلة من هذا الخزف عليها حروف كوفية من طراز القرنين الحادي عشر والثاني عشر (تراث الاسلام — الجزء الثاني ص ٤٢ و ٤٣)

(٣) شجرة الحياة (Hom) — هذا الموضوع الزخرفي الذي نشاهده كثيراً في آثار الفنين الاشوري والفارسي عبارة عن حيوانين متقابلين او مولي أحدهما ظهره للآخر وقد تطرق من المنسوجات الشرقية الى فن النحت الروماني

(٤) أسست سامرا (سر من رأى) على يد المعتصم أحد أولاد الاتراك بأمر الخليفة المعتصم سنة ٨٣٦ م . وتقع على الضفة اليمنى لنهر دجلة على بعد مائة كيلو متر شمالي بغداد وترجع شهرتها في تاريخ الفنون الاسلامية الى القصور التي شيدها المعتصم وخلفاؤه قبل ان يهجرها المعتمد ويرجع مقر الحكومة الى بغداد سنة ٨٨٣ م

ثم عثر حديثاً في حفريات انطاكية (٥) على نوع من الفخار المحفور من صناعة ذلك العصر ولكن طرازه يختلف جداً عن ذلك . وهناك نماذج بطلاء ذي لون او لونين او ثلاثة من الخزف السوري المنقوش عليه بالحفر بالطريقة المعروفة باسم (graffiato) (٦) . وهذه النماذج تنسب في الغالب الى العصرين الأيوبي والمملوكي المتقدم . وتتصل تلك الصناعة بطبقات مختلفة من الفخار البزنطي والقبرصي وبنوع من الفخار المملوكي . وكل هذه المجموعات التي ذكرناها أخيراً لها طلاء أصفر مخفف فاتح (buff) أو أخضر وبنفسجي

ونلاحظ في الصناعة الفاطمية وفي الاساليب المتأخرة في العصر الايوبي تنوعاً كبيراً في التلوين فان بعض انواع الطلاء ذات ألوان غاية في النقاوة . ونذكر من الالوان التي شاع استعمالها اللون الأخضر البحري (celadon) (٧) ذا الدرجات اللونية المختلفة على منوال الخزف والحجر الصيني . والالوان الخضراء والزرقاء والصفراء والبنفسجية والسفراء القاتمة والبيضاء (وكان اللون الأبيض مظلماً غير شفاف بينما كانت أكثرية الالوان الاخرى المستعملة شفافة الى حد ما) . ونحن نعرف نموذجاً واحداً منها او نموذجين عليها توقيع . كما ان الكتابات المنقوشة التي تقابلها عليها اما ذات صبغة زخرفية خالصة وإما تشتمل على بعض التمنيات الطيبة

ولكي نصطلح على وضع تاريخ نسبي لهذه الصناعة الخزفية والتي يتعذر ان نجد منها قطعاً كاملة يجب ان نقابل موضوعاتها الزخرفية بقطع من الفخار ذي البريق المعدني . فنجد على قليل من القطع التي تهمنا جداً في هذه المقابلة ان الزخارف المحفورة مختلطة ببريق معدني ذهبي منقوش على الطلاء

ويمكننا القول بطريقة عامة ان الامثلة ذات الزخارف المحفورة أقدم عهداً من تلك الامثلة ذات الموضوعات الزخرفية المكونة من خطوط محفورة حفراً بسيطاً . ونحن نلاحظ ان الاجزاء المحفورة أقتم لوناً من السطوح التي تجاورها ويرجع ذلك الى تجمع الطلاء فيها

وتظهر رسوم آدمية محلاة بموضوعات زخرفية نباتية جميلة على قطع كثيرة من الفخار يمكن ان تنسب الى أوائل العصر الفاطمي . ويشاهد على نوع من هذا الخزف اوراق نباتية

---

(٥) انطاكية احدى مدن سوريا وتقع على الضفة اليسرى من نهر العاصي وعلى بعد ستين ميلا غربي حلب . وقد أسسها سيليوس نيقاتور في عام (٣٠٠ ق . م) احد ملوك سوريا المذكرى أبيه أنطيوخوس وقد ناقست انطاكية بمدينة روما في عظمتها ووصل عدد سكانها في عهد ما الى نصف مليون

(٦) Graffito كلة ايطالية تشتمل غالباً في صيغة الجمع Graffite والمقصود بها رسوم ترسم باليد على الحجر او الجص ثم تحفر بالمحك او المكشط . وكانت هذه الطريقة شائعة في الصين وليس من المستغرب ان تكون قد نشأت هناك اذ أنها وجدت في مصر قبل الفتح الاسلامي ثم نجح صناع الخزف الايطاليون ايما نجاح في استخدام هذه الطريقة (تراث الاسلام — ج ٢ ص ٤٣ و ٤٤)

(٧) أطلق هذا الاصطلاح celadon في بادىء الامر على اللون الاخضر البحري الذي امتاز به الخزف الشرقي وصارت القطع الملونة بهذا اللون نادرة جداً وذات قيمة أثرية عظيمة ومن الخير استعمال الاصطلاح

تختلط بخطوط مضرسة وعلى فرع آخر زرى أزهاراً صغيرة مخروطية ذات رؤوس مستديرة متجهة في استدارتها الى فوق

وكثيراً ما نرى على بعض نماذج الفخار من صناعة القرن الحادي عشر رسوم الحيوانات والطيور المنقوشة عليها قريبة الشبه جداً ببعض الرسوم التي تصادفنا على الخزف ذي البريق من صناعة الصانع الماهر « سعد » . وفي هذا النوع نشاهد ان الزخارف تكون داخل رسوم هندسية على شكل نجوم تتألف من عصابة مفردة او مزدوجة اما مستقيمة وإما منحنية ويمكن تمييز النماذج المتأخرة من هذا النوع بما نلاحظه في صناعتها من الاهمال أو بمشابهتها القريبة للخزف الصيني الذي كانت له منزلة سامية في الاسلام

د — الخزف ذا البريق المعدني Lustered Pottery (٨)

نرى ان البريق المعدني اختراع صناع الزجاج المصريين . ففي العراق كان هذا البريق المعدني اللامع يوضع على فخار مغطى بطبقة كثيفة من الطلاء الابيض غير الشفاف المحتوي على القصدير وكانت ترد الى مصر اثناء العصر الطولوني نماذج كثيرة من هذا الخزف ذي بريق متعدد الالوان . وأقدم الامثلة التي لا شك انها صنعت في مصر انما ترجع الى القرن العاشر وبعضها ينسب الى العصر الاخشيدي (٩)

وفي مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم بالقاهرة جام عليه رسم نيل وكتابة منقوشة يستدل منها انه من صناعة ابراهيم المصري . ومن المؤكد ان تكون هذه القطعة من صناعة القرن العاشر مع ان هناك صانع آخر يعرف بهذا الاسم ايضاً ترك بعض القطع الخزفية في القرن الحادي عشر . وقد سبقهما صانعان آخران هما طيب علي و « ساجي » شوهد اسماهما على قطعة من الخزف محفوظة في دار الآثار العربية مشغولة على الطراز القديم العهد الذي يذكر بالفخار العباسي . وهناك قطعة في نفس المجموعة ذات زخرفة نباتية من الطراز الاخشيدي تحمل اسم الحاكم بأمر الله . ويمكن ان نقابل هذه الزخرفة بزميلتها المنقوشة على الباب الخشبي الذي امر بصناعته الخليفة الحاكم للجامع الازهر . وقد أشار الرحالة

(٨) يقصد بكلمة Lustre طبقة الميناء الرقيقة اللامعة التي يكسى بها الخزف فتكسبه سطحاً لامعاً براقاً والعلماء غير متفقين في تعيين التاريخ والاقليم اللذين نشأت فيهما صناعة الخزف ذي البريق المعدني في الاسلام وفي هذا الخزف ترسم الزخرفة بملح معدني على سطح لامع ثم تثبت بتعريضها للنار بطريقة تكسبها بريقاً معدنياً (تراث الاسلام — الجزء الثاني ص ٤٤)

(٩) لاشك ان الدكتور الفاضل الاستاذ لام يقصد الفترة القصيرة بين عامي ٩٣٥ و ٩٦٨ التي تتوسط العهدين الطولوني والفاطمي اذ من العسير ان نوافق استاذنا على انه كانت هناك مميزات او مظاهر فنية لعصر لم يدم اكثر من ٣٣ عاماً . وكل ما يمكن ان ينسب الى هذه الاسرة الاسلامية في الواقع يتصل بالعهد الطولوني او ممهداً للعهد الفاطمي

طبق من الخزف القاطلي ذي البريق المعدني وفي قعره
دائرة رسم عليها طائر في منقاره غصن وحول
الدائرة شريط من زخارف نباتية

جباب « نفارة » للماء
عليه زخرفة تمثل طاووساً
واقفاً ذيله

ناصري خسرو[١٠] في سفره المشهور عن رحلته الى صناعة الخزف ذي البريق التي شاهدها زاهرة في مصر

كان مسلم وسعد أمهر صناع الخزف ذي البريق المعدني . وفي متحف بنكي باثينا قطعة زجاجية ملونة بنفس الطريقة من صناعة سعد . ويرى الاستاذ المرحوم علي بك بهجت مدير دار الآثار العربية الاسبق ان « سعد » عاش في عصر سابق لعصر زميله مسلم ولكننا لا نتفق معه في رأيه . ومن المعقول ان نخمن بان مسلم اشتغل في عصر الحاكم بينما عم نشاط سعد في عهد الحكم الطويل الذي تمتع به الخليفة المستنصر بالله (أواسط العصر الفاطمي) . ولا نعلم تماماً لماذا كانت بعض قطعهما مهورة بأسميهما وأغلبها لم تكن مهورة . ومن هذه الاخيرة أمثلة كثيرة ذات قيمة فنية عالية لا مجال للشك في انها من صناعة الصانعين المجيدين . ومع ذلك يجب ان لا نأخذ بسهولة بكل القطع الخزفية التي يظهر فيها اسلوبهما الصناعي على انها من عملهما او من اخراج مصنعيهما . ولكي نأمن الخطأ يجب ان نعتبرهما ممثلين لمدرستين ويجب ان نتكلم عن طراز سعد او مدرسة سعد وعن طراز مسلم او مدرسة مسلم وليس عن صناعة سعد او مسلم شخصيهما

وسنصف الآن بعض الميزات التي اتصفت بها كلتا المدرستين

مدرسة مسلم

في صناعة هذه المدرسة يغطي الطلاء أجزاء الآنية كلها بما فيها قاعدتها المحدودة بحرف قليل الارتفاع ويكون الطلاء دائماً ابيض اللون لكنه يندر ان يكون في نقاوة الطلاء الذي نجده على الخزف الأخشيدي . أما البريق المعدني فذو لون واحد غالباً هو اللون الذهبي الا في احوال نادرة جداً تميل الى الاحمر النحاسي . وفي هذا النوع من الخزف لا نرى الزخارف محفورة دائماً . أما توقيع مسلم فنجده منقوشاً بحروف كوفية بسيطة تقرب احياناً من الخط النسخ ونرى في الغالب على قاعدة الآنية . وفي بعض الاحيان نرى الامضاء بالقرب من الحافة موضوعاً بطريقة زخرفية بديعة وكانت معظم الزخارف المفضلة رسوم الحيوانات والطيور المختلفة والموضوعات الزخرفية النباتية والحروف الكوفية كما تظهر ايضاً بعض الصور الآدمية على قطع الخزف من صناعة مسلم (كالتي نشاهدها على خزف الصانعين ابراهيم وماجي)

---

(١٠) ناصري خسرو هو رحالة وشاعر فارسي ولد في مقاطعة خراسان ببلاد فارس سنة ٣٩٤ هـ وانتظم في شبابه بعمل في الديوان بمدينة مرو ثم ترك الديوان وحج الى مكة واخذ يطوف بلاد العالم الاسلامي في منتصف القرن الخامس وأعجب بما وجده في مصر من رخاء عظيم واسواق عامرة (١٠٤٧ — ١٠٤٩م) ووصفه لقاهرة المستنصر يعد من اهم المراجع التي تعتمد عليها في دراسة احوال القاهرة وصناعاتها وعلاقاتها السلطانية والشعبية . وقد ترجم رحلته الى اللغة الفرنسية وشرحها المستشرق شارل شيفر في باريس سنة ١٨١١

Sefer Nameh : Relation du Voyage de Nassiri Khosraw

مدرسة سعد

وفي هذه الصناعة نجد الجزء الاسفل للاواني محتوياً على حلقة للقاعدة تشبه الشريط الا في احوال نادرة جداً عند ما تكون الاواني يغطيها الطلاء . وهذا قلما يكون أبيض اللون فهو اما أزرق وإما أحمر . وفي نوع خاص يصادف الانسان بريقاً أنيقاً ذا لون رمادي لامع معلاة به القاعدة على مثال الخزف الذي نقابله في الخزف القبطي والقاعدة تولية الشكل أفقية صنعت بالاصابع أثناء عمل الآنية وادارتها على عجلة الخزاف

وقد عم استخدام اللون الازرق في تلك الصناعة كما أننا في كثير من الاحوال نجد البريق المعدني الاكثر استعمالا هو الزيتوني المائل الى الاصفرار

وفي مجموعة منسوبة الى مدرسة سعد وجدت نماذج ذات ألوان متعددة وبريقها المعدني مطبوع على زخارف بارزة في قوالب مصبوبة . والنقش الداخلي مكون في الغالب بواسطة الحفر في طبقة المادة ذات البريق بدون ان ينفذ الى المادة الطينية . وتقابل مثل هذه «الحزوز» في أعمال الخزف المنسوبة الى «ساجي» . اما توقيع سعد فنجده منقوشاً بالحروف الكوفية المزخرفة على جزء واضح من الآنية وفي الغالب على الوجه الخارجي للاناء . وهناك قطعة زخرفية في القسم الاسلامي من متحف برلين تحمل توقيع سعد والى جانبه توقيع لمصور (صانع) آخر اسمه (حسن) وهذا مما يدلنا على انه كان لسعد مساعدون في مصنعه . وفي متحف فكتوريا وألبرت بلندن آنية عليها توقيع سعد وعلى سطحها الداخلي نقش يمثل قسيساً في يده مبخرة يترجح . وبين الزخارف التي تملأ ارضية الآنية علامة الحياة المصرية او الصليب القبطي الذي كان يستعمله الاقباط كثيراً في اعمالهم الزخرفية

وفي دار الآثار العربية قطعة خزفية ليس عليها توقيع ولكن عليها صورة المسيح منسوبة الى مدرسة سعد . وهذا مما يجعلنا نعتقد انه من المحتمل ان سعد كان من سلالة الاقباط

وقد اقتبس سعد بعض موضوعاته الزخرفية من موضوعات قديمة . وفي كاتدرائية Sens قطعة قماش من الحرير تشبه القطعة التي عثر عليها في انطينو Antinoe [11] عليها رسوم طيور متقابلة وأشجار وسلال تحتوي على فواكه كثيرة الشبه بالرسوم التي تقابلها ونسبها بدون عناء الى مدرسة سعد . ومن الصعب تفسير وجوه الشبه لاشياء يرجع تاريخها الى عصور متفاوتة

---

(١١) انطينو بوليس او ادريانوبوليس مدينة مصرية قديمة على الحدود الجنوبية لمصر الوسطى التي عرفت قديماً باسم هيرونوميد ثم اتصلت بعد ذلك الى اقليم طيبة . وكانت على الشاطىء الايمن للنيل على بعد ٩ كيلو مترات من هرمر بوليس — وقد شيدها الامبراطور ادريانوس على انقاض مدينة بيبا القديمة وذلك تخليداً لذكرى صديقه انشاب الجميل انطونيوس الذي مات غرقاً في النيل بالمكان الذي شيد عليه المدينة . وقد اطلق الاقباط على انقاض هذه المدينة الجميلة اسم Ensineh وفي اليوم بالقرب من قرية الشيخ عبادة

انظر Description D'Egypte (t. IV. p. 197)

ومن الرسوم التي تشاهدها على اطار هذه المجموعة الاسماك التي نراها على آنية مشهورة في مجموعة كيليكيان المعروضة في متحف فكتوريا والبرت وكانت في قبل للدكتور فوكيه وخلاء هذه الآنية رمادي اللون ومشقق . وإنا نرى على السطح الداخلي لبعض الاواني الخزفية التي تنسب بسهولة الى صناعة سعد زخرفة لاسماك ثلاثة تماس رؤوسها في هيئة رائعة كما نرى بعض الرسوم الآدمية ايضاً . وليس في طراز صناعة سعد تلك القوة والحرية التي نلاحظها في صناعة مسلم ومدرسته لكنها اكثر رشاقة وانسجاماً

ومن اراد الدرس استطاع ان يقابل اوجه الشبه والخلاف بين النقوش التي على لوح كنيسة سنت بربارا بمصر القديمة والنقوش التي خلفتها قصور الفاطميين بالقرية

ولاشك ان بعضاً من الامثلة المتأخرة من هذه الطبقة صنع بعد وفاة سعد ونجدها غير متقنة وتندر فيها الرسوم . كما اننا نلاحظ ان حروف قاعدة الاواني مثلثة القطاع وليست مستديرة

***

ومن مجموعات الخزف ذي البريق المعدني الذي ينسب الى العصر الفاطمي الأخير ما نرى زخرفته ذات لون بنفسجي تحت سطح مصقول وشفاف . ولا بد ان تكون هذه الطبقة والسابقة لها من عمل مصنع واحد

ومن بين الموضوعات الزخرفية التي استعملت جامات (medaillons) تحتوي على رؤوس من المحتمل انها تمثل الشمس . وموضوعات مثلثة ومستطيلة ذات جوانب منحنية وفروع اشجار مزهرة . . . الخ ونشاهد امثلة اخرى عليها رسم الصليب ومن المحقق ان تكون من صناعة القبط

وقد وجدت قطع كثيرة من الاواني وترابيع الحيطان ذات البريق المعدني في حفريات قلعة بني حماد . ومن المحتمل ان تكون في الاصل وردة من مصر . لكن مما يحطنا نعارض هذه النظرية اننا لم نعثر على مثل تلك الترابيع في حفريات الفسطاط . ونعتقد انه كان لخراب الفسطاط الشامل عقب حريقها الكبير عام ١٠٦٩ ثم سقوط الدولة الفاطمية بعد ذلك باعوام قلائل — القضاء الاخير على صناعة الخزف ذي البريق في مصر . وفي ذلك العصر نجد ان هذه الصناعة بدأت في الظهور في سوريا واسبانيا (وكان ورد اليهما الخزف ذو البريق في القرن العاشر) . ووجود بعض الأواني اللامعة في سوريا التي ترجع الى زمن لا يتجاوز عصر سقوط الدولة الفاطمية لا يمكن ان يتخذ حجة نستعين بها ضد النظرية القائلة بأن صناعة الخزف قد ادخلت الى سوريا على يد الصناع المصريين . والفخار السوري ذو البريق يكون احياناً مطلياً على سطح مصقول وشفاف يحتوي على مادة القصدير . وهذه الطريقة في الطلاء ادخلت الى سوريا عن طريق مصر حيث تقدمت

لقد ذكر لنا المؤرخون في مناسبات شتى اهمال صلاح الدين لامن والترف . وهذا ما

يفسر لنا الى حد ما الانحطاط الوقتي الذي أصاب الفنون المصرية فيما عدا فن صناعة الخشب الذي تبع سقوط الدولة الفاطمية

كلمة عامة في دراسة الخزف الاسلامي

الآن وقد انتهينا من عرض آراء الدكتور لام في الخزف الفاطمي يجمل بنا ان نلخص بعض الآراء الأخرى . فقد تناول دراسة الخزف الاسلامي كثيرون من مؤرخي الفنون . وما زالت امامهم نقط كثيرة غامضة . وكان من الذين بحثوا موضوع الخزف الأسلامي العالم (Hobson) [١٢] فقال ان ليس ثمة اي دليل على وجود خزف ذي بريق معدني في الفسطاط قبل القرن التاسع ولاسيما قبل العصر الطولوني في نهاية هذا القرن وليست هناك أية قطعة أثرية تثبت يقيناً ان ذلك البريق المعدني كان معروفا قبل الاسلام

وكان من الباحثين الفنيين في الخزف الاسلامي المرحوم العالم علي بك بهجت والاستاذ فليكس ماسول [١٣] فقد نسبا الى العهد الطولوني نوعاً من الخزف ارق طينة من النوع الذي ينسبانه الى ما قبل العصر الطولوني يمتاز بزخارف ذات البريق المعدني ذي اللون الاصفر او الزيتوني على ارضية بيضاء او عاجية

وبعض العلماء وهم ميجو Migeon ومرسيه Marçais وفيت Wiet وغيرهم اتفقوا على ان تلك المميزات نفسها هي مميزات خزف عثر عليه في سامرا وفي الري [١٤] وفي سوس وفي قلعة بني حماد وفي مدينة الزهراء (فرساي قرطبة) ولكن الدكتور Dr. Sarre وزميله الدكتور كونيل Dr. Kühnel امين القسم الاسلامي بمتحف برلين يريان ان صناعة الخزف ذي البريق المعدني نشأت في العراق . وبثبت كونيل ذلك بأن التنقيب لم يعثروا في اطلال سامرا على بقايا افران لصناعة الخزف او قطعاً اصابها التلف في الافران اثناء العمل . ولذلك ذهب الى ان بغداد كانت موطن هذه الصناعة ولاسيما ان المصادر التاريخية كثيراً ما تتحدث عن مدينة المنصور كمركز هام لصناعة الخزف والفخار [١٥] . وهذا هو الرأي السائد

ومن المحتمل جداً ان نقل هذه الصناعة من العراق الى مصر جاء على يد ابن طولون . وليس بعيداً ان يكون قد اتى معه من العراق نماذج من الخزف العراقي او بصناع عملوا على احياء صناعتهم في مصر [١٦]

---

(١٢) انظر كتاب Hobson : A Guide to the Islamic Pottery of the Near East.

(١٣) انظر Ali Bahgat et Felix Massoul : La Céramique Musulmane de l'Egypte

(١٤) مدينة الري : Rhages or Ray وهي مدينة فارسية تقع على بعد بضعة اميال الى جنوبي طهران . وقد كانت في صدر الاسلام مدينة مذكورة ومركزاً كبيراً لصناعة الخزف وفيها نشأت نماذج عديدة خاصة بها وقد دمرها المغول سنة ١٢٢٠

(١٥) انظر كتاب « الفن الاسلامي في مصر » لمؤلفه الدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية

(١٦) المصدر السابق

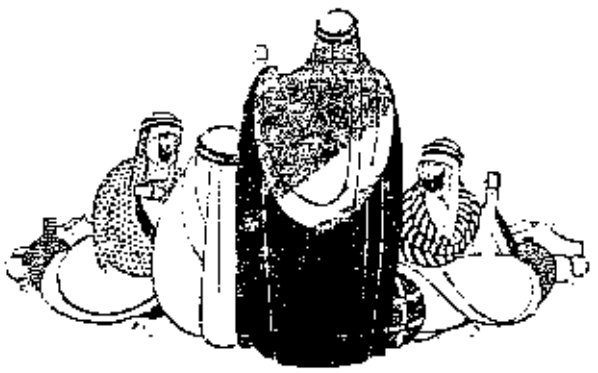

عمر بن عبد الله

ابن ابي ربيعة

— ٢ —

جبرائيل جبور
احد أساتذة الادب العربي
بجامعة بيروت الاميركية

﴿الناحية الجدية في حياة عمر﴾ : لعلّ اخبار حب عمر للنساء وتغزله بهنّ ولهوه وعبثه طغت على سائر اخباره الاخرى بحيث كادت تستأثر بانتباه المؤرخين . ولهذا فالمشهور عند الادباء اليوم ان احداً من الناس لا يستطيع ان يذكر شيئاً عن الناحية الجدية في حياة عمر

ولعل بعضهم يزعم ان عمر لم يجدّ في حياته وانما قضى عمره في عبث ومجون ، ولكن الاقدمين ذكروا ان عمر قتل اصف حياته ولعلك نصفها الآخر ، ومهما يكن من شأن هذه الرواية المضطربة فهي تدل على ان حياة عمر في زعم هؤلاء الرواة القدماء لم تنقض كلها في اللهو . ولقد حاولت ان اتلمس هذه الجوانب الجدية من حياة عمر فلم ار في ما بقي من كتب القدماء ما ينفع غلة ، والذي يؤيد امر ضياع بعض اخباره رواية اوردها السيوطي وهو من المؤرخين المتأخرين من رجال القرن العاشر للهجرة فيها بأن صح فهو يفيد ان عمر جد كل الجد في بعض ظروف حياته . ولعلك تستغرب اذا علمت ان هذا النبأ هو ان عمر نقل الحديث النبوي عن امام مشهور هو سعيد بن المسيب ، وقد عرف اتصال عمر به وبعبد الله بن عباس وهما من اعظم ائمة ذلك العصر ، وان هناك محدثين نقلا عنهُ الحديث هما مصعب بن شيبه وعطاف بن خالد . ولعلك لا تستغرب ان تسمع انهُ كان يعرف القراءة والكتابة فهذا بيّن من شعره وقد كان بالمدينة زمئذٍ كتاتيب يتعلم بها الصبيان . وقد اتصل مع كثير من حبيباته بواسطة الكتب التي كان يبردها اليهن وكنّ يكتبنَ اليهِ ايضاً وقد قال:

ابثت انك اذ اتاك كتابنا اعرضت عند قرائك الغوانا

ومن الممتع ان تعلم انهم كانوا يختمون كتبهم بألوف السلامات كما تفعل العامة في هذا العصر

سلم الله الف ضعف عليكم مثل ما قلتم لنا في الكتاب

وقد ألمّ بالقرآن واستعان بمعانيه في شعره الغزلي

وقد قال : والله قد انزل في وحيه مبيناً في آيه المحكم
من يقتل النفس كذا ظالماً ولم يقدها نفسه يظلم

وله : ان الوشاة كثير ان أطعتهم لايرقبون بنا الاً ولا ذمما

وله : حدثونا انها لي نفثت عقداً يا حبذا تلك النفث
كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

وليس غريباً على عمر وقد ولد في جيل كانت الحجاز فيه موسماً لحركة دينية كبرى هزت اقطار العالم وكان العرب فيه قد اخذوا بدهشة هذا الدين الجديد ، اقول ليس غريباً عليه ان يتصل باسباب هذه الحركة وان يلم بامورها . وقد كان اخوه الحارث رجلاً صالحاً نقل الحديث عن الامام علي

وكانت المدينة كما ذكرنا مركزاً عظيماً لهذه الحركة ولهذه النهضة الجديدة بما استتبعته من امور الاجتماع والتجارة . وكانت جيوش التي تعمل لهؤلاء العرب في سائر اتمامهم ، وكان عمر احد الورثة لبيت تجارة وثروة كما رأينا فلم يكن غريباً ان يقع عليه ، وقد مات والده وهو صبي ، عبء مسئولية بعض الاعمال التجارية والصناعية . والرواة يذكرون لنا ان كان لهُ عبيد يتصرفون في بعض المهن منهم سبعون في الحوك وان أم والده كانت تاجر في العطر . ولم تقتصر اعماله التجارية على الحجاز فقد سار (فيما يظهر من شعره) في رحلة تجارية الى اليمن طمس الرواة أخبارها فذكروا ان أخاه أرسله الى اليمن لينعهُ من قول الشعر ، وزعم آخرون ان رجلاً باسم مسعدة بن عمرو ارسله في أمر عرض لهُ ، والراجح انهُ ذهب في تجارته وقد ندم على عمله حين حالتهُ هذه الرحلة عن حضور موسم الحج فقال قصيدته المشهورة :

هيهات من أمة الوهاب منزلنا اذا حللنا بسيف البحر من عدن

وفيها يقول بلسان حبيبة تخاطب رفيقتها :

بالله قولي لهُ في غير معتبة ماذا أردت بطول المكث في يمن
ان كنت حاولت دنيا أو رضيت بها فما أخذت بترك الحج من ثمن

ويظهر من شعره أن لهُ اكثر من رحلة الى اليمن حالهُ في احداها مرض ثلاث سنوات وقام برحلة الى البصرة لمعالجة أسنانه كما ذكرنا وقال في طوله فيها شعراً لم يحفظ لنا منهُ سوى :

حبذا البصرة داراً في ليال مقمرات

وزار الكوفة ولا نعلم متى ولا لأي غرض . فقد يجوز انهُ قصدها وراء احدى الغايات العائدات من الحج : وهناك اخبار تشير الى تتبعه عراقية الى العراق . وقد يجوز انهُ كان يزور

أخاه الحارث والي الكوفة مدة لعبد الله بن الزبير وقد مكث فيها وأحب ليلها البارد وماءها وغناء مغنيتين فيها ، وقد قال في ذلك :

يا أهل بابل ما نفست عليكم من عيشكم الا ثلاث خلال
ماء الفرات وطيب ليل بارد وغناء مُسْمعتين لابن هلال

ولهُ زيارة او اكثر لسوريا لم يذكر الرواة شيئاً عنها ولكنهُ ذكرها في شعره في غير قصيدة وبث في هذا الشعر شوقه لمحبوبة حجازية كان قد شق عليها فراقه ، وتراه يستحث ناقه ليصل الى حيثه ولسنا نعلم غرضه في هذه الرحلة ولعله أحد امرين . إما في تجارة وإما في غزوة ولا سيما وهو يذكر في شعره أن فتاته حين ودعته دعت الى الله ان يعيده سالماً مأجوراً ونحن نستبعد جهاد عمر في غير الحب ولكننا لا نكر انهُ قال :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وقد نشأ في المدينة نشأة أدبية وكان أولاد بعض الاشراف يتأدبون على أيدي معلمين رووهم الشعر ، فألم بشعر الكثيرين من سابقين ومعاصرين وتأثر ببعضهم . والذي يدرس شعره يرى انهُ قد أخذ عن امرىء القيس وحسان بن ثابت والاعشى وعنترة وزهير والنابغة وعلقمة وأبي القيس بن الصلت والخنساء والحطيئة والاسود بن يعفر والمنقب العبدي وعدي بن زيد وغيرهم وهذا يدل على سعة اطلاعه ولعله كان أميل الى تأثر امرىء القيس منهُ الى تأثر اي شاعر آخر . ومن يقرأ قصيدة عمر :

خليلي مرّا بي على رسم منزل

يتخيل انهُ يقرأ شعر امرىء القيس . وكان لعمر أثر كبير في الحياة الادبية في ذلك العصر فكان يعارض بعض الشعراء من معاصريه ، وكان يعارضه آخرون وكان يشيه من هذه الخصومة قيمتها الادبية . والرواة يحدثوننا ان الحزين الكناني الشاعر لقي عمر وعارضه وهجاه وعيره باسوداد ثنيتيه او كسرها وقال :

ما بال سنيك أم ما بال كسرها أهكذا كسرا في غير ما بأس
أنفجة من فتاة كنت تألفها أم ناطحا وسط شرب صدمة الكاس

ولكن عمر لم يرد عليه باكثر من اذهب ! اذهب ! ويلك ! فانك لا تحسن ان تقول

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

ولسنا نعلم تماماً متى كان اول عهده بالشعر . وليس هناك أثر من الصحة للروايات التي تذهب الى أن اول قصيدة نظمها كانت :

أمن آل نعم انت غادٍ فمبكر غداة غد ام رائح فمهجر

وانهُ انشدها لاول مرة امام ابن عباس عندما وفد عليهِ ابن الازرق . فقد كان وفود ابن الازرق حوالي عام ٦٥ هـ . وكان عمر حائذٍ في السابعة والثلاثين من عمره . وقد نسب اليهِ شعر قيل في واقعة الجمل التي وقعت وهو في الثالثة عشرة من عمره ولم يكن هذا بغريب على شاعر مطبوع مثل عمر ، ويظهر انهُ نظم في صباه وشبابه شعراً كثيراً غثًّا حتى اذا قويت ملكة الشعر فيهِ ونظم الشعر الجيد قال جرير ما زال يهذي هذا الشاب حتى قال شعراً

وهناك شطر من حياتهِ قضاه بغير هذا اللهو الذي عرف بهِ وقد غالى بعض الرواة فجعلوه نصف حياته بل اكثر من النصف ، ذلك ان عمر لم يجاوز السبعين من عمره . ولكن هؤلاء الرواة اطالوا عمره فجعلوه ثمانين ثم اشفقوا ان تنقضي هذه السنوات كلها في الاثم والمنكر فأتابوه بعد الاربعين وقالوا فتك (٤٠) ونسك (٤٠) وهو لذلك قد فاز بالدنيا والآخرة . والواقع انهُ لم يتب بعد الاربعين ولم يكن لهوه في سنواته الاخيرة كلهو الشباب . وكل ما في الامر ان عمر لما ما امكنهُ ان يلهو حتى اذا فترت سورة اللهو بهِ بكى شبابه ثم كبر فاخذ ينصرف الى ما يقتضيه وقار الشيوخ من هدوء وسكون . ولعلهُ مال الى امور الدين فأثر ما اثر عنهُ من حديث

ولعل اخفى ما في تاريخ عمر موته . وهو شيء غريب فالرواة والمؤرخون قد عودونا ان يختلفوا في امر ولادة من يترجمون حياته لان احداً من الناس لم يؤت النبوة ليعلم ان هذا الصغير الذي يوضع سيكون له شأن . اما ان يختلفوا في ظروف موت شاعر طبق العالم العربي صيته فهو امر ذو بال . ولست ارى مجالاً لاسرد روايات موته المختلفة بالتفصيل فالبعض قد اماتهُ مجاهداً في دهلك (جزيرة في البحر الاحمر) وزعم ان عمر غزا في البحر مجاهداً فاحترقت سفينة وغرق شهيداً . ولعل صاحب هذه الرواية هو من هؤلاء الذين اشفقوا على عمر فاتابوه نصف حياته ودفنوه الى البحر غازياً ليستشهد ويفوز بالدنيا والآخرة

وزعم البعض الآخر ان عمر نظر الى امرأة جميلة شريفة في الطواف فذهب عقله فكلمها فلم تجبهُ فذكرها بشعره وقال فيها :

الريح تسحب اذيالاً وتنشرها يا ليتني كنت من تسحب الريح

فبلغها شعره وجزعت منهُ وقيل لها اذكريه لزوجك فانه سينكر عليهِ قوله فيك فقالت : كلاَّ والله لا اشكوه الاَّ الى الله ثم قالت اللهم ان كان نوّه باسمي ظالماً فاجعله طعاماً للريح فضرب الدهر من ضرباته ، ثم ان عمر غدا يوماً على فرس فهبت ريح فنزل فاستتر بسلمة فعصفت الريح فحدثه غصن منها فدمي وورم به ومات من ذلك . ولعل اصحاب هذه الرواية هم من الذين شاؤوا ان ينتقم الله من عمر فاماتوه بدعاء امرأة شريفة حاول التعرض لها . ولو شئت ان اعدد اخبار من

ماتوا في التاريخ العربي بدائه اخذ الناس عليهم لطائل في المقام

وهناك رواية لا تشير الى شيء صريح مفصل عن أمر موته ولعلها أقرب الروايات الى الصواب . قالوا لما مرض عمر مرضهُ الذي مات فيه جزع اخوه الحارث الخ . . . . . وهذه الرواية ان صحت تشير الى أن عمر قد مات على البيد في خلافة الوليد بن عبد الملك ويجب ان يكون قد مات من مرض لا من حادث مما ذكرنا . وهناك اخبار تشير الى انهُ كان آخر حياته كالمقعد يتوكأ على مولى لهُ ولست ادري كيف يمكن لمثل هذا ان يغدو على فرسه او ان يغزو في البحر . ومهما يكن في الأمر فان عمر مات قبل السبعين

ولعلَّ للبرداء « الملاريا » أثراً في تهديم جسم هذا الشاعر الجليل ، فقد كانت تنتابهُ من حين الى حين وكانت أقوى نوباتها لهُ في رحلة ارتحلها الى اليمن بعيد أهن اهله فلم تفارقه ثلاث سنوات

ولعلهُ مات غريباً عن وطنه فاني لا أرى أعظم من هذا سبباً يدفع الرواة الى الاختلاف في أمر موته . ذلك أهم ما في حياة عمر من جد الأمر وما كنت أظن ان الناس يلتفتون الى عمر لو اقتصرت حياته على هذا بل انا أعلم ان بعضهم لا يهمه من امر عمر سوى ما اشتهر به عمر ألا وهو حبه وشعره

(حبه) : يزعم البعض ان عمر لم يحب بقلبه وانما أحب بعقله ولسانه . ويدللون على هذا بتعدد محبوباته ويصرحون أن من أحب غير واحدة فقلبهُ لم يحب . وكنت اود لو كان المقام يتسع لي لأظهر فساد هذا المذهب ، ولكني أعلم ان كثيراً من الناس قد خفقت قلوبهم لأكثر من شخص . واذا كانت العوامل التي توقظ الحب وتحرك القلب وتوقد الحس وتلهب العاطفة قد وجدت في شخص فلست أرى ما يمنع ان يحب الواحد اكثر من شخص . ويتهمون عمر في حبه لأنهُ حضري لا بدوي ويدللون على ذلك في انهُ قلما صدق للحضريين حب أو تبقى لهم صبابة وكل حضري يعلم فساد هذا القول

واذاً فرأيي انهُ ليس هناك من سبب يحملنا على اتهام عمر في حبه . فليس الحضريون مكذبين في عشقهم ولا المعددون خائنين في حبهم ولم يكن عمر كاذباً في حبه حينما ترك الحجاز وراء فتاة احبها الى العراق يشيعها ، ينزل بنزولها ويرحل برحيلها حتى يردا العراق فتزوجه بالتي هي احسن ويعود وقلبه معها بعد ان وعدته الموسم القادم . ولم يكن عمر كاذباً في حبه حينما تزوجت الثريا وانتقلت الى بلد بعيد فانهُ لم يهجر حبها ولا سلا ذكرها بل سار وراءها يتلمس خطاها على اديم البيداء الفاصلة بين الشام والحجاز وكتب لها وقد بلغه فراقها متوجعاً :

كتبت اليك من بلدي كتاب موله كمد
كئيب واكف العينين بالعبرات منفرد

يؤرقه طيب الشوق بين السحر والكبد
فيسك قلبه بيد ويمسح عينه يد

وارادت الثريا اختبار حبه فدست له من الطائف وهو بمكة من خدعه وانبأه أنها ماتت فاعتلى صهوة جواده لساعته واستحثه الى الطائف وقد اقلقه النبأ وازعجه فرآها تنتظره وادركت انه المحب الامين

اما هذه العوامل التي كانت تدفع عمر الى الحب فمتعددة شأنها اليوم وأهمها الجمال فقد كان مغرىً به او على تمييره الخاص موكلاً به يتبعه اني رآه . وكان قلبه طوع هذا الشعور بالجمال فكان يخفق لهُ . ويظهر انهُ كان دقيق الحس في ادراك الجمال فلا يكاد يلمسه في وجه فتاة حتى يضطرب قلبه لهذا الشعور الذي عمره ولهذا النور الذي سطع لعينيه فيحاول في فنه ان يجلوه للناس كانما هو خاف عن اعينهم فهو والحالة هذه قد احب بحبه ثم بقلبه

و في كل اخبار عمر ذكرٌ لفتاة احبها الاَّ وقد ذكر الرواة عنه انها كانت من اجمل نساء دهرها . واذا كنت تريد معرفة عدد محبوبات عمر فليس عليك الاَّ ان تعدد الجميلات في ذلك العصر ممن كان يمكن ان تقع عينه عليهنَّ او يتصل به علمهنَّ . واذا كنت تريد ان تعرف الجميلات في ذلك العصر فليس عليك الاَّ ان ترجع الى شعر عمر فقد خلد ذكرهنَّ بل لقد كان بعضهنَّ يرينَ دليلاً على الجمال ان يذكرن في شعر عمر . ولقد اعترضت الثريا ذات يوم على شعر بلغها قاله عمر في امرأة يظهر انها لم تكن جميلة الوجه او الثريا كانت تغار منها فقالت : انَّى لهُ ما أكذبهُ او ترتفع حسناء بصفته لها بعد اليوم !

ولقد شهر في تقديره للجمال الى درجة ان احتكمت اليه ذات يوم سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة في أيهما اجمل فقال لعائشة أنتِ أجمل وقال لسكينة أنتِ أملح وأرضى كلتيهما

ويطول بي المقام لو فصلت لكم حوادث عمر مع من زعم ان لهُ علاقة بهنَّ ، فهنَّ كثر . وقد ذكر في شعره اسماء صريحة لاكثر من عشرين امرأة بعضهنَّ من اشهر نساء الاسلام على الاطلاق . ويكفي ان اذكر منهنَّ الثريا بنت علي بن عبد الله وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وكفى باكثر من خمسين اسماً عن فتيات جيل بيننا وبين معرفتهنَّ ولعل اصدق حب عرف عن عمر واقواه قد قسم بين ثلاث هنَّ الثريا وعائشة وزينب بنت موسى الجحية ، وقد أفلتنَ من يده جميعاً فزوجنَ واعقبنَ زواجهنَّ لوعة وحسرة . وقد كنى عن فتاة باسم نعم وكنى عن اخرى باسم هند وهما ان لم تكونا من النساء الثلاث اللواتي ذكرنا فقد شاطرتاهنَّ قلب عمر . وقصص عمر مع حبيباته من اجمل القصص وقد انتشرت في اكثر كتب الادب العربي وارجو ان يكون في كلمتي هذه حافز للقارىء الكريم ان يطالع هذه القصص الشيقة الممتعة

العقلي والمادي

في الفلسفة الحديثة

لفليمون موسى

من اهم القضايا التي اشتغل بها اهل الفلسفة منذ القديم ولعلها اهم تلك المسائل وأبعدها تأثيراً مسألة العقل والمادة . وان الفلسفة لا تزعم انها توصلت فيها الى حقيقة راهنة او رأي حاسم . الا ان الفلاسفة في بحثهم معالجتهم هذه المشكلة الفلسفية تمكنوا من كشف النقاب عن حقائق هامة جدير بكل مثقف الاطلاع عليها والاستنارة بها اذ انهُ على معرفتها يترتب كثير من شؤون المرء ومعتقداته الخاصة

ان كثيرين ممن تعاضوا عباب هذا البحث حتى من فريق الفلاسفة انفسهم توصلوا للاسف الى نتائج خيبة كان لها الاثر السيء في حياة الذين أخذوا بتلك الآراء واعتصموا بتلك المبادىء ويعلم الكثيرون من اهل الاطلاع انهُ طغت على العالم الغربي في اواسط القرن الماضي موجة عظيمة من امواج المادية فاكتسحت ممالك الغرب من اقصاها الى اقصاها واغرقت كثيرين في عبابها واتصلت اطرافها بعد ذلك بقليل بالبلدان الشرقية فهوى كثيرون ايضاً في لججها ومن يعلم ما يكون منْ اخطارها المقبلة وعواقبها الوخيمة في مستقبل الايام

ولا غرو ان يكون الامر كذلك فان البشر كما يقول العلامة الفيلسوف الاميركي جيمس « لا يزالون تحت تأثير المنظور اكثر من غير المنظور وانهم ليأخذون بالمحسوس اكثر مما لا يقاس مما يأخذون بالمعقول »

لذلك لا يلام البعض من غير طلاب الحقائق اذا اقتصروا على القدر اليسير من المعرفة . ولكن يلام فريق المتنورين وطلاب الحقائق الكلية اذا وقفوا عند حد المادة ولم يتجاوزوه الى الامام بما أقرهُ اقطاب الفلسفة ورجال العلم بهذا الصدد بعد جهود القرون وتفكير الدهور . وان المراد بهذا البحث الاشارة الى كيفية تطور هذه الفكرة فكرة المادة والعقل والأدوار التي مرَّت عليها منذ القديم الى يومنا هذا

معلوم ان فلاسفة اليونان وبنوع خاص الفيلسوف أريسطاطاليس كانوا قد قسموا عناصر الوجود الى قسمين عظيمين المادة والعقل . وهذا هو مذهب الثنية الذي لا يزال يقول به الفريق الاكبر من الفلاسفة الى يومنا هذا . وهو يناقض مبدأ ديمقريطوس في الوحدة المادية . وديمقريطوس هو أبو الماديين وزعيم الفكرة التي لايزال عليها الماديون حتى اليوم . الاّ ان فلاسفة اليونان لم يحددوا المادة والعقل تحديداً جليًّا ولا فصلوا بينهما على النحو الذي قام به الفيلسوف الفرنسي ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) ولهذا بقي الرأي القديم في المادة والعقل على شيء من الابهام الى ان قام ديكارت فحدّد كلاً منهما وميّز بينهما تمييزاً تامًّا اذ قال ان العقل يختلف اختلافاً كليًّا عن المادة بل هو نقيض المادة وليس ثمة اي مماثلة او تشابه بينهما — ان خاصة الجسم المادي الامتداد وخاصة العقل التفكير وكلاهما مستقل بدائرته الخاصة ولا يمكن ان يكون بينهما شيء من التفاعل او العلاقة السببية . هذا هو رأي ديكارت على سبيل الايجاز الاّ انهُ لا ينطبق في بعض وجوهه على الحقيقة الواقعة فالانسان اذا أراد تحريك يده مثلاً فانهُ يحركها في الوقت الذي يشاء وعلى الصورة التي يريدها . فهنا واضح ان شيئاً عقليًّا هو الارادة يفعل او يؤثر في جسم مادي هو اليد . اذاً كيف يمكن وقوع مثل هذا الامر والعقلي والمادي شيئان متناقضان حتماً وليس من علاقة سببية بينهما بوجه من الوجوه . ان هذا الامر أوقع ديكارت في حيرة عظيمة وكان مشكلة فلسفية زمناً طويلاً . وهي الحيرة التي جعلت فولتير يلقب نفسهُ احياناً بالفيلسوف الجاهل وكان يطربهُ ان يلقب نفسهُ كذلك . وكثيراً ما كان يردد هذه العبارة ويراسل بها بعض اصدقائه من اهل الفلسفة مثل ديدرو وغيره وهي « ما قيمة هذه الفلسفة التي لا تستطيع ان تعلمني كيف اولماذا احرك يدي »

***

وقد حلل الفلاسفة من اتباع ديكارت مثل مالبرانش وغالنكس وغيرهما هذا الامر بطرق مختلفة أشهرها الطريقة المعروفة بنظرية التقابل Parallelism ومؤدّى هذه النظرية ان المادي والعقلي كلاً منهما في دائرته الخاصة مستقلٌ عن الآخر . غير انهُ عند حدوث اي حركة في الدائرة الواحدة يحدث التأثير الذي يشاكلها في الدائرة الاخرى على سبيل التقابل . ولكن لا على سبيل ان حركات الواحدة هي علة الاحساس او التأثير في الاخرى بل ان كليهما يحصلان معاً باتفاق لا نستطيع ادراكهُ

ويمكن تمثيل ذلك بايقاع عدد من الاصوات المتشابهة والمتوافقة معاً فانهُ يقوم لكل صوت عند الايقاع معنى خاص في الذهن . فلا يعلل ذلك بان الاصوات هي التي احدثت المعاني اذ

لا يوجد اي شبه بين الحركة الصوتية والمعاني العقلية . بل ان الاصوات والمعاني قامت في ذهن السامع معاً وذلك باتفاق غريب لا ندرك كنهه وهذا هو المراد بنظرية التقابل هذه

بيد ان اهل الفلسفة لم يستطيعوا الوقوف عند حدود هذه النظرية اذ انهُ مع الاعتراف والتسليم بنظرية ديكارت من انهُ لا يمكن وجود اي تشابه في الماهية او في الصل بين المحرك او المؤثر المادي والصل العقلي الاّ ان الصلة بينهما اكيدة وتأثير احدهما في الآخر لا يمكن نكرانهُ فالفكر يؤثر في حالة الجسم واحوال الجسم تؤثر كثيراً في الحالات الفكرية . اذاً لا بد ان يكون هنالك علاقة متينة لا مندوحة من التسليم بها او مخرج مشترك بين الاثنين يفسر هذا التفاعل بينهما وهذه الصلة القوية التي تربط احدهما بالآخر . وهذا ما ادى الى نظرية سبينوزا[1] الفيلسوف الهولندي صاحب المذهب الحلولي (Pantheism) وهي ان المادي والعقلي هما وجهان او مظهران للمادة الواحدة الاصلية العامة والتي ليست في ذاتها لا مادة ولا عقلا . ومؤدى نظرية سبينوزا هذه ان العقلي والمادي شيئان متلازمان متحدان . حيث توجد مادة فهناك عقل ايضاً فلا مادة بلا عقل ولا عقل بلا مادة . وان هذه النظرية هي ذات شأن خطير في عالم الفلسفة . وكثير من فلاسفة هذا العصر يرجعون اليها في معظم ابحاثهم . وكانت هذه النظرية في العصر الاخير بنوع خاص مذهب الفيلسوف الانكليزي هربرت سبنسر والفيلسوف الالماني فخنر

اما الفيلسوف ليبنتز (١٦٤٦ — ١٧١٦) فيرى ان جواهر المادة ليست الاّ مراكز قوة او مجموع قوى متعددة انما اذا اردنا تعريف هذه القوى فيقال انها روحية اكثر منها مادية لهذا فان ليبنتز يغلب العنصر الروحي كثيراً على المادي وقد كانت نظريتهُ هذه دعامة قوية لاصحاب المبدأ الروحي في الفلسفة

***

ويطول بنا المقام اذا اردنا ان نعدد آراء كل من اهل الفلسفة بهذا الصدد ولكن نقول بوجه الاجمال ان الاتجاه الفلسفي بعد عصر ديكارت وليبنتز وسبينوزا قد كان في جهة المبدأ الروحي وكان قد اخذ هذا المبدأ بالتقدم على المادي منذ وضعت نظرية التقابل المذكورة آنفاً فلم يعد ممكناً اعتبار القوة العقلية نتيجة من نتائج الحركة المادية او اثراً من آثارها كما يزعم اصحاب

(١) هو الفيلسوف الهولندي الشهير (١٦٣٢—١٦٧٧) صاحب مذهب الحلول المعروف باسم Spinozism

الرأي المادي . واستمرت هذه الفكرة في نمو وازدياد الى ان بلغ المذهب اوج سيادته في النصف الاول من القرن الماضي في فلسفة الفلاسفة الالمان من كانت الى هيجل وفختي وشوبنهور . وكانت فلسفة هيجل وشلنج بنوع خاص فلسفة عقلية محضة (Absolute Idealism) أي القول بوجود العنصر الروحي فقط دون المادي في الوجود

***

واذ نثبت هنا نظرية الفيلسوف الفرنسي فوّيه (A. Fouillée) ١٨٣٨ — ١٩١٢ وهو يريد بها التوفيق او الجمع بين الرأيين المادي والعقلي فانما نعبر عن رأي الكثيرين من اهل الفلسفة في هذا العصر الاخير

يقول فويّه ان الماديين يخطئون بزعمهم ان كل السرّ في الحركة المادية بصرف النظر عن العوامل الاخرى . كما يخطىء العقليون بجعلهم العقل الكل في الكل بقطع النظر عن العنصر المادي . ان العقل والمادة او الحياة والوجدان يمثلان معاً في الطبيعة كبداً واحد شامل وما هما الاّ وجهان او طريقتان لادراك الشيء الواحد كالمعنى المفرد يدل عليه لفظان مترادفان . وما التأثيرات او الانفعالات العقلية الاّ مظاهر او نتائج لعوامل حسية مادية قبلها . اما الوجود العقلي فهو الحقيقة الواحدة التي اعطي لنا ان ندركها مباشرة . لهذا يحق لنا ان نفسر هذا الوجود على هذا النحو اي بانهُ مظهر الحركة او النشاط العقلي او بانهُ قوى فكرية فقط — Idées-forces

اما فريق الماديين فاذ كانوا لا يستطيعون التحول عن وحدتهم المادية لئلاّ ينقض مذهبهم من اساسه فقد زعموا ان العقل ليس سوى نتيجة الحركة المادية في الدماغ وهي اهتزاز دقائقه وما الفكر الاّ وظيفة الدماغ كما ان الهضم وظيفة المعدة . بيد ان جمهور الفلاسفة لا يعيرون هذا القول التفاتاً ولا يحسبون لهُ قيمة فلسفية لانهم يرون ان زعماء هذا الرأي يمكنون الآية فيجعلون العقل تابعاً للمادي بينما الامر على العكس من ذلك تماماً

***

أقول وليت أدباء هذه البلاد وأعني منهم الغارقين في لجج المادية يقتدون على الاقل بفلاسفة العالم فلا يخوضون ويجزمون بأمور هي فوق طاقة العقل البشري ان يبتّ فيها حكماً جازماً . ولا أظنهم ينكرون ان هذا الاغراق في المادية لهُ عواقبهُ السيئة في الآداب والمبادىء والاخلاق ولعلهم يتذكرون

أثر نيتشه

في العصر الحاضر

لابراهيم ابراهيم يوسف

ما كاد يبلغ نيتشه سن الرابعة والأربعين عام ١٨٨٩ حتى اصابهُ خبل عجز الطب عن علاجه ولم يمهلهُ الله بعد ذلك الا قليلاً ليتوفاه . وهكذا لم يتيسر لنيتشه ان يرى بنفسه مبلغ ما أحدثتهُ كتاباته من أثر شامل في التفكير الانساني ، الاَّ انهُ ما كان ليشك لحظة مدى حياته الخصبة في ان اليوم الذي تزوج فيه تعاليمه آتٍ لا شكَّ فيه ، على الرغم من ان معاصريه أساءوا فهمه ونفروا منهُ ، فضى لذلك . وقد عبر في مقطوعة من الشعر عن مرهف احساسه قال فيها :

« انقضى عشرون عاماً — »

« ولما تصلني نقطة ماء ، »

« أو لسيم بليل، أو ندى حب، »

« — بلد لا مطر فيها . . . »

وكتب في شهر فبراير ١٨٨٨ : «على الرغم من اني بلغت الخامسة والاربعين من العمر ولي نحو خمسة عشر مؤلفاً ، بينها كتاب لامثيل لهُ هو «زرادشت» (Zarathustra) لم يتقدم شخص في المانيا لنقدها نقداً لهُ أي اعتبار ، بل ولا انتقد كتاب واحد من كتبي »

وكاد نيتشه صعوبات جمة ليجد ناشراً يطبع لهُ الجزئين الثاني والثالث من كتاب «زرادشت» واضطرَّ لان يطبع أعداداً محدودة من الجزء الرابع على نفقته الخاصة ، بعد ان أحجم الناشرون عن قبوله . أما اليوم فالمطابع في المانيا تخرج مئات آلاف النسخ من مؤلفاته في كل عام ، علاوة عن خطاباته التي نشرتها في ستة اجزاء . وكتبت شقيقته تاريخ حياته مفصلاً أروع تفصيل . وظهرت مئات الكتب تبحث في شخصيته وماهية تعاليمه ، ونشرت الجرائد والمجلات مئات آلاف المقالات عنهُ — ذلك في المانيا وحدها التي تكونت لهُ من قبل

هذا ما نفيهُ نيتشه من بعد وفاته عن طريق الكتابة والكتب ، اما عن طريق الخطابة فقد كان جورج برانديس (Georg Brandes) الناقد الدنيماركي العظيم ومؤرخ الادب العالمي اول من حاضر عن نيتشه محاضرات عامة ، وكان ذلك سنة ١٨٨٨ . وما اقبل عام ١٨٩٥ حتى بدأت المحاضرات العامة عنهُ تتعدد في مختلف البلاد . الاَّ ان المحاضرات الجامعية عنهُ لم تلق في المدارس العالية في المانيا الاَّ سنة ١٨٩٥ ، حيث بدأها الاستاذ اليوس ريل (Aloys Riehl) في جامعة فرايبورج (Freiburg) . وسرعان ما عمت الجامعات الالمانية هذا النحو ، حتى اصبحت المحاضرات عن نيتشه من المقررات الجامعية منذ ثلاثين سنة او يزيد . ولم يقف تيار هذه المحاضرات عند هذا الحد بل سرى في المانيا الى المدارس الشعبية العليا (Volkshochschulen) والمدارس الاهلية العليا (Freien Hochschulen)

كذلك ترجمت جميع اعماله لمدة سنين خلت بمختلف لغات فرنسا وانكلترا وبولونيا وايطاليا واسبانيا والبرتغال والسويد والدنيمارك وهولاندا وروسيا وتشكوسلافيا والمجر ورومانيا وبلغاريا واليابان وغيرها . كما ظهرت في تلك البلاد كتب ومقالات لا حصر لها عن نيتشه . كذلك اصبحت المحاضرات الجامعية عنهُ في تلك البلاد امراً مألوفاً

***

اما مدى تطور الحركة التي اوجدها نيتشه فالرأي فيها ينقسم الى وجهتين . فاصحاب المذهب الاول يرون ان الحركة قد بلغت عنفوانها في حياة نيتشه وهؤلاء ينظرون الى الحركة في شخص زعيمها . واصحاب المذهب الآخر يؤمنون بان الحركة لم تبلغ بعد منتهاها ، اذ الاثر العميق لتعاليم نيتشه الصحيحة لم يبدأ بالظهور في التفكير الانساني الاَّ حديثاً . وما من احد توفر على درس ومتابعة اثر نيتشه في الاتجاهات الروحانية والفنية والثقافية والاجتماعية لعصرنا الحاضر الاَّ ويقر بان الحركة النيتشية ما زالت سائرة في طريق التقدم المضطرد . ولنظرة واحدة الى عدد الدراسات العلمية الخاصة بابحاث في تعاليم نيتشه ، تلك الدراسات التي تتزايد عاماً بعد عام في كل بلد من البلدان المتحضرة ، لدليل على تغلغل آرائه في المجتمع الانساني . ولحسن الحظ أخذ في النقصان على توالي الزمن عدد الذين اساءوا فهم نيتشه فشوهوا تعاليمه ورموه بالغلظة والفظاظة . ومن ثم تجلى الفيلسوف نيتشه كافضل مدافع ضد الاستبداد وجموح النفس التي لا تعرف لها رابطاً ولهذا كانت حملته ضد الانانية والذاتية والاثرة شديدة قاسية قسوة لا هوادة فيها — الى حد انهُ كان صارماً مريراً في نذيره ، اذ يقول :

« اعني للذين يرتاحون لدعوتي ان تنتابهم الآلام والامراض والمحن ويصابون بسوء المعاملة

والتحقير والانتباذ من الناس — انني لهم احتقاراً يصيبهم في انفسهم ، وعذاباً يتولاهم لعدم الثقة بهم ، وان لا يحرموا من بؤس حالات طور الانتقال : فهؤلاء لا أحمل عطفاً ، لأني اريد لهم شيئاً واحداً يثبت ان كان للشخص منهم قيمة او لا — هذا تتبين القوة . قوة الصمد »

ولمثل هذا أسيء فهم نيتشه ، بل وانتهى سوء الفهم الى دوائر العلماء انفسهم فلم يفقهوا اذ ذاك نيتشه كناقد اخلاقي ، وداعية لمكارم الاخلاق ، اميل في بل تفكيره الا ان افراداً قلائل ملكت دعوات نيتشه الروحية الحارة عليهم كل مشاعرهم ، فراحوا يعملون لها

***

وكان نيتشه قد رأى ان الاسس الروحية للمجتمع قد اصابها التشقق وحل بها الانهيار وطرأ عليها التفتن ، فتافت هذه الاسس البالية وطبيعة الحياة ومن ثم بدأ بالاستعداد لبناء ثقافة انسانية شامخة ، جديدة في كل نواحيها ، اساسها الاول كبح النفس دون هوادة ، وترويضها على اقسى حالات الحياة ، والخروج بها من ذاتيتها الى التسامي . واساسها الثاني الاستعداد المطلق للتضحية من دون شرط للوغ الغاية — اي البطولة في أقوى مظاهرها . وبقي ذلك كله شعار الذين يعتقدون فيما بينهم وبين انفسهم انهم المطالبون باقامة هذا البناء الجديد ، مقتدين في ذلك بامامهم نيتشه ، الذي تمكن بحياة البطولة الفذة التي عاشها ، ان يشق طريقه الى صفوف القلائل الذين انوا للعالم بدياناتٍ جديدة . ومهما يكن من مركزنا من تعاليم نيتشه فهي على اي حال تحوي عوامل غاية في القوة لتربية خلقية جديدة

وليس هنا مجال التحدث عن كل ما انتجهُ سوء الفهم لتعاليم نيتشه من افكار تختلف بين الخطورة وعدمها . الا ان تفسير « قوة الارادة للوغ السيطرة » (Der Wille zur Macht) تفسيراً خاطئاً جرَّ كثيراً من الويلات على الناس . فقد فسرها مثلاً اعداء المانيا خلال الحرب العالمية بانها دعوة صريحة الى الحرب وغزو العالم . واشركوا الفيلسوف نيتشه مع المستعمر السياسي تريتشكه (Treitschke) والقائد العسكري فون برناردي (von Bernard) كدليل على ان الالمان بفلاسفتهم وساستهم وقوادهم الحربيين يبغون الحرب لامتلاك العالم . والغريب ان المانيا الهتلرية اخذت اليوم بما اخذ به اعداء المانيا خلال الحرب العالمية ولم تتورع في الاساءة الى نيتشه باظهار تعاليمه على غير حقيقتها . ولعل نيتشه لم يوصم بما هو اخطر من هذه الدعوى . واذاً « فالحاجة حقاً ماسة » — كما يقول الدكتور ماكس برآن Dr. Max Brahn في مقدمة وضعها لكتاب « قوة الارادة للوغ السيطرة » لمؤلفه نيتشه — « لكي نشير الى انهُ ليس من المقصود هنا القوة الظاهرية التي تتجلى في ادوات الحرب ، بل هي القوة الباطنية للنفس

البشرية ، تلك القوة الهائلة التي تأبى الا ان تزايد ، ومن ثم تتوسع في سيطرتها ولا تمل في تنحية شجاعتها التي تتشعب قوية ثم تندفع بعظمة فتجد قوتها في سيطرتها على نفسها وفي اداء واجباتها نحو الآخرين »

ولنطرح تلك الدعاوى السخيفة التي ارادوا ان يلصقوها بنيتشه جانباً لتفقد اثره في التفكير الانساني ، سواء كانت ميادين هذا التفكير تشمل المسائل الفلسفية او الثقافية او الفنية او المسائل العلمية العامة . وسواء كانت المشكلة هي مشكلة التعليم او التربية او الحركة النسائية او قانون الاقتصاص او المشكلة الاشتراكية — فكل هذه وغيرها من الامور يجدها العاكفون على دراسة نيتشه واضحة في كتاباته . ولعل الاستاذ دكتور فرنر يجير (Prof. Dr. Werner Jaeger) قد اتضح غاية الافصاح عن معالم تفكير نيتشه في محاضرة له تكلم فيها عن « عمل الجامعة وموقفها من العصر الحاضر » فذكر فيها : « اما فيما يختص بنشأة تاريخ العلوم العقلية وتطورها اللغوي فان شأنها يزداد على توالي الايام »

ولا حاجة لمعالجة كل مسألة على حدة ، اذ يكفي ذكر اسم نيتشه الذي لم يكن فيلسوفاً بالمعنى المدرسي القديم ، بل كان يغيض بالحكمة لما كان عليه من قوة التنبؤ ، نظراً لالمامه بكل نواحي التفكير العقلي لتاريخ العالم ، وخاصة المامه بكنوز الثقافات الاوروبية

ومع ان نيتشه نشأ خلال العصر اللغوي الكلاسيكي ، فانه ارجع اول تهدم عظيم اصيب به العصر اللغوي والعصر التاريخي الى الفلسفة المدرسية ، التي كانت لا تعرف قيم الاشياء الا عن طريق التعاريف الصماء ، لا عن طريق التفسير والايضاح لاساليب الحياة الوافية اثناء تطورها التاريخي وقواها . فلما ان تبدل الرأي وتبدلت طريقة النظر الى الامور قضى الحال بتغير مقاييس الاشياء وموازينها ، فتبدل تبعاً لذلك الحكم على الاشياء وتقدير قيمها . ومن ثم بدىء بالنظر الى حوادث التاريخ والى الفن والادب من زاوية جديدة . ويكفي ذكر اسم الفيلسوف « اسفالد اشبنجلر (Oswald Spengler) صاحب كتاب « سقوط الغرب » (Untergang des Abendlandes) لتعرف مبلغ اثر نيتشه في العصر الحاضر . وما كان التفكير ليقود اشبنجلر الى مؤلفه الذي اثار به ضجيجاً في عالم الفكر لو لم يحرص على اقتفاء خطوات استاذه وامامه نيتشه

ولعل احصاء ما لنيتشه من آثار في مختلف نواحي الفكر الانساني يستلزم استيفاءها في مجلد ضخم . ولهذا يجمل بنا ان نكتفي هنا بالاشارة الى بعضها . فمن المشاهد ان العالم اليوم يتجه رأساً نحو المسائل الاجتماعية ، حتى اصبحت « مشكلة حياة الجماعة » لدى كل الشعوب المتحضرة رأس المسائل . ولا عجب ان تكون هذه اكثر المسائل تناولاً بالبحث ، وافاضها بوفرة الذين

يتنافسون في دراستها ويتهافتون على استيعابها ، كيما يتمكنوا من تفسيرها ، وحلها ، والادلاء برأي في تكوينها ، وتصويب منهجها او تخطيئه ، وحصر عوامل نشأتها ، وشروط تطورها . وبالاختصار تحديد اصول الحياة الاجتماعية والتطورات الاجتماعية عامة واغراضها . ولقد نجد فيما اصدره ناشر اعمال نيتشه تحت عنوان « كلمات نيتشه عن الدول والشعوب » (Wietzsche-Woerten ueber Staaten und) كل الآراء التي بسطها نيتشه في مؤلفاته في هذا الموضوع الخطير . ويرجع فضل جمعها الى شقيقة الفيلسوف التي بقيت زهاء ثلاثين عاماً توالي درس نيتشه من جميع نواحيه . ولم يعد الامر مقتصراً اليوم على الاختصاصيين في معرفتهم ان الفضل فيه يتقدم علم النفس (البسيكولوجيا Psycolohgie) وعلى الاخص « علم التحليل » النفساني على طريقة فرويد Frend Psychoanalyse راجع الى نيتشه ، الذي تمكن من السور على نفائس هذا العلم اثناء بحثه عن الروح دون ملل ، واثناء ارتياده « العالم السفلي للارواح . واضافاً للعلم لا بدَّ من القول بأن فرويد (Freud) يعد ووريث نيتشه الأوحد ، وان الفرد آدلر (Alfred Adler) ، وهو صاحب مذهب في علم النفس احد تلاميذه النجباء ، فقد رأى نيتشه في كتابه « قوة الارادة لبلوغ السيطرة » صوراً خالدة في عالم الارواح

والى جانب هذا يزداد في كل يوم الدليل قوة على ان حركات الشباب بما فيها من طموح الى تكوين الشخصية العملية ، أخذت تعترف بنيتشه كداعية لهذه الحركات ان لم يكن بعثها وقائدها . فهو الذي وجه من انتقاده منذ نصف قرن او يزيد الى طرق التربية . ورأى ان الحاجة تدعو الى ضم الشباب وحشدهم في آتون واحد بدلاً من تشتتهم في هيئات مختلفة . ولقد أخذ بهذا الرأي أخيراً في بلاد مختلفة ذات نزعات فكرية متباينة . وليسنا هنا في صدد بحث اختلاف اتجاه الشباب في مختلف الشعوب فذلك موضوع آخر

***

واخيراً يصح لنا ان نتساءل كيف تمكن عقل شخص فرد من الاحاطة بكل هذه الافكار الخصبة خلال وقت قصير ؟

قد يكون هذا السؤال من صميم علم النفس في فصل التحدث عن العبقرية والباقرة ، الاَّ انهُ لا يضيرنا الاجمال في الاجابة بانهُ ليس كل الفضل في اتاحه هذا يقاصر على قوة التفكير الحاد الذي يسر لنيتشه الاتاح القيم في نواحٍ عدة من التفكير ، بل تعدو هذه القوة قوة أخرى هي قوة حيويته الروحانية الباطنية ، التي جعلتهُ يتشبث بالحياة ليطوي في ثنايا نفسه كل احتمالات الفكر والاحساس البشري ، ليبعث بها من جديد في حرارة وقوة ايمان تأخذ بالعقول والابصار

من الادب الروسي

المعطف ...

للكاتب الشهير ن . ف جوجل

١٨٠٩ — ١٨٥٢

نقلها كامل محمود حبيب

هو كاتب مغمور في أحد دواوين الحكومة لم يحبُهُ الله بميزة خاصة ، فهو قصير ، أحمر الشعر ، ضعيف البصر ، أصلع ، مغضن الوجنات ، ممتقع اللون . . . ذلك هو أكاكي أكاكيفتش الذي لا يعلم أحد متى عيّن في وظيفته ولا كيف كان ذلك . لقد كان ذلك منذ زمان حتى ليخيّل الى الناس ان هذا الرجل قد خلق — منذ ان كان — في هيئته وجلسته وعمله . وكان الحُجّاب والخدم ينظرون اليه كما ينظرون الى ذبابة تتخبط في الهواء فلا يعبأون به ، وكان الرؤساء يصبون عليه كثيراً من الظلم الهادىء في غير رفق وهو راض ، والمساعدون يلقون أمامهُ حزم الاوراق قائلين « حبّر هذه من فضلك ! » أو « هاك عملاً سهلاً ! » او . . . فينشر هو هذه الاوراق أمامهُ صامتاً لا يرفع عنها بصره ، ثم يندفع في عمله . وكان الشبان من زملائه يهزأون به ويتندّرون عليه ، ثم هم يتناولونه بالأقاصيص المضحكة ، يقصونها أمامه ومن خلفه في تبجّح ، فيقولون « ان صاحبة الدار العجوز تضربهُ ، وهو يحبها وسيتزوج منها . . . » ثم يسألونهُ عن يوم الزفاف ، ويقذفونهُ بقطع من الورق أو ببعض حبات الأرز وهو في مكانه صامت لا يتألم ولا يتململ ولا يغضب كأن الحديث لا يمسهُ . لم يكن هذا ولا غير هذا ليحول بين أكاكي وبين أن يندفع في عمله لا يتبلّد ولا يخطىء . وحين يجذبهُ أحد الماجنين من ذراعه لا يزيد على ان يقول « دعني وحيداً ! لماذا تريد انْ تزعجني ؟ » يقولها في رنات تبعث في النفس الالم والشفقة ، والعطف في وقت معاً

لم يكن أكاكي أكاكيفتش مثلاً أعلى من أمثلة الجد في العمل والدأب والنشاط فحسب ، بل كان عاشقاً لما يعمل . فهذه الأوراق التي تنفث في روح الكاتب السأم والملل كانت تفتح أمام عينيه دنيا . . . دنيا جميلة مفعمة باللذات . وكان حين يجلس الى عمله ، يرتسم على وجهه أثر السرور والنشوة ، فهو يبتسم حيناً ، وحيناً يغض عينيه ويحرّك شفتيه حتى يستطيع الناظر اليه أن يلمح بعض

ما يكتب . . . وقضى أكاكي عمره مصروراً بين أوراقه لا يتحول ولا يترقى ولا يكافأ وأراد أحد رؤسائه — ذات مرة — ان يرفعه فوق مرتبته ، فبعث اليه بوثائق يحيل فيها قلمه ، فاوتيك وأجهده السعل ، فردّها قائلاً « ألا تعطني بعض الوثائق لأحبرها . . . ؟ » فما كان له ان يحسن عملاً غير هذا . وهكذا كتب عليه ان يظل في عمله الاول ما عاش

وسيطر على أكاكي حبهُ لما يعمل فشغله عما عداه . فأهمل ملابسه : فلقد حال لون بذلته الخضراء الى آخر أربد زريّ ، و (زيقهُ) الضيق المنخفض تبدو خلالهُ رقبته طويلة رقيمة مضحكة ، وسترته قد تناثرت عليها أعواد القش وقطع الخيط هنا وهنا ، ثم هو لكثرة ما يضرب في الارض على غير هدى تسقط عليه القصلات الملقاة من النوافذ فلا يزيلها فتلتصق بقبعته وملابسه . وكان هو على غير ما انطبع عليه زملاؤه ، فهم كانوا يجدّون فيما يرون يلتمسون فيه لذة ومتعة ، أما هو فكان شارد البصر لا يثبتهُ على شيء . وأمام عينيه — وهو في طريقه — ورقة من أوراقه ما تبرح منشورة يريد ان يحبّرها فلا يحس انهُ في عرض الطريق الا حين يشعر بأنفاس حصان قوية تداعب وجههُ . وحين يخلو الى نفسه في حجرته ، يجلس الى طعامه فيلتهم الحساء وقطعة اللحم واخرى من البصل لا يذب عنها الذباب او البعوض او . . . مما يتهافت على مثل هذا الطعام القذر ، ثم هو لا يشغلهُ نوع الطعام ولا جودة الطعم ، ثم يقوم الى بعض وثائق يكتبها ، فان لم يجد فهو يكتب لنفسه وثيقة من نوع ما كتب في نهاره

وحين تنقشع غيوم سانت بطرسبرج وتبدو السماء زرقاء جميلة ، يخرج كل موظف يتناول عشاءه كلٌّ يتلق من سعته ، ويطلب كل عامل الاستجمام ، فينطلق الجميع يمهون الخطى يرجون بها فراغهم : فهذا الى ملعب ، وهذا الى الطرقات ، وهذا الى جماعة من صحابه يتنازلون الشايات أو يلعبون الورق او يملأون الدنيا ضجيجاً ، حين ينطلق كل هؤلاء الى التسلية والمرح تجد اكاكي اكاكيفتش جالساً في حجرته يحبّر ورقة ثم . . ثم يذهب الى فراشه وهو يقول « ترى ماذا اكتب غداً ؟ » تلك حياة رجل قنع بدريهمات ضئيلة تسد رمقه ثم هو لا يملك غيرها

***

وفي سانت بطرسبرج عدوٌّ لدود لكل رجل لا يبلغ دخله اربعمائة روبل في السنة ، ذلك هو الجليد المتساقط من الشمال . هذا ولو ان كثيراً من الشبان يقولون انهُ صحّي . وفي الساعة الثامنة صباحاً حين يهرع كل موظف الى عمله يكون البرد قارساً فينطلقون الى دواوينهم مهرولين وقد تلففوا في معاطفهم ، ثم هم يدفئون أرجلهم في حجرة البواب . أحسّ اكاكي اكاكيفتش — هذا الصباح — ان البرد ينصب انصباباً على كتفيه وظهره وهو يسرع الى عمله ، فتراءى لهُ ان يدا بلهى قد عملت في معطفه ، فراح يفحصهُ فوجد به ثقوباً عند الكتفين والظهر . لقد كان معطفه

هذا مدة سحرية وهزء بين رفاقه، فهذه ازيقة تنقص روبدّ روبدّ الا انه يجتزىء منه ليرقع ثقوباً هنا وهنا ترقيعاً مهملاً وفي غير دقة. وحين رأى اكاكي من معطفه ما رأى بدا له أن يعطيه الى بتروفتش الخياط وهو أعور ذميم الخلق يدر عليه عمله ارباحاً ضئيلة لانهُ يصلح سراويل كثير من نفراء الموظفين وصغارهم، وهو سكير عربيد، يفرط في السكر في ايام الآحاد والاعياد حتى يذهل عن نفسه

وانطلق اكاكي الى بتروفتش وهو يحدث نفسه « ترى كم يريد مني بتروفتش ؟ لن ادفع اكثر من روبلين . . . ! » لقد كان الباب مفتوحاً وزوجة بتروفتش تطهو سمكاً وقد انبعث الدخان فالمقد سحباً كثيفة في نواحي المطبخ، فأظلم المكان، ومرّ اكاكي في صمت فما شعرت به المرأة، وأزعج الرجل ان يرى بتروفتش مضطرباً حزيناً وهو كان يأمل ان يراه هادئاً مستعداً لينال منهُ مأربهُ. انهُ حين يكون كذلك يمعن في السهولة والتسامح فلا يطلب ثمناً، ثم هو ينحني امام زبائنه ثم يشكرهم رغم ما يبدو على وجه زوجته من غضب، ان كانت هناك. وأراد اكاكي ان يلخص على عقبيه غير ان بتروفتش كان قد سدد اليه نظره، فقال « عم مساء يا بتروفتش ؟ » قال « عم مساء، سيدي ! » قال « لقد أتيتُ . . . » واضطرب لسانه فما استطاع ان يتم حديثه، فقال بتروفتش « لنرى . . . » وأخذ يقلب المعطف بين يديه في امعان واكاكي يقول « لقد أتيتُ، يا بتروفتش . . . المعطف . . . القماش — كما ترى — متين . . . ان الاقذار التي تراكمت عليه تركتهُ يبدو بالياً . . . ولكنهُ متين . . . هو يحتاج عند الكتفين والظهر . . . » ما زال بتروفتش يفحص المعطف ويهزّ رأسه، ثم تناول حفة السعوط ينشق بعض ما فيها وقد الق المعطف جانباً، ونشر الخياط المعطف على عينيه مرة اخرى ثم الفاه لينشق ثانية قليلاً من السعوط وهو يقول « لقد بلي القماش تماماً . . . » واستشعر أكاكي شدة الصفعة في قلبه « بتروفتش، لماذا ؟ . . . انه ثقب صغير عند الكتف . . . لا إخالك تعجز عن أن تجد قطعة » . . . قال الآخر في هدوء « عندي قطع كثيرة غير ان القماش لا يحتمل الترقيع » قال « ولكنك تستطيع . . . ! » وأصرّ بتروفتش « ان هذا القماش تعصف به الريح الضعيفة اذا هبت عليه »

واستمعقهُ أكاكي « انك تستطيع، يا بتروفتش . . . » قال « مستحيل، لا يمكن . . . واذا جاء الشتاء فزقهُ قطعاً تغطي بها رجليك فأن الجوارب التي جاء بها الالمان الى بلادنا ليستلبونا من كثير من مالنا لا تدفىء، اما المعطف فلا بد أن تشتري آخر جديداً »

وظلت الكلمة الاخيرة « جديداً » تضطرب في عيني أكاكي وقد انمحى كل ما أمامهُ سوى حق السعوط وقد رسمت على غطائه صورة قائد عظيم، الصقت الى جانبها قطعة من الورق . . . وانطلق يهذي « جديد ؟ انا لا أملك شيئاً، واذا كان لا بد، فكم . . . » قال بتروفتش « مائة وخمسون . . . » ثم ضغط على شفتيه وحدق الى الرجل الذاهل امامهُ بصره ليستشف

اثر هذه الكلمات في نفسه . فصاح اكاكي في فزع « مائة روبل وخمسون ثمناً لمعطف ! » لقد صاح . . . صاح اكاكي المسكين لاول مرة في حياته، لقد خرج عن هدوئه حين افزعته الصدمة . فأجاب بيتروفتش « نعم ، ولا اقل من ذلك ، ونوع أرقى يكلفك مائتي روبل » قال الرجل « بيتروفتش ، ارجو ان تبذل جهدك فأعيش بمعطفي هذا زمناً . . . » قال « لافائدة احمل واد خرا » خرج اكاكي حزيناً وبيتروفتش جالس يبتسم لانه استطاع ان لا يزل عن رأيه

* * *

سار اكاكي مأخوذ اللب ، مشترك الخاطر، مختلج العقل ، يحدث نفسه « هذا جميل ، حقاً ، انا لم افكر في انهُ يكلفني . . . كيف ؟ أهذه هي النهاية ؟ عجباً ! » ثم سمت برهة واندفع « عجباً ! من يستطيع ان يفكر . . . ؟ اي حادث هذا ؟ » واختلط عليه الامر فسار الى داره . وبينا هو يضرب في الارض ذاهلاً انحط عليه دخانٌ مدخنة بيتٍ فقذف عليه مكتل من الجص من منزل يتهدم ، وماكان هو ليشعر بهذا لولا ان الشرطي زجر عليه بالفاظ قاسية ردت اليه بعض عقله ، فرأى ما حل به، فانطلق مسرعاً الى داره .هنا . . هنا في هذه الحجرة المظلمة استطاع ان يتبين على عينيه جلية حاله في هدوء ومنطق، فراح يحدث نفسه « انا لا استطيع ان اقنع بيتروفتش اليوم بما يجب ان يكون . انهُ . . . لعل زوجته قد قست عليه ، وسأذهب اليه يوم الاحد ، بعد مساء السبت الدابر ، سيكون ثملاً ، لا هو بالنائم ولا هو بالمستيقظ ، ثم هو يكون في حاجة الى دريهمات يشتري بها قدحاً من خمر ، وزوجتهُ تأبى عليه ذلك . . . » وفي يوم الاحد التالي انطلق اكاكي يرقب دار بيتروفتش عن كثب، وحين رأى زوجتهُ تغادر الدار، دلف هو الى بيتروفتش ليراه ثملاً غير انهُ استطاع ان يذكر ما يريد صاحبهُ « ألا تستطيع ؟ يجب ان تشتري آخر جديداً . . . » فوضع اكاكي في يد صاحبه بعض دريهمات ، فقال هذا « شكراً لك ياسيدي سأشرب نخب صحتك ، لا يزعجك امر المعطف . سأصنع لك معطفاً جديداً ، انت تستطيع ان تطمئن الى ذلك ، سأبذل جهدي . سيكون معطفك الجديد من أحدث طراز . . . »

وطرب أكاكي لما سمع ، ولكن أنّى له المال ؟ لقد ادخر اربعين روبلاً في سنوات ، فكيف يدفع ثمن المعطف وهو يحتاج الى سراويل جديدة وثلاثة قمصان ، والحذاء من ورائه يتبعهُ يريد منه ديناً قديماً . ماذا تفيد الدريهمات القليلة التي ادخرها ؟ وانتهى بعد حين الى امر : سيخفض من نفقاته مدى سنة .فألغى شاي المساء ، واستغنى عن الشمع، فاذا اضطر الى عمل في الليل انطلق الى صاحبة الدار يعمل ما يريد على ضوء مصباحها ، وهو يسير على اطراف اصابعه خشية ان يبلى الحذاء ؟ ثم هو يخلع ملابسهُ الداخلية عند النوم لتظل نظيفة فيدخر ماكان ينفقهُ في غسلها

وشق هذا على نفس الرجل — بادىء الامر — ثم خف رويداً رويداً ، واستطاع ان

يقضي بعض الليالي طاوياً ، ثم هو يبدو ميسراً طروباً كأن صديقاً برافقهُ يسري عنهُ بعض ما يؤلمهُ ... ذلك هو خيال المعطف الجديد . وترقرق ماء الحياة في وجهه لأنهُ اصبح يرمي الى غرض جميل في الحياة . . . ذلك هو المعطف الجديد وتوارى الشك والاضطراب من دنياه لتطوف برأسه الافكار السارة ، تبعث في نفسه النشوة والطرب ، وتلمع بها عيناه . وشغلتهُ الفكرة فأخطأ بعض مرة فيها يكتب، ولكنهُ كان يرتد الى خطئه يصلحهُ وهو يقول « اوه ...! » ثم هو يختلف الى بيتروفتش كل شهر مرة يحدثهُ حديث المعطف ... ومرت الايام سراعاً تحمل له على جناحيها بشرى . . . بشرى جميلة : لقد زاد راتبهُ عشرين روبلاً . أكان ما عمل الرئيس عن علم بما هو فيه ، أم هي المصادفة الجميلة ؟ ومهما يكن الامر من شيء ، فهو الآن يستطيع ان يستحث الخياط حين يدفع له شيئاً . . . وبعد اسبوعين احضر بيتروفيتش المعطف الجديد . ما أجمل ذلك الصباح الذي رأى فيه أكاكي معطفهُ الجديد ! لقد كان البرد لاذعاً ، والسحب تكاثف تنبيء بانقلاب عظيم . وأثبت بيتروفتش — بما صنع — انهُ خياط ماهر يستطيع ان يحيك فيجيد كما انهُ يستطيع ان يرتق فيحسن ، ثم ألقى المعطف على كتفي أكاكي وهو يبسم ابتسام الظافر ويقول « ما أجمل ، ما أجمل ! » وحين استقر المعطف على كتفي أكاكي دفع عشرين روبلاً وانطلق الى عمله يردد بصره في المعطف بين كل خطوتين وهو يبسم في قناعة ورضا لانهُ احس بالدفء والغبطة في وقت معاً ، اما بيتروفتش فقد تبعهُ عن كثب يستمتع بلذة النظر الى صنعته التي رفعتهُ من راتق مهين الى حائك ماهر . وبلغ أكاكي ديوانه فخلع المعطف وأعطاه للبواب وهو يوصيه ويحذره . وما لبث الخبر ان دوى بين زملائه فاندفعوا يهنئونهُ وهو يشكرهم ويبسم لما يقولون ، وتقاطروا عليه فبدت عليه الحيرة فما استطاع ان يقول شيئاً . واقتلهُ زميل قائلاً لا بأس ، اني ادعوكم الليلة الى منزلي احتفاء بمعطف أكاكي الجديد ، ويجب ان يكون هذا اليوم هو عيد ميلادي

***

وحاول أكاكي الامتناع فأراده اصحابه على ان يذعن ، وسُرَّ هو حين وجد الفرصة تسنح فيستطيع ان يرفل في معطفه الجديد هذا المساء بين زملائه . وحين احتوتهُ حجرته أخذ يلتهم طعامه وهو يقلب بصره بين معطفه الجديد ومعطفه القديم ويبسم . . . ثم مجلس — بعد هذا — الى اوراقه يحبرها ، ولكنهُ استلقى على فراشه ينتظر المساء . . . وحان الموعد فانطلق يقطع طرق الناحية التي يسكن فيها وهي ضيقة مظلمة قذرة ، وحين اقترب من دار صاحبه رأى الحياة تدب في العالم : فالطرقات واسعة تسطع في نواحيها الانوار ، والناس يجيئون ويذهبون في نشاط ، والعربات تنطلق هنا وهناك فراح يحدق في كل شيء في دهشة ، فهو لم يرَ شيئاً من

هذا منذ سنوات . والقى دار صاحبه جيئة تلمع منها الاضواء ، وولج الزدهة الواسعة المزدانة فاختلطت الاصوات في سمعه ، ورأى الخادم ينطلق من الحجرة المجاورة يحمل الاقداح الفارغة ، فعلم ان رفاقه قد تناولوا اول اقداح الشاي . واستطاع اكاكي — وقد اذهله ما رأى — ان يخلع معطفه ويضعه بهدوء على المشجب ، ثم هو يدلف الى الحجرة ليرى صحابه في ضجيجهم ومرحهم ، وليرى الشموع متأثرة حول المضلعب الورق فيقف مضطرباً... وأحس صاحب الدار بالزائر يدلف الى الحجرة فانطلق اليه يحييه ويلتمس له مكاناً فالتفت الجميع يرحبون به ، ثم ما لبثوا ان عكفوا على ورقهم وهو يتأمل فيما يصنعون . ومرت الساعات فسرى التعب في مفاصله ليتركه نائماً او كالنائم . وأراد ان يخرج فاضطره رفاقه ان ينتظر ليتناول قدحاً او قدحين من (الشمبانيا) فأدغن والزمن يمر . . . وخشي ان تغلظ عليه صاحبة الدار في اللوم فانسلّ من بين صحابه يطلب المعطف ، ثم انطلق . . .

لقد ابتدأت الحياة تنضح اجفانها في هذا الحي الصاخب وهو يسير ويئد الخطو لشوان ثم ما لبث ان هبط ذحية ماتت فيها الحياة فلا هو يرى ضوءاً ، ولا هو يرى انساناً . وبدا الظلام في عينيه اسود مظلماً وقد نشر الضباب جناحيه فزيد الظلام حلوكة . ورأى — وهو يعبر ميداناً هناك — بصيص نور مصباح الشرطي كأنهُ في اقصى الارض وهو على بضع خطوات منهُ . ورأى له — وقد اضطربت اعصابه وزلزلهُ الرعب — ان يغض عينيه وهو يعبر الميدان ، وحين فتحهما ليرى مكانه من نهاية الميدان وجد امامه رجالاً مقنعين يقتربون منهُ ففزع ، غير ان واحداً منهم انقضَّ عليه وهو يقول « هذا معطفي ! » وأراد ان يستصرخ الشرطي فكمم آخر باحدى يديه وهو يقول « أتستطيع ان تفعل ؟» وأحس اكاكي بالمعطف يسلب منهُ ، وشعر بركلة تدحرجهُ على الثلج في قسوة فتفقده صوابه وحين افاق استشعر لذع البرد في جسمه فأيقن انهُ قد فقد معطفهُ الى الابد فصاح ولكن صوتهُ المبحوح ما كان ليصل الى اذني الشرطي الواقف هناك ، فانطلق هو اليه مغيظاً يغلظ لهُ في القول على ان يسلب معطفه وهو نائم على بضع خطوات منهُ . واجابهُ الشرطيّ في هدوء « انا لم ارَ غير اثنين يمران قريباً منك ظننتهما بعض اصدقائك . وانا لا استطيع أن اساعدك فلتذهب في صباح الغد الى الضابط لعلهُ يستطيع ان يجد لك معطفك ! »

وبلغ اكاكي منزله مهموماً يضطرب وقد تشعث واغبرّ . ووقع نظر صاحبة الدار عليه ففزعت مما رأت ثم راحت تسألهُ فانطلق هو يحدثها حديث المعطف المفقود ، فنصحتهُ بأن يلجأ الى مفتش عرفتهُ لشيطاً يقظاً وهو يستطيع ما لا يستطيعه الشرطي والضابط معاً ، ووجد هو فيما قالت حلا لما اضطرب في خياله ، ولكنهُ قضى ليلته قلقاً يتقلب في فراشه ما يهدأ ولا يستقر . . . ثم يكرّ الى المفتش فألفاه ما يزال نائماً ، وعند الحادية عشرة وجده قد غادر المنزل ، وعند الغداء

اراد ان يرى المفتش فتح ، وكان صبره قد نفد فاندفع هائجاً يقول انهُ قد جاء من لدن أحد الدواوين الاميرية في امر خاص ولا بد ان يرى المفتش . . . هناك جلس يقص قصة المعطف المسلوب . وبدل ان يعنى المفتش بأمره راح يسألهُ « لماذا تأخرت في الرجوع الى دارك ؟ هل كان المنزل الذي قضيت فيه ليلتك سيء السمعة ؟ . . . » واضطرب اكاكي لما رأى من اهمال امره فخرج من لدن المفتش لايدري ماذا . . . ؟ لقد غاب عن عمله لأول مرة في حياته . وفي اليوم التالي بدا في معطفه القديم حزيناً ممتقع اللون ، زري الهيئة

ولست قصة المعطف المسلوب قلب كل زميل له في شدة وعنف ، وان كان بعضهم قد خرج عن انانيته حيناً فتندر عليه ثم اجمعوا امرهم على ان يخرجوا جميعاً لاكاكي عن بعض مالهم وهزّت الشفقة واحداً منهم فراح ينصح له ألاّ يركن الى الشرطة والاّ يطمئن الى وعودهم فهم لا يستطيعون شيئاً ، غير انهُ يستطيع أن يلتمس المعونة عند رجل عظيم سماه له ... عظيم من عظماء المدينة لا تستطيع أن تقول باسمه او ان تشير الى مركزه ، وكل ما تستطيع ان تقوله إنهُ عظيم درج في مناصب الدولة . إنهُ يستطيع ان يساعد المسكين غير أن منصبهُ ...

قد يظن الرجل ان مظهر العظمة هو العظمة ، فيريد الناس على احترامه ويضطر مرؤوسيه ان يحيوه في خضوع وذلة ثم هو لا يسمح لمظلوم ان يلج حجرته او ان يرفع اليهِ شكاته دون واسطة ليبدو في الاعين عظيماً وتسري العدوى فيمن هو اقل منهُ فيقلده فيصبح العمل صورة من عمل ، ويذهب الضعيف ضحية العظمة الكاذبة ... وهكذا اراد صاحبنا ان يبدو عظيماً فقسا وقسا ... القسوة الجاحة العمياء ، فساد عمله جوٌّ من القسوة لتلد النفاق والخداع في رؤوس مرؤوسيه وعملهم حين سكن الرعب في قلوبهم ، فهم اذا رأوه يدلف اليهم قاموا اليهِ في ذلة وخضوع يحيونهُ ويتملقونهُ ، فاذا غادرهم سلقوه بالسنة حداد . وهو . . . هو العظيم ما كان ليبدأ محدثه الاّ بالفاظ جافة نابية « كيف تجرؤ ؟ أتعلم من هو الذي تحدثه ؟ أتعرف تماماً من هو الرجل الذي تقف انت امامه ؟ » لقد كان طيب القلب رفيقاً يعطف على اصحابه ويحسن اليهم غير أن منصبه (العظيم) قد عصف بانسانيته وأربحيته . وهو بين زملائه رجل لا يعدو عن أن يكون رجلا ، وهو بين رؤسائه وبين يرتفعون عنهُ درجة واحدة ذليل خاضع لا يستطيع ان ينطق حرفاً . هنا وهنا فقط هو رجل ضعيف خامل يستثير الشفقة . والرحمة في القلوب الصلبة . لقد كانت نفسهُ تحدثهُ بأن يندفع في الحديث وان يفشي المجتمعات برفهُ عنها بعض ما يناله من عناء العمل ، ولكنهُ كان يخشى أن يغض من هيبته فيصمت ويستكين ويزوي في داره . لهذا ولهذا وحده بدا فيهِ الرجل الصعب الشديد

هذا هو الرجل العظيم في بلادنا ، ولمثل هذا الرجل الطلق اكاكي يطلب الانصاف والعدل .

لقد وجده في حجرته يجلس الى صديق قديم يحدثهُ ، فطلب الاذن بالمثول بين يديه لينغص امامه جملة حاله ، وحين علم العظيم طرفاً من امره، قال « من يكون هذا ؟ » قال الحاجب « هو موظف في احد دواوين الحكومة يا سيدي . » قال القائد العظيم « فلينتظر ، فانا لا اقابل احداً الآن » لقد كذب الرجل العظيم . فهذه هي الساعة التي يستطيع ان يقابل فيها هذا الرجل المسكين وغيره . ولبث المسكين طويلاً ينتظر . ودخل كاتم سر القائد العظيم يتأبط حزمةً من الورق ، فقال لهُ « ان كاتباً ينتظر هناك ، فدعهُ يدخل » وحين وقع بصره على أكاكي قال له في قسوة « ماذا تريد ؟ » وبدا اكاكي الجبان ، جباناً يرتعد فما استطاع ان ينشر القصة الا في صعوبة . . . وتمثلت الاهانة والاستهتار في عيني القائد العظيم تحملان اليه على لسان رجل ضعيف جاء يحمل شكاته ويستعينهُ على امر اهمهُ ، فقال في غلظة وجفاء « سيدي ، ألا تعلم الطريق الذي يجب ان تسلكهُ لتبلغ ما تريد ؟ لماذا جئت تنشر قضيتك امامي مباشرة ؟ الا تعلم ان شكايتك لا بد ان تقدم اولاً الى رئيس الكتبة ، ومنهُ الى رئيس القسم ، ومنهُ الى كاتم سري ، وفي النهاية تصل اليّ ؟ » واستطاع اكاكي ان يتمتم « لقد آثرت يا سيدي — ان اعرض عليك امري دونهم لانك وحدك تستطيع ان تعطف عليّ ، اما هؤلاء جميعاً فهم . . . هم اناس لا غناء فيهم . . . ! » قال العظيم في غيظ وحدة « ما ذا ؟ ما ذا تقول ؟ أمثل هذا أتيت؟ أنى لك هذه الخواطر ؟ أبهذه ، العين تنظرون ، انتم صغار الناس ، الى رؤسائكم » واستمر في ثورته « أتعلم من هو الذي يحدثك ؟ أتعرف تماماً الرجل الذي تقف أنت أمامه ؟ » ثم دق الارض برجله في شدة وكانت كلمات الرجل كانما تصفعهُ هنا وهنا فذهل فترع يكاد يهوي الى الارض لولا ان حملهُ البواب في ذهوله الى خارج الحجرة . وابتسم القائد العظيم لما احدثتهُ كلماته القاسية من اثر في نفس المسكين ، وابتسم مرة اخرى حين رأى سمات الرعب تبدو على وجه صاحبه الجالس الى جانبه . . . هذه هي العظمة في رأس العظيم الأحمق . . .

لقد سقطت كلمات العظيم على اكاكي المسكين رجوماً رجوماً تفقده رشده ، ولكنهُ استطاع، بعد لأي ، ان ينكفئ في طريقه الى الدار مستنداً الى جدار والرياح تتناوحهُ . . . رياح سانت بطرسبرج الباردة ، فما بلغ الدار الا وقد انسابهُ انصب وآذاه البرد فانطرح على فراشه لا يعي . . . واشتدت وطأة المرض فانقلب حمى راجفة تعرك الرجل عركاً ، وجوّ سانت بطرسبرج الفارس المتقلب يقويها ، والذين الى جانبه يفقدون الأمل رويداً رويداً . وأسرع المريض المسكين الى نهايته وهو يهذي « المعطف . . . سيدي القائد . . . يتروفتش . . . المعطف . . . ! » ثم تنفس النفس الاخير . مات الرجل لا يملك شيئاً ولا يجد من يحتوعليه سوى صاحبة الدار العجوز . . .

لقد انطوت صفحة أكاكي أكاكيفتش دون ان يشعر به انسان في سانت بطرسبرج

ومضت أربعة ايام وجاء الحاجب يريد أكاكي لأن الرئيس قد أصرّ على عودته ، ولكنهُ ارتد الى رئيسه بخبر موت الرجل . . . هكذا علم زملاؤه إن واحداً منهم قد مات . . .

***

من ذا يستطيع ان يصدق أن هذه لم تكن نهاية أكاكي أكاكيفتش ، وانهُ قد قدّر لهُ ان يبلغ أوج الشهرة بعد موته ؟ لقد برزت روحه الوادعة عاصفة تريد ان تنتقم ، وطار الخبر : ان شبحاً يتربص بالناس عند قنطرة كالنكن ، ينتزع منهم معاطفهم ، لا يفرق بين كبير وصغير . لقد رأى احد زملاء أكاكي في هذا الشبح أكاكي نفسه ، فاضطرب وذعر وفرّ هارباً والشبح يتهدده . واضطربت المدينة جميعاً ، فأصرّ الشرطة على أن يقبضوا على الشبح ويعاقبوه ليكون مُثلة وعظة و . . . واستطاع شرطي أن يلتقط الشبح وهو يستلب معطفاً من صاحبه ، وهو حين فعل صاح ينادي بعض رفاقه ، فأدركه شرطيان ليعاونانه ، وحين أمسكا به أطلقهُ الاول ليتشق بعض السعوط . ولكن الشبح استطاع ان ينثر ما في حق السعوط ، في أعين الثلاثة وانطلق هو . . . انطلق ليبث الرعب في قلوب الناس . . .

أما الرجل العظيم . . العظيم الذي فاعل أكاكي فقد أحسّ بالشفقة تستيقظ في قلبه بعد ان خرج أكاكي من لدنه ، ولكن منصبه أراده على ان يكتم بعض ما يختلج في فؤاده ثم شعر بالندم يعز في قلبه فأرسل الى أكاكي ، وارتد الرسول ينبئهُ بموت الرجل فساورته الافكار السوداء وأراد هو ان يدفعها عن نفسه فانطلق الى دار صديق ليخرج عن رزانته عمراً من عمره . لقد كانت ليلة جميلة وأصدقاء ظرفاء ، ذاق فيها حلاوة السمر ، وامعن بلذة الشراب والطعام . . . ثم خرج في لشوته يريد صديقه ايفان ايفانوفا ليستمتع منها بلذة اخرى ، وليتذوق حلاوة ثانية ، فهو كان يحبوها بكثير من فرائه ومن قلبه رغم انهُ كان أبًا وزوجاً كاحسن ما يكون الاب والزوج . وحين اطمأن العظيم في مركبته تدثر بمعطفه الثمين وجلس منتشياً طروباً والمركبة تسير . . . ومضت فترة احسّ بعدها الرجل ان يداً تجذبهُ في عنف ، فنظر فرأى الكاتب المسكين في معطفه البالي . . . انهُ هو ، هو اكاكي اكاكيفتش . . . ! فزلزل الرجل العظيم وامتقع لونه ، ورنّ في اذنيه صوت مرعب «هاها ، لقد استطعت أن اعثر عليك في النهاية ، أنه معطفك الذي اريد ! لقد ابيت ان تساعدني ، فالآن تخرج لي عن معطفك عن يد » لقد كان القائد عظيماً قاسياً يعتز بقوته وصلابة عضلاته ، أما الآن فقد ارتجف وسيطر عليه العجز والخور فخلع معطفه وهو يقول للسائق ، « الى الدار ، الى الدار ، اسرع ! » . ودخل القائد العظيم عن نفسه فراح يهذي « كيف تجرؤ ؟ أتعلم من هو الذي يحدثك ؟ أتعرف تماماً الرجل الذي تقف أنت امامه ؟ » واهله يعجبون مما يسمعون . أما الشبح فقد اختفى فما عاد يستلب الناس من معاطفهم

فوست العصرية

او يوم في سعة الشيطان

لرستوزه عبد الغني البنبي

شخصية فوست من الشخصيات الحية التي عالجها المفكرون في غير عصر واحد فالشاعر الانجليزي مارلو Marlowe منافس شكسبير كتب في القرن السادس عشر مأساة فوست فلبثت حيناً من الدهر تتلى على الناس حتى نشأ الشاعر الالماني العظيم (جيتي) مأساته فجرّت عليها ذيل النسيان. وليست شخصية فوست وليدة الخيال من خلق شاعر بذاته ولكنها شخصية انسان ولد وعاش في القرن السادس عشر وما هو الا جان فوست الذي تلقى دروسه في جامعة هيدلبرج ثم ولع بعلوم السحر فتعلمها وعمل بها (ومع اعتراقي بأن المأساة التي وضعها جيتي الفيلسوف قد كفل لها الخلود وان اليد التي اسداها المترجم الفاضل الدكتور محمد عوض محمد للناطقين بالضاد تذكر فتشكر وتمجد ولا تفند الا ان فيها تعقيداً وابهاماً وتفككاً وانقساماً وأدباً جافاً ينفر القارىء ولا يستهويه) ولكن الصورة الجديدة التي يقدمها في لباقة الكاتب الفرنسي المعاصر جان بتيجنان في ثوب قصصي أخاذ مع تصوير قوي خلاب وأدب عذب مساغ يجعل في القصة — بله ما حوت من موضوع فلسفي جدير بالدرس قصصاً عذباً محبباً الى النفس وجمالاً فنياً يستهوي الحس ويكفل للقارىء لذة ليس وراءها لذة ومتاعاً ليس يشبهه متاع

وليس فوست الا الانسان الذي يجد ويبحث في ظلمات هذا الكون يؤمه الشك ويغشى في أمره الفلق لانه عاجز عن ان يكشف الغطاء عن سر حظه المقسوم، والذي ان حاولت ان تضله الانانية أو يضنيه الكبرياء عصمه الحب وحماه الايمان

برنس في صحبة الشيطان [1]

— ١ —

انتصف الليل او كاد . والفيلسوف (فاوست) لم يزل يعلو في اسفاره على نور مصباح ضئيل وكان من دأبه ألاّ يجنح الى النوم قبلما ينصرم من عمر الليل نصفهُ . وبغتة طرق الباب طارق . فكف الفيلسوف عن القراءة ونبث برهة ينظر ناحية الباب ... ثم نهض واقفاً ، ومشى متثاقلاً ولما فتح الباب صاح صيحة دَهَش (الغرابت ! ماذا حدث يا ابنتي حتى طرقت مسكني في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟)

أجابت الفتاة بصوت منطوق (آه أيها السيد . أبي . ملاذي الوحيد تحتضر . ليس لنا أمل الاّ فيك . اذهب معي بربك ورد اليها الحياة) . وبكت الفتاة في حرقة فأخذت الشيخ عليها رقة ورحمة ... لقد حصد الطاعون الانس كما تحصد المناجل سنابل القمح أسر الفيلسوف الى نفسه (مسكينة الغرابت . انها كبيرة الايمان بعلمي . فأنّى لي ان اصارحها بأن رأس مالي العلمي وهمي مزعوم وانني كأجهل مخلوق نفخَتهُ الغابة

(عاجز وابن عاجز وذو لسب في العاجزين عريق)

وألحت الفتاة على الشيخ وقد تباطأ وهوت على يديه فقبلتهما .. (لسنا ذوي سعة أيها السيد ولكننا نستطيع ان ندفع لك ثمن الدواء)

ومدت اليه يدها بدراهم معدودات كانت الحصالة الباقية من مال أبيها الفقير

فقال لها الشيخ (بل احفظي عليها دراهمك فليس لدوائي ثمن وما أنا بمتخذ عليه أجراً)

وعاد فاوست المريضة في كوخها وقد حمل معهُ قنينة دواء ... وتقدم منها فرفع رأسها بيد ترعشها الشيخوخة والخوف . وأدنى من شفتيها كأس الدواء ، وفتحت المسكينة عينيها في شق ولما أبصرت الفيلسوف تجرعت الكأس التي قدمها اليها في ثقة وأمل

ومضت دقائق . وفاوست يرمق المرأة في صمت وقلب الغرابت يعلو ويهبط وبغتة استوت الام في فراشها الاّ قليلاً وارسلت أنة عالية تمزق لها قلب ابنتها ودل اتساع عينها والتواء ثغرها على ما كانت تعانيه من ألم . ومشت الرعدة في جسمها فسكتت لحظة . ثم هوت رأسها على وسادتها في عنف . وأسلمت الروح ! . وطفقت الفتاة البتينة تصرخ كأن أفعى لدغتها . وتراجع فاوست في ذعر . ورمى بالقنينة وانسلّ من المكان عجلاً ، كمن أتى أمراً إدّا !

ولما آب الى كنه ارتمى على مقعده يلهث من التعب .. وتمتم قائلاً

(لو رد دوائي اليها الحياة لما استطعت أن أقول لماذا ... وقد قضى عليها وما أدري السبب

(١) مقتبسة عن رواية فاوست التي وضعها الكاتب الفرنسي المعاصر جان بتيتجان Petithugenin

وهكذا ظهر لي أن ما كُنتُ أدعيه من علم باطل لا محالة. فيالي من أحمق! لقد أضعت شبابي بين دفات هذه الكتب. وكان في مقدوري ان اتذوق لذائذ الحياة وتمتعها. وضحك الفيلسوف ضحكة مرة

(أهذه دنياي؟ تل من ورق! وجزمة من أقلام! وقنان من حبر! وتنان من سم!

بدلاً من أن انشد الحقيقة في الطبيعة نفسها. في مروج خضراء الجلباب، ورياض مزدهرات رحاب، وجنات من نخيل واعناب، وأشهد الحيال في الشتاء مشتعلات الرؤوس، وأنعم بالشموس وليدات يدللن الشجر، وعذراوات يغازلن الضحى، وبالاطيار غريدات على اغصان الشجر، واخطر في هدأة الليل على شطآن النهر، أشهدها راقصات على انغام القمر، وأنعم في طلاقة ورُحب بنسائم الربيع العلائل، محملات بأريج متضوع، انفاساً زكية تصاعدت من القلوب الشاعرة العاشقة فاستضأت الأزهار واخضرت زماناً، حتى اذا تفتحت أكمامها نشرتها في الربى عطراً. . . . وبدلاً من أن أنشدها في الانسان. في صداقة الرجل. في حب المرأة، أخدع نفسي فأضلها بين هذه الأسفار التي كتبها أناس حمقى ليقرأها أناس أشد حمقاً

فإلى النار! إلى النار! قد كنتُ أبحث في سطورك لعلي أكشف سراً وها هو ذا السر

(لا يدفىء الغرور الا نار مستعرة ولا يطفىء غلة القلب الا كأس حب)

— ٢ —

ملأ الطاعون المقابر بضحاياه. وفي الليل الغامض كنتَ ترى شيئاً غامضاً كالليل. يروح ويغدو. ويقبل ويدبر. كان طويلاً أقرب شيء الى النحول. محدودباً قليلاً. ولكن أكان هذا طيفاً؟ أم كان هذا بشراً؟. سمع وقشنيز يقول:

(إليَّ. إليَّ أيتها الأنفس المتمردة التي لم يحامرك الندم ولا استهواك المتاب، قبل أن تجنح شمس الحياة الى الإياب. . سيكون الليلة عيد في الجحيم). ومال الى جدث مفتوح وقال:

(هو تذا يا عازر أيها الشيخ البخيل. لقد عشت حريصاً على درهمك حرص الجبان على دمه. فهل عصمتك كنوزك من الفناء. ألم تمت كأحقر شحاذ؟) أجابتهُ صيحة وسمع أنيناً يتصاعد من قبل الجدث. واتجه الشيطان شطر قبر آخر

(وأنت أيها العالم (شويلر) ما الذي جنيتهُ من خدمة الحق والفضيلة والنور؟ حاولت نصف قرن أن تنجو من الخطيئة وان تعيش وفق نصوص الكتاب ولكنني باغتك على حين غرة منك فلحقك الاثم فسد ما فتك الطاعون بامرأتك وفلذات كبدك شككت في عدل الله. ها. . ها. . ها! فرصة ذهبية لم أدعها تفلت مني. خدعتك. أثرتك وملأتك غيظاً ويأساً. لا تجادل. . . والى الجحيم! »

وتسمع الشيطان فلم يسمع شيئاً ولكنهُ رفع رأسه قلقاً إذ خيل اليه أنهُ يرى طاووس

الملائكة يصوّب اليه سهماً من نور وان ارتج تحمل اليه صوتاً يقول (ليست هذه النفس لك يا إبليس ولا أنفس كثيرة مثلها وليس في طوقك يا غرور ان تحكم عليها فقد قضى الله فيها بالقسط فنجت من السعير) . قال إبليس : (إنك تحاول إساءة سلطتك ، وتحاول مغالبتي بلاغتك لقد مات الاستاذ (شويلز) دون توبة فهو لي)

— لا . بل لك الأرواح التي ترامى أسحابها في احضانك ، واشتروا ضلالك رضاة غير مقتسرين وليست تلك التي باغتها سكرى من اليأس فأسقطتها في حبائلك —

— لا تذد عمن أغويت من البشر . فما كانوا بناجين لولا فضولك

— كلاّ . فما لك من حق على رجل لم تلوث روحه أدران الشرك ، ولا شابت ايمانه ذبذبة الافك لئن استحوذت على نفسه الامارة بالسوء . فلقد ظل قلبه في اعتصامه بالله يسبح لهُ

— ذرني أفعل وسترى

— لك هذا ما دمت حيّاً . هل تعرف الدكتور فاوست ؟

— الشيخ المتهدم الذي أضاع زهرة شبابه بين القرطاس والقلم ، باحثاً عن الحقيقة ؟

أكبر ظني أنهُ قد هيّأ نفسه لطاعتي ! لكن اسمع فسوف ما يشتري فاوست الحياة التي اصطفيها لهُ تكون روحه ملكاً لي

— ليكن . اذهب وغامر !

— ٣ —

لقي إبليس فاوست فحياه وتحدث اليه حديثاً كلهُ منطق وكلهُ إغراء وفاوست بين هازىء مرّة وغاضب أخرى . ولما رأى إعراض الفيلسوف عنهُ وتبرمه بحديثه لجأ الى وسيلة اخرى فأخرج من جيبه مرآة سحرية وقدمها لهُ وهو يقول انظر ! وانحنى فاوست وكم كانت دهشته حين رأى نفسه شابّاً في سن العشرين بفيض صحة وجمالاً ورأى خلف المرآة فتاة شقراء تبتسم لهُ في سذاجة وطُهر فرفع بصره عن المرآة وصاح ساخطاً

— كفى أخيلة وأباطيل . اما ان تريني حقائق ملموسة واما ان تدعني استريح

— اتدعوني رجل اخيلة واباطيل . اني امنحك كل ما في الحياة من لذة ومتاع

— حذار ! فانا لا ألتذ اللذة وحدها . اريد ان اشعر بكل شيء وان اجمع العالم كله في صدري مسراته وأحزانهُ ، اريد اللذة يمازجها العمل ، والالم يصاحبهُ الامل ، ولكني لا أطيق الضجر والملل !

— فلسفة خاطئة . تزعم انك تمقت الخيال وها تتذا تنشده . فأينا رجل اخيلة ؟ مالك والعالم . فكّر في نفسك . الشباب . الجمال . الغنى . المجد . اني أهبك هذا كله

— يخيّل اليّ انك تبيعني هذا كسلعة فكم تبغي ثمناً لها ؟

— تعويض عادل لا أغبنك فيه ولا تغبني . اكون خادمك وعذيرك في الحياة الأولى وتكون انت خادمي وعذيري في الحياة الاخرى

وأخرج ابليس عقداً مسطوراً ودعا فاوست لامضائه وتردد الفيلسوف اول الامر فقال لهُ الشيطان وهو باسم

— لاشيء . سأرد اليك شبابك النفيس دون شرط ولتكون هذه تجربة تبدأ الساعة وتنتهي في مثل هذه الساعة من غدٍ فاذا انقضت فترة العقد عُدتَ كما انت

واذا راقتك التجربة ورغبت في شباب مقيم حق عليك ان تمضي هنا بدمك

وسقاه شراباً سرى في جسمه مشتعلاً كالنار وفي لمحة انمحت من حياة الفيلسوف اربعون حجة فعاد ابن عشرين ربيعاً

— ٤ —

رأى فاوست وهو عن كثب من الكنيسة فتاة عذراء في جمال البدر . وسذاجة الطفل فأحبها . كانت تشبه الزابت وكانت تشبه في الوقت نفسه ذلك الطيف الذي رآه خلف مرآة الشيطان غير ان الفتاة الحية لم تأبه لهُ ولم تكترث وكانت تمشي في طريقها على استحياء . لاتكلم الناس ولا ترنو اليهم . وشكا فاوست امره الى ابليس فاصطنع لهُ امرأة عجوزاً تعبث بعقل الفتاة فالتقت بها عن قصد . وتملقها وتحدثت اليها عن آمال الشباب واحلامه . وعن فاوست الفاتن الجميل . ووصفت لها قامته ، ورشاقته ، ورخامة صوته ، وصفاء ابتسامته ، ودعتها لصداقته وهيأت لهما لقاء في مكان شاغر خلف الجيل . واستسلمت مرغريت لفتانا روحاً وجسداً فعبث بها ، وحضرها الشيطان في ليلة مقمرة فاستشهد عفافها . . .

وارتاب فالنتين في سلوك اخته فبات يحرسها بعين لاتغمض ، وخشيت مرغريت عبة عملها فلبثت في الدار ثمانية ايام وسبع ليال . وتحرّق فاوست شوقاً اليها وكاشف الشيطان بشوقه فاصطحبهُ الى دارها . ومرا بالدار فتواريا خلف دوحة مورقة وطفق الشيطان يغني في لهفة مغرية مسموعة . وسمعهُ فالنتين فلم يطق صبراً فخرج الى الخلاء شاهراً سيفه يلعن ويسب ويهدد ويتوعد ولمحهُ ابليس فاختفى ووجد فاوست نفسه امام خصم لاقبل لهُ على اتقائه ولاطوق لهُ على الفرار منهُ . فتصدى لهُ وأخذ يذود عن نفسه . وباغت الشيطان فالنتين بطعنة في ظهره سقط على أثرها يتخبط في دمه وذعر فاوست وجد في مكانه جمود الصنم في هيكله وابليس يصيح في السُّبُل . القاتل ! القاتل ! وافاق فاوست من ذهوله فأطلق لساقيه الريح واستتر في بُردة الليل ! . وقضت مرغريت ليلة مشئومة لم يشاركها في حزنها احد

لقد ماتت امها وقتل اخوها وطاشلها واختفى عشيقها ولا أمل لها في مآبه وتبرأت منها عمتها

لانها عدتها مسئولة عن مقتل اخيها . وخبا نور الحب في قلبها فهوت به في ظلمة اليوم ولم يبق لها بعد محبوى الليل ، وقبلات الحب ، سوى الاثم والفزع ، والزراية

وكانت الفتاة قد حملت من عاشقها سفاحاً وليس لها بعد موت قاتلين عائل . فاضطرت ان تترك البيت الذي تربت فيه ، وامست بالحياة في ظلال التشرف ، وراحت تلتمس قوتها من عرق الجبين ، ولكن الناس كانوا في مرية منها فلم يمدوا اليها يداً برّ ، ولا مسحوا عن عينها دمعة ذل

وليلة باتت طاوية وطفلها ، خوت احشاؤها وجف ثدياها . والليل مقرور ، والسماء مكفهرة وليس لها مأوى تلوذ به ، ولا غطاء . حاولت ان تلج الدور فأوصدت دونها الابواب التي لم توصد في وجوه الهررة والكلاب ، ولم يقبل احد منها متاباً . . . حتى الكنيسة طردت منها ولم تجد فيها عاصماً . . . . !

حملت طفلها وانتبذت به حقل قمح حسباناً منها ان سنابله قد تسترها من القرة . . ولكن الرياح عصفت بشدة فلم تجد بدًّا من التحول الى المدينة وما كادت تبعد بضع خطى عن الحقل حتى شعرت يد تضغط على كتفها في عُنف فرفعت طرفها في فرق فاذا بعض الحرس ينظرون اليها في شزر وحنق ولما قلبوا الطفل الذي تحمله ذاهلة صاحوا يا قاتلة !

صرخت رباه ! لقد قتله البرد

واخذت تبكي وتصيح والحرس تمسكون بخناقها يجذبونها الى المحفر

ووجهت اليها تهمة قتل طفلها بتعريضه للبرد القارص . فلم تنبأ دفاعاً عن نفسها لانها كانت زاهدة في الحياة وثبتت ادانتها فحكم عليها بالموت حرقاً

وتجمعت أمة من الناس يشهدون مصرع هذه الام المنبوذة التي قتلت طفلها بلا رحمة

وأخذوا يهددونها ويلعنونها ويودون لو تعجلوا الحكم فرزقوها بأيديهم قبل ان تأكلها النار

وكان فاوست قد هبط المدينة بعد ان احتبق زماناً ونما اليه ان مرغريت ستحرق . فطار له واقسم ان ينقذها او يكون معها من الهالكين — وأسرع فاوست فألفى الناس قد خطوا الارض كان اليوم يوم حشر ، ورأى النار تحدق بعشيقته فاندفع يشق طريقه اليها غير عابىء ولا وجل وصاح (مرغريت !) ولفظ اليه الناس ساخرين (شيخ مجنون !) وصاحت به مرغريت (مكانك يا أبتاه !)وردد فاوست قولها في عجب (مكانك يا ابتاه ؟) كيف ألم تعرفني ؟

ونظر الى نفسه فراعتهُ لحيته البيضاء المتدلية ويداه اللتان توارى منها الدم

فصرخ كالمجنون وقد قضحهُ الجزع

— إبليس ! إبليس ! أين ذهبت بشبابي ؟ وابتسم اللعين في خبث وكان منهُ عن ام

— كانت مدة العقد يوماً وقد انتهى

على ذكر التعداد الاخير :

سكان مصر

من أقدم العصور الى ما بعد الفتح الاسلامي[1]

لعلّ المصريين أقدم الشعوب عهداً بالاحصاء او التعداد . ففي فجر التاريخ ، كان الملك مما يقوم باحصاء السكان في مملكته مرة كل سنتين ثم مرة كلّ سنة (برستد) وهو عمل كان يقتضيه تنظيم مصر السياسي الدقيق حينئذٍ . وفي ايام امنمحت الاول في سنة ٢٠٠٠ ق . م نجد اشارات الى الاحصاء وكذلك في القرن السادس قبل الميلاد . وكان الرومان يقومون بعمل التعداد مرة كل اربع عشرة سنة في اثناء حكمهم . وفي ايام الرومان ثم العرب ثم العثمانيين كانت هناك قوائم للمكلفين يمكن ان تعتبر بمثابة احصاء

ولكن من المتعذر معرفة عدد السكان في مصر في تلك العصور لان ما وصل الينا من وثائق التعداد لا ينقع غلة ، ولكننا نجد في آثار بعض الكتاب الفراعنة واليونان والرومان والعرب ، ارقاماً يمكن ان نحسب قريبة من الحقيقة

كان عدد المصريين في سنة ١٥٠٠ ق . م يقدر بثلاثة ملايين . ولكن الاستاذ مصطفى عامر يذهب في رسالة لهُ عن مشكلة السكان في مصر الى ان القطر المصري كان يقيم اود ١٨ مليوناً من السكان في الالف الاولى ق . م وقد بنى رأيهُ هذا على زيادة خصب الارض حينئذٍ في الدلتا ، التي كانت مساحتها الصالحة للزراعة اكبر جدًّا مما هي الآن قبل تكوُّن البحيرات المالحة والبطائح والصحاري فيها

ولكن ليس عندنا في الاسانيد القديمة ما يؤيد هذا الرقم . وقد كتب المؤرخ ديودورس سيكولوس في القرن الاول قبل المسيح فقال ان سكان مصر في عهد الفراعنة كانوا سبعة ملايين وفي العصر البطليموسي (وهو عصره) ثلاثة ملايين

وفي سنة ١٨٨٦ ظهر كتاب ليوليوس بلوخ Beloch وذهب فيهِ الى ان عدد سكان

---

(١) ملخص من كتاب الدكتور وندل كابلند "The Population Problem in Egypt" راجع رسمه في مكتبة المقتطف

مصر عند وفاة اغسطس قيصر في سنة ١٤ ب.م. كان خمسة ملايين وان مساحتها كانت ٢٨ الف كيلومتر مربع ومتوسط عدد السكان في الكيلومتر المربّع ١٧٩ نفساً او ٤٦٥ في الميل المربع. وقدر المؤرخ بدّج عدد سكان مصر في عهد فسبسيانوس (٦٩ ب.م.) بثمانية ملايين وذلك اعتماداً على قوائم المكلفين (اي دافعي الضرائب) وأورد المؤرخ يوسيفوس قولاً للملك اجريبا في القرن الاول الميلادي يستفاد منهُ ان سكان مصر كانوا سبعة ملايين ونصف مليون ماعدا سكان الاسكندرية وان حدود مصر كانت تمتدُّ الى الاحباش وبلاد العرب السعيدة ومناخة للهند

وفي القرن السابع الميلادي فتح العرب مصر وقد ذكر المؤرخ لاين پول في كتابه « تاريخ مصر في القرون المتوسطة » ان مؤرخي العرب اوردوا ان عمرو بن العاص جمع في سنة ٦٤٤م مال جزية قدرهُ ثمانية ملايين دينار من الذكور البالغين من اهل الذمة. فاذا حسبنا انهُ جمع دينارين من كل ذكر وهو المبلغ المألوف في تلك الايام كان عدد الذكور الذين يزيد عمرهم على ١٠ سنوات اربعة ملايين واذا فرضنا ان هذا العدد كان ٣٠ في المائة من عدد السكان — وهذه هي النسبة التي نستخلص من تعداد سنة ١٩٢٧ — كان عدد سكان مصر غير المسلمين في سنة ٦٤٤م ثلاثة عشر مليوناً وثلاثمائة الف وهو قريب من عدد السكان في هذا العصر. ولكن شيئاً من الريب يتطرق الى هذا التقدير. لان المؤرخ الذي أورد ما تقدّم أورد كذلك ان مال الخراج كان ثلاثة ملايين دينار، بواقع دينارين للفدان الواحد. اي ان عدد الفدادين المزروعة ما عدا المدن الكبيرة والاراضي التي يملكها عدد يسير من المسلمين كان ١٥٠٠٠٠٠ فدان. واذا قطن عدد كبير من الناس يزيد على ١٣ مليوناً مساحة من الارض لا تزيد على ١٥٠٠٠٠٠ فدان كان ازدحامهم أربعة أضعاف او خمسة أضعاف ما هو الآن في مصر وهو ما لا يعقل

وفي القرن التاسع الميلادي جاء في كتابات بعض المؤرخين العرب ذكر خراج يبلغ ٤٤٨٥٧٤٠٠٠ دينار أي ان عدد الافدنة التي كانت مزروعة بلغ ٢٤٢٨٤٠٠٠ فدان. فاذا فرضنا ان ازدحام السكان في هذه الاراضي كان كمتوسط ازدحامهم الآن في المناطق الزراعية كان عدد سكان مصر غير المسلمين في القرن التاسع الميلادي ٥٤٣٩٠٤٠٠٠ ويجب ان يضاف الى هذا الرقم عدد سكان الاسكندرية والفسطاط وكان معظم السكان المسلمين يقطنونها حينئذٍ. أما الاسكندرية فكان عدد سكانها في القرن الثامن خمسمائة الف على ما روي وأما الفسطاط التي أسست في القرن السابع فأصبحت بحسب قول المؤرخ ملن في مقدمة المدن الاسلامية. واذن يصحُّ القول بأن سكان مصر في القرن التاسع كانوا يتفاوتون بين خمسة ملايين وستة ملايين وهو رقم يتفق مع تقدير بلوخ لعدد السكان فيها في القرن الاول الميلادي. ومما يرتاب فيه الباحثون المعاصرون ان سكان مصر أربوا في العصور القديمة والمتوسطة على سبعة ملايين او ثمانية

حديقة المقتطف

بيير لوتي

وناحية من ذكرياته

ليوسف العيني

لمن

لمصر أبو ريشة

الشمس السوداء

لفؤاد سليمان

بيير لوتي

وناحية من ذكرياته

في أوائل الجيل الماضي نشطت في فرنسا نزعة الى الاصلاح والتجديد، فكان لها أثر متين لا يمحوه الدهر ولا يأتي عليه النسيان. ومن نتائج ذلك الأثر البليغ ظهور المذهب الوجداني الذي طوّق جيد الادب العالمي بقلائد الفن والنبوغ والعبقرية

ولم تكد شمس ذاك الجيل تدرج من خدرها الأزلي وتنشر الحياة والأنظمة والقوانين بفيض من التطور والتجديد، حتى استيقظ نفر من هؤلاء المجددين واتجه نحو الشرق منقباً عن الجمال الكامن وراء أكمته وجباله، والسحر المهوّم بين أوديته ووهاده

وكان بين هؤلاء المجددين رجل حساس تغلّبت عليه سآمته وإحساساته، فجاء الشرق ليعالج تحت ظلاله الظليلة تلك السآمة الخرساء.. هذا الرجل هو — بيير لوتي — الكاتب الفرنسي الأنيق الذي عشق الشرق وأفسح له مجالاً رحباً في كتاباته وأقواله

وقف — لوتي — في ظلال الشرق تكشف له خياله التامي الخصيب عن ذلك الجمال المتجسم في كل مرتبة من مراتب الطبيعة. ولذلك أكثر من وصف السماء الزرقاء، ومطلع الفجر، ومغيب الشمس، ومن البلابل الشاردة بين الحقول والبطاح، والجداول الهائمة في الأودية والوهاد، والأنهر الجارية الى أعماق البحار، والأنين الشجي الموجع المؤلم على أوتار الرياح والعواصف

إن في الشرق جمالاً علوياً كجمال المآسي الخالدة.. ومن الروعة والجلال ان يتمثل ذلك الجمال في روح — لوتي — فيجعله يتمم اسم الشرق في الحياة وعند الممات !!

***

وبعد... لقد عرف الشرق نفر من أدباء الغرب وكتّابه، ولكن هؤلاء

الكتّاب ، عمدوا ان صوّروا أخلاقهُ وعاداته وستاريهُ صورةً متماثلة لا أثر للفن و لحقيقة فيها . فسخروا من جماله ما استطاعوا إما عن تعصّب شائن ، وإما عن تجاهل لهم منهُ فائدة معنويّة . أما — بيير لوتي — فقد خالف هؤلاء جميعهم اذ تغلغل في روح الشرق ودرس شعوره وعواطفه ثم تحدّث عنهُ حديثاً مترعاً بخبرة الحبّ والصدق والاخلاص

ولأجل ذلك أعدّوا لوتي صديقاً مخلصاً للشرق . .

والذي نعجب لهُ كثيراً هو درسهُ للحياة الشرقية . حتى لقد يُخيّل إلينا ان الرجل أمعن في الاستيلاء على عناصر تلك الحياة بما في هذا من جهدٍ وعناء قبل أن يُقدم على تصويرها ذاك التصوير الساحر الذي يخلبُ القلوب

فان من يقرأ كتابه (موت آلس الوجود) يشعر بحقيقة ما أكتب قال في فصلٍ من فصول الكتاب :

« بين الفتيان المصريين من يفتُكُ بذكائه ونبوغه ، عرفت ذلك بعد ما وطأت قدماي تربة مصر الفوّاحة بالشذا والعبير . ولأجل هذا أريدُ أن أخاطب هؤلاء الفتيان بعطف متناهٍ فاهتف بهم قائلاً : أيها الفتيان ، ان المدنيّة ستمشي في عاداتكم عما قريب ولكن حذار أن يعبث بأخلاقكم عابثٌ ، تلك الاخلاق التي اذكرها بتهيب وافتخار »

على إنّ السرّ المنوي في عبقرية هذا الكاتب العليل المفلّي قلبهُ بأنامل اليأس السيق والألم المحرق المذيب ، هو حبُّهُ لتركيا حبًّا قارب العبادة والتأليه

لقد تساءل نفرٌ من الكتّاب الغربيين هل كان هذا الكاتب الرسام قد وقف على اسرار الحياة التركية التي لم يقف عليها اديبٌ من الادباء . اما الحقيقة فهي انهُ توفّق الى رسم تلك الحياة التي تجري في القصور التركية رسماً لا شكّ حياله بتدخله في شؤون هذه القصور المسربة بضباب الاحلام

في تركيا ، عشيقة البوسفور وموحية أسرار الحبّ والغرام للقلوب التوّاقة الى نور الخلود ، جمال يترك في النفوس نشوةً علوية كنشوة الوردة الحمراء النافية على سرير من ضياء الفجر . والفرنسيون بارعون في الاستيلاء على كلّ ما يمتّ الى الفنّ بقرابة جيّة . ولكن الاجمل من هذا ومن ذاك هو تلك الذكريات التي تركها —

لوتي — لتبقى مثالاً صادقاً للحياة التركية بما فيها من آلام ومسرات ، وسعادة وكآبة ، وابتسامات ودموع !!

لقد نزل بيير لوتي — عقوداً جمة من حياته على شواطىء البوسفور التركي ، ومتّع عينيه بمنظر الخليج الجميل ، وبمرأى البدر يصبُّ أنواره الفضية فوق موجه الثمل الريان ، وأمرع كثيراً بمسرة تلك الليالي البيضاء التي تغبُّ في النفوس رواقد الخشوع والروعة والتعبد . . . فلا عجب اذا اغرق — لوتي — بحبّ المرأة التركية ووصف اخلاقها وعاداتها وبكيفية معيشتها بين جدران القصور التركية ؛ واذا اكبرت عليه جمال فنه وأنيق الوانه ، فاعلم انهُ طلى فنهُ بكل ما في الحياة من أدهنة سحرية ورموز واسرار ... وما اعظم الاديب الذي يجمع بين الفن والجمال !

***

ومنا يطوح لي ان فريقاً من القراء يطالبني بذكر ناحية من ذكرياته .. اما ذلك فحسبي ان اقاول روايته (الياسات) واقرأ فيها هذه الجمل الحزينة اللابسة ثوب الحداد على ماضٍ حنون توطّن بقبرة الذكرى وترك في قلب الكاتب اللطيف هذه الفجعة المؤثرة الموجعة

« . . . في ناحية منفردة على شواطىء البوسفور ، وعلى نحو فرسخين من استانبول المدينة الشهرية الشمالية ما آذنها في الفضاء معلنة لروع اللانهاية كل ما للدين الاسلامي من روعة واسرار ، كنت اصرف اكثر اوقاتي مع « جنان » فلا يعلم بنا احد ، ولا يسمع نبضات قلبينا غير الامواج والطيور

« أنا لم يؤثر فيّ مشهد من مشاهد الشرق الغريب مثل ان اتأمل البوسفور في ساعة المغيب وقد تلوّنت شواطئهُ بأشعة شمس الخريف الواهية ... فكانت تبدو لعينيّ كأنها وجنات العاشقين ممتقعةً بصفرة الفراق !

« وما — البوسفور — يبعثر امواجه على صخور الشاطىء غير مشهد يروعك فيه انين المياه وحفيف تيرها البليل يداعبهُ نسيم المساء ثم يرخيه فوق الحصى والاعشاب ، ولكنهُ مشهد خفاق تتسنى في روحه الروح والحياة ، فهو جميعهُ خفقات أليمة تهرب عما تعاني من صبابة . . . وكل موجةٍ لها للفؤاد إشارات خفية مجهولة ، هي اشبه بيد العاشقة تمتدّ مودّعةً بعد ان تقاصرتْ عن عناق الحبيب !

« اما الطيور المتهادية ثمة ريّانة في تلك الامكنة اللطيفة الساحرة ، فكنتُ اخصّها بكثير من تأملاتي واحلامي . وكانت — جنان — تحسبها ارواح اليائسات التركيّات اللواتي استقرّ من قصور ازواجهنّ البشوات الظالمين

« وفي اواخر — جمادى الاول — عند حلول الخريف ، كان يحزنني ان ارى تلك الاماكن الشاهدة عليّ وعلى « جنان » بما بيننا من احايين شيقة خيّمت فوقها اشباحُ الغرام . . . ثم كان يمضّني ان اراها عاريةً جرداء فينبثق منظرها الشاحب بنكبة قريبة تتمكّن من رياط فؤادي فتسحقها بالالم سحقاً ، وتفصدها بغزوات دامية تمازجُ فيها نبرات الحزن واصداء الموت

« وأحسستُ — جنان — ذات يوم بما يخالجني من ألم مبرح يُسمّم عواطفي فأخبرتها ان طيفاً خفيًّا ينتصب في اعماق نفسي منذراً بمجيء ساعة الفراق ، فارتمت — جنان — يتنكّب الانين فؤادها ، وتستشفُّ عينيها الدموع ! !

« وشئتُ ان أساعدها على احتمال هذه الصدمة العنيفة فوعدتها ان اعود اليها واماضي باقي الحياة قريباً منها . ولكني عندما شاهدتُ ارتعاشها المفجع لم أتمالك عن ذرف دموعي فعانقت جنان وبكينا معاً امام الامواج المحتضرة والبلابل المرتحلة الى الجنوب هرباً من عواصف الشتاء المتأهبة للخروج من سجن الابدية

« وعدنا الى اسطمبول مساء . . . ولأول مرة رأيتُ — جنان — تتأملُ القمر بعينين منهوكتين ، فظننتُ انها تريد التعبير عما في نظرات القمر من سهدٍ ووجوم ، فضممتها الى صدري المعذّب وأشبعتها بقبلات الوداع ! !

* * *

بعد ان مضى زمنٌ طويل على هذا الافتراق جمع — بيير لوتي — تذكاراته الماضية ودوّنها كلها في روايته المسماة (اليائسات) والغريب انهُ اعلن موتَ جنان في آخر الرواية بصورة شعرية مؤثرة . ولكن الحقيقة — كما تقول مجلة الالبستراسيون — ان جنان ظلت حيّة ومقيمة طول ايامها على غرام الكاتب البقري الجميل

وقد وجدوا بين اوراقه بعد موته تذكارات جمة عن — البوسفور — مرسومة بدم قلبه ودموع عينيه ، وكلها تعبر عن نواحي حياته ؛ فالبك هذه الكلمة المختصرة:

« لست أنسى ما حييت تلك الليالي البيضاء التي صرفتها على ضفاف بحر مرمرا » والبدر يحدّق بالامواج كأنهُ يبثها سرًّا من الاسرار او لاعجة من لواعج الهوى .

وكثيراً ما حركت هذه المناظر بواعث الحزن والكآبة في اطواء نفسي ، فكنتُ اسمع انغام الماضي توقعها الذكرى على أوتار الليل

«آهٍ ما أعذب الذكرى تعاودني من خلال خمائل الماضي . . . ولكن وا أسفاه انّ حيني يكاد يغشاها ظلامُ الموت . اني اراك يا — فروق — تموجين بثوبك الخفاق كانك في ساعة عرسك . فسلامٌ عليك من رجل أحبك حتى العبادة والتأليه »

يقول — كاود كارير — الكاتب العبقري الكبير ان — بيير لوتي — ارسل هذه الالفاظ النارية وهو ممدد على سريره في باريس يعالج برجاء الألم ويتلمس مهاوي الابدية . وكانّ الاقدار شاءتْ ان تضرم لوعته وتشعله بالكآبة التي لازمتهُ طول حياته ، فقد أطفأت حياة حبيبته (جنان) في ليلةٍ من تلك الليالي السوداء التي كانتْ تمرّ بالكاتب الملول الحزين

ولكن جنان المسكينة لم تكن تعلم وهي تنثر احلامها في ظلام أجنحة المنيّة الا" بذلك الفرنسي الجميل الذي أحبتهُ كما احبّها حبًّا وفيًّا . فتناولت القلم ورسمت هذه الرسالة

«ايها الحبيب — ها انذا في مخدعي سهّدة تولولُ اشباح الماضي في اودية الفؤاد وبينما الناس نيامٌ يرتشفون خمرة الرقاد ، أبيتُ باكيةً تلك الاوقات الحبيبة التي مضتْ وتركتْ في مقبرة قلبي تذكاراً حنوناً مندّى بالدموع ! نعم . . . لقد تلاشتْ تلك الاوقات وتوارت وراء نقاب الموت لتُبلى على مهلٍ تحت اقدام الدهور . . . ولكن نور النجوم ، وحفيف الاوراق ، وخرير الجداول . . . وكل ما في الطبيعة من حسن وجمال . . . لا يزالُ يتغنّم على اوتار صدري توجيعة الصمت والسكينة

«انّ ضباب المنيّة يكفنني الآن بردائه الناعم الشفاف . وعندما تخمدُ فيّ شعلة الحياة ويسيلُ الموت اجفانه فوق نعشي ، ثم يدنو حفار القبور ليهيل على صدري التراب . . . ستحومُ حولك روحي ايها الحبيب وتتلو على مسامعك كلّ نزعات القلب وأمانيه .

«زهرة البنفسج التي كنا نستنشق عبيرها ونضفر اوراقها على ضفة — البوسفور — أغرسها ايها الحبيب فوق قبري لتعطر جسدي الناضر في سكينة الليل . . وعلى اضواء النجوم ! !

— جنان —

مسكينة جنان . . . كانت أمنيتها الوحيدة ان ترى — بيير لوتي — وتعانقهُ العناق الاخير في تلك الساعات الاليمة التي تكابد حزازتها في ظلام ليل تذكاراتها . وفيما هي

تستنشف كأس المنية تركت هذه الرسالة المخددة بالدموع (وهي مترجمة عن اليابانية)

« أندري ! : الآن وقد مرّ الهزيع الثاني من الليل ، اصغي الى حفيف اجنحة الموت فلا اسمع سوى زفرات متقطعة ترسلها روحي المفارقة في فضاء مخدعي . قليلة كنتَ هنا يا أندري ! لأهمس في اذنك كلمة الوداع فلماذا لا تقترب مني ايها الحبيب لابوح لك بسرّ من اسراري الدفينة ... اريد ان اعترف لك بحبي الذي لا شائبة به. إنّ من تفارق الحياة لأجل حبيبها تستطيع الاعتراف بخفاياها

« آهٍ يا أندري . . اتذكرُ يومَ كنتَ في هذا المكان حيث أنا الآن ؟ يومَ ذاك خفق قلبي بحبك ، الا اني أطبقت عيني لأحلم وهكذا مرت احلامٌ لذيذة ... وكانت يدي تمسح عن عينيك تلك العبرات المتسلسلة . حبذا لو قضيتُ في تلك الساعة اذاً ما كنتُ تمكنتُ اشباحَ الحزن الظالمة . وكأس الغرام المريرة !

« كل شيء يتغير في نظري... قالوا لي ان الانام ، ولكني لا اشعر بالناس يزورون أحبائي . . . غير اني اشاهد كل ما في مخدعي يهتز ويرتعش مثل شمعة روحي الذابلة ... إن الزهور البيضاء التي تنثرها حول رأسي أتخيلها تنمو وتتكاثر متحولة الى مرجة كبرى مكتسية بالورود والبراعم

« والآن اراك تلهو بين الورود والبراعم فلماذا لا تقترب مني ايها الحبيب ؟ ألا تعلم انّ شفتي تحبان ان تلثما شفتيك ؟ وهنا حيث احتضر اودُّ كثيراً لو شاهدتك لاقرأ في عينيك دمعةً تذيبُها لاجلي... تعالَ يا ملكَ الجمال ومرقظَ الحبّ والغرام لأسند رأسي الى ذراعك واعترف لك بحبي قبل ان يطفىء الموت شعلة حياتي

« آهٍ يا أندري ! ! إن الاموات يجذبونني نحوهم بعنف وقسوة . فاعطني يدك لأتساند عليها في المصرع الاخير !

ومثل الزهرة الرطبة التي تنتعش صباحاً ثم تذوى في المساء بعد ان تلفحها الشمس بنورها الكاوي هكذا ذوت مباهجُ الحياة في قلب (أندري) وهو يبر لوتي نفسه . وظلت هذه الذكرى جاثمةً حول الكاتب الحساس حتى لفظ أنفاسه الاخيرة

فالى بير لوتي والى روحه العذبة التي ابتسمت في ثنايا كواكبُ الفن والنبوغ سلامُ الشرق العظيم الذي ضمّتهُ اليه وسكب في عروقه كل ما في الحياة من تشوّق وحرارة وايمان

البرازيل يوسف البصيلي

لمن ؟

« مهداة من الشاعر الى الاستاذ
ميشال ابوشهلا صاحب مجلة الجمهور »

لمن تسمر الروحُ يا شاعرُ أما لضلال المنى زاجرُ ؟!
أللحب ؟ أين أكفُّ الفتو ن لتبدع ما ترتجي الخاطرُ ؟
أللهو ؟ كم دميةٍ صُغْتَها ومزّقها ظفرك الكاسرُ
أللمجد ؟ هلاّ لمحت الذنا ب، وقد عضّها جوعها الكافرُ
أللخلد ؟ ماذا يفيد القتيل إذا ناح أو هلل العابرُ

***

رويدك لا تسفحنّ الخيال بيـــداء ليس لها آخرُ
سيرقصك الكون في صمته كما يرقص الحية الساحرُ
دع الحلم يخفق في ناظريك فموعده غدك الساخرُ !

عن « الجمهور : بيروت »

عمر ابو ريشة

العرس الاسود

الله ...! مات الحلم في البرعم ... وكان حلم الليل والانجم
حكاية الورد لجاراته ... حكاية المغرم للمغرم
تقصها الانسام في سكرة ... في الثاب للغريدة الحوّم
فترقص الضحكة في مبسم ... وتجمد الضحكة في مبسم
ويصبح الحلم حديث الرُّبى ... فاهمة تروى لمستفهم
الله .. الم يطلع عليه الضحى ... الا صريع الناب والمنسم

***

يا حلمي الاشقر ، يا رفة ... طافت بقلب أخرس مسقم
يا ضحكة في خاطر الملحى ... يا لمعة في الوتر المبهم
لم يبق من عرسك الا الرؤى ... مخضوبة بالدمع في مرقمي
تموت في قلبي وفي مقلتي ... على صراخ مفزع مؤلم
يضج ماضيها على نعشها ... يجرح الذكرى دمي الغم

***

يا قلب ما تبغي وما ترتجي ... من مأتم تمشي الى مأتم
يا جائعاً الطمثهُ مهجتي ... يا ظامئاً روّيتهُ من دمي
يا أحمقاً يمشي الى قبره ... هدمت أضلاعي ولم ترحم
اسكت ! احس الموت في مضجعي ... وفي زوايا الخدع المظلم
احس في صدري دبيب الردى ... ينسل في صدري كالارقم
ليتك لم تخفق على ساعدي ... ليتك لم ترقد على معصم
يا كافراً ضيّع احلامه ... ليتك لم تشقى ولم تحلم

***

يا قلب ! مات الحلم في موسم ... فاغضهُ يا قلبي في موسم

من « الجهور » فؤاد سليمان

سمير الزمان

الامتيازات الاجنبية

في مؤتمر موتمر

خطبة الخامس باشا

في مؤتمر موتمر

امتيازات الملوك

لدعبن الغريب

الامتيازات الاجنبية

وستر مونترو

الامتيازات اسم يطلق على معاهدات تمنح بها دولة من الدول حقوقاً خاصة لرعايا دولة أخرى مقيمين في بلادها . ففي القرن التاسع عقد هارون الرشيد معاهدة من هذا القبيل مع «الفرنك» منحهم بها ضمانات معيّنة وسهّل عليهم سبل الاتجار . ثم منحت امتيازات من هذا القبيل لابناء بعض من المدن الايطالية . فأمير انطاكية منح أبناء جنوى مثل هذه الحقوق في سنة ١٠٩٨ وجاراهُ ملك أورشليم في منح أبناء البندقية سنة ١١٢٣ وأبناء مرسيليا سنة ١١٣٦ وتبعهُ صلاح الدين فمنحها أبناء مدينة بيزا سنة ١١٧٣ . وقد جرى امبراطرة بيزنطة على هذه القاعدة فمنحوا جنوى وبيزا والبندقية هذه الامتيازات . وفُسِّرَ هذا العمل أولاً بأن سيادة الدولة تشمل أبناءها فقط وان ميزة الانتماء الى حكومة معيّنة كانت أثمن من أن يوسع نطاقها حتى تشمل الأجانب . فلما كثر عدد الاجانب القاطنين بعض البلدان ، قيل انهُ من الغبطة أن يخضعوا لقانون من القوانين ، وان خير قانون يخضعون لهُ هو قانون بلادهم الأصلية

فلما قامت الدولة العثمانية ، كان نظام الامتيازات قد رسخ فحافظت عليه . فعقدت الحكومة العثمانية معاهدة الامتيازات الأولى سنة ١٥٣٦ مع الفرنسيين . فكانت معاهدة تجارية ومعاهدة إقامة تخول الفرنسيين الاقامة في تركيا وتعين نوع القضاء الذي يخضعون لهُ . ورضيت المعاهدة لهم الحرية الفردية والدينية ، وخوّلت حكومة فرنسا حق تعيين قناصل لها في تركيا يكون من اختصاصهم الحكم في القضايا المدنية والجنائية الخاصة بالفرنسيين المقيمين في تركيا وذلك وفقاً للقانون الفرنسي ، وأن يطلبوا من رجال السلطان مساعدتهم في تنفيذ الاحكام

وقد جرت جميع معاهدات الامتيازات التالية على هذه الوتيرة . ففي سنة ١٥٦٩ جدّد السلطان سليم الثاني الامتيازات الفرنسية التي منحها سلفهُ . وفي سنة ١٥٨٣ فازت انكلترا بامتيازاتها الاولى وقد كانت فرنسا حتى تلك السنة حامية جميع الاوربيين المقيمين في تركيا . ثم حاولت بريطانيا بعد ذلك أن تدعي لنفسها حق حماية الاجانب في تركيا فأبى ذلك عليها في الامتيازات الفرنسية المجددة سنة ١٥٩٧ و ١٦٠٤ و ١٦٠٧ اذ نصت نصًّا واضحاً على ان فرنسا هي حامية جميع الاوربيين الذين ليس لدولهم سفير في الاستانة

وفازت هولندا بامتيازاتها في سنة ١٦١٣ والنمسا سنة ١٧١٨ وروسيا سنة ١٧٨٤ واقتفت آثارها اكثر الدول الاوربية في خلال القرن الثامن عشر وتبعتها الولايات المتحدة الاميركية والبلجيك واليونان في القرن التاسع عشر

وكان من شأن نظام الامتيازات الاجنبية ان اصبحت كل جالية اجنبية في تركيا بمنزلة «دولة داخل دولة» يتمتع افرادها بحرية الاقامة وحصانة المنزل وحرية السفر في بلاد الدولة العثمانية وحرية التجارة وحرية الدين والخضوع لقانون دولتهم لا لقانون تركيا

الامتيازات في مصر

طبق نظام الامتيازات على القطر المصري عند ما كان ولاية من ولايات السلطنة العثمانية، ولكنهُ عُدِّل قليلاً في عهد الخديو اسماعيل عند ما أنشئت المحاكم المختلطة . ومقتضى هذا النظام كان للاجنبي المقيم في هذه البلاد حقوق تميزه عن اهلها يمكن ان تلخَّص في ما يلي :

اولاً — لا يحق للحكومة المصرية ان تفرض على الاجانب المقيمين في مصر ضريبة على المدخل من دون موافقة الدول صاحبة الامتيازات . ثانياً — جميع القضايا المدنية والتجارية بين الاجانب والمصريين او بين الاجانب من رعايا مختلفة تعرض على المحاكم المختلطة . ثالثاً — جميع القضايا الجنائية التي يتهم فيها اجانب تعرض على المحاكم القنصلية الخاصة بالدول التي ينتمي اليها المتهمون . رابعاً — لا يحق للحكومة المصرية ان تفتش مقرّ اجنبي الاّ بسماح من قنصله ، ولا يجوز لرجال البوليس المصري ان يدخلوا دارهُ او مكان عمله بدون هذا السماح الاّ في احوال استثنائية وهي حالة التلبُّس بالجريمة

ولا يخفى ان هذه الامتيازات واسعة النطاق تفضي الى عقد كثيرة في اقامة العدل وكثيراً ما كانت باعثاً على الجور علاوة على ما تقيد به سيادة مصر في نواحٍ مختلفة من حياتها القومية

ففي المقام الاول لا يسع الحكومة المصرية ان تبسط نظام الضرائب الذي لا قيام من دونهِ لأية حكومة عصرية ، ما زالت الدول صاحبة الامتيازات تستطيع ان تأبى فرض ضريبة جديدة على دخل رعاياها ، ورعاياها قابضون في الغالب على ازمة التجارة والصناعة في البلاد . واذا خطر للحكومة المصرية ان تفرض ضريبة من هذا القبيل وجب ان تفاوض كل دولة من هذه الدول — وعددها اربع عشرة دولة — على حدة ، وهو سبيل وعر طويل يعرف لهُ اول ولا يعرف لهُ آخر . وقد يُظن ان المسألة شكلية فقط وما على الحكومة المصرية الاّ اعداد مذكرة تطلب فيها من الدول صاحبة الامتيازات الموافقة على الضريبة المقترحة فيأتيها الردُّ بالقبول برجوع البريد . ولكن الواقع أن المذكرة المصرية تفضي الى ردود عليها فيها مقترحات معدّلة ومناقشات في امور لها صلة بالموضوع الاصلي وقد لا يكون لها به صلة ، وقد لا تفضي المفاوضات الى نتيجة مقبولة الاّ بعد اشهر او بعد سنين اذا افضت اليها على الاطلاق

وفي المقام الثاني ، لا ينكر منكر ان المحاكم المختلطة قد رفعت عن كاهل مصر جانباً كبيراً من

عن مفاسد الامتيازات كما كانت تمارس فيها قديماً او في السلطنة العثمانية بوجه عام ، ولكنها أصبحت وسيلة فعّالة تستعملها الحكومات صاحبة الامتيازات للضغط السياسي على الحكومة المصرية ، وللتدخل في التشريع المصري ، لان هذه المحاكم غير ملزمة بتطبيق أي تشريع جديد تصدره الحكومة المصرية ، الا اذا وافقت عليه الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة . فكأن هذه الجمعية اصبحت في مصر وفي عصر الدستور خاصة ، مجلساً تشريعيًّا ثالثاً في دائرة معيّنة

ومما قالهُ لورد كرومر في هذا الصدد في كتابه مصر الحديثة انهُ من المفارقات ان تطلب موافقة رئيس الولايات المتحدة الاميركية وملك السويد على قانون يطبق على رعايا امبراطور النمسا او ملك البلجيك . ثم انها علاوة على ما تقدم قيد من قيود السيادة المصرية لانها تعني ان الحكومة المصرية لا حق لها في تعيين جميع قضاتها

ونتيجة التشريع بالمفاوضة الدبلوماسية قيام عقبات في سبيل التقدم وفتح الباب للمساومة

وفي المقام الثالث ، ان نظر القضايا الجنائية التي توجه فيها التهمة الى الاجانب ، في المحاكم القنصلية المختلفة ، افضى الى اختلاف بيّن في اقامة ميزان العدل في مصر . ذلك ان كل محكمة قنصلية تطبق في نظر هذه القضايا القوانين المتبعة في بلادها ، والاساليب المقبولة في اقامة الدليل ، فكان من اثر ذلك ، ان اجنبيين تابعين لدولتين مختلفتين ولكن متهمين بتهمة واحدة يقدّمان كل الى محكمة بلاده القنصلية ، فتثبت التهمة عليهما فيعاقبان عقابين مختلفين . او قد تكفي الادلة نفسها لادانة الواحد وعدم ادانة الآخر ، واذا كان لهما شريك ثالث وكان مصريًّا فقد يكون الحكم عليه ، من حيث الادانة ومدى العقاب ، مختلفاً عن حكم القنصليتين

وفي المقام الرابع ان المفاسد التي نشأت عن حصانة الاجنبي من تفتيش البوليس المصري ، من دون سماح السلطات القنصلية ، كثرت وتعددت وجوهها ، بحيث اسبغت على الامتيازات الاجنبية صورة بشعة يخجل منها الاجانب ويتبرّم بها اهل البلاد

ففي الجاليات الاجنبية في الاسكندرية والقاهرة وغيرهما ، عناصر من هذه الجاليات اصلاً او تنتمي اليها بالتجنّس وهو الاكثر ، تحسب من اشدّ العناصر انفلاتاً للامن وارتكاباً للمفاسد وكثيراً ما تعمد الى التحصّن وراء هذا الحق — اي الحصانة من تفتيش البوليس المصري — للتفلّت من العقاب الذي تستحقّهُ . ثم ان هؤلاء كثيراً ما يشتركون مع بعض المصريين ليسبغوا على الاعمال المشتركة حقوق الامتيازات ، ويطلب ان تكون هذه الاعمال المشتركة اماكن للميسر او تعاطي المخدرات او الاتجار بالرقيق الابيض . فاذا قرّر البوليس المصري ان يفتش هذه الاماكن اصطدمت المعاملات الرسمية التي لا ندحة عنها بحسب نظام الامتيازات الى التأخر فتتاح للمتهمين فرصة الهرب والنجاة . والامثلة على ذلك كثيرة

خطبة رفعة النحاس باشا
في مؤتمر الامتيازات

[وجهت الحكومة المصرية دعوة الى الدول صاحبات الامتيازات في مصر لتوفد مندوبيها الى مؤتمر يعقد للبحث في الغائها . وقد بدأ المؤتمر عمله يوم ١٢ مارس في بلدة مونترو بسويسرا فانتخب صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة المصرية ورئيس الوفد الرسمي المصري رئيساً للمؤتمر فألقى رفعته خطبة جامعة بين فيها حقوق مصر وموقفها أبلغ بيان فنشرنا نص الخطبة كما نشرت في جريدة « المصري » مترجمة عن النصوص الفرنسية التي نقلتها بالتلغراف ، وقد اضطرنا ضيق المقام الى الاستغناء عن كلمة الشكر التي وجهها النحاس باشا في مستهل الكلام الى حكومة سويسرا ورئيس اتحادها وسكرتير عصبة الامم]

ايها السادة : اني واثق كل الثقة وأنا ألقي هذه الكلمة في مستهل المفاوضات التي نبدأها اليوم أنهُ من المتعذر لكم ان حسن نية الحكومة المصرية متوفر لكم جميعاً كما اني واثق بان هذه النية الحسنة من جانبنا تقابلها نية حسنة ايضاً من لدن الدول ذات الامتيازات

واننا ونحن اقوياء بحقنا واقوياء باعتدال المقترحات التي نقدمها واقوياء كذلك بروح التفاهم الذي يخالجكم قد دعوناكم الى هذا المؤتمر الذي سيوثق على قاعدة اكثر مرونة وانسجاماً العلاقات بين مصر والاجانب ويسم صلاتنا المقبلة بروح حيوية جديدة

ان المشكلة التي سنبحث حلها ماثلة هي بالاختصار من أبسط المشكلات ومن اكثرها وضوحاً ونحن نعرضها للبحث بصراحة تامة اذ لطلب الغاء الامتيازات حالاً واننا اذ نفعل ذلك لا نطالب بشيء من شأنه ان يثير المخاوف او الظنون وحسبنا لاقامة الدليل على عدالة قضيتنا ان نذكر ان جميع الدول تعمل على تحقيق المساواة في المعاملة لرعاياها وكل ما تطلبهُ مصر هو ان تعيد مساواة ابنائها الوطنيين بالاجانب المقيمين في أرضها

ايها السادة : ان الامتيازات تؤلف نظاماً يتعارض تعارضاً اشتئاثيًّا مع روح العصر ولا ينسجم مع حالة مصر الحاضرة ومع حياتها الوطنية بل هي اعتداء فاضح على كرامة البلاد وعلى تطبيق مبدأ سيادتها فضلاً عن انها تشل حركتها بين الدول المتحضرة

ثم ان هذا النظام قد زال تقريباً من جميع البلدان التي كان قائماً فيها ولاسيما في تركيا حيث كان منشأه وقد ورثناه عنها ، أفلا يكون من العجيب ان يظل قائماً في مصر في هذه الساعة .

ولا يسع المرء ان يتصور ذلك عندما يذكر التقدم الذي تقدمتهُ مصر في جميع الميادين وفيه دليل على تحولها وتطورها الى اعظم درجة . وفي الواقع ان مصر قد بنت على احدث القواعد نظم التشريع وادارة القضاء وتنظيم المالية في الداخل وفي ادارتها وفي البوليس . وعلاوة على ذلك فان مصر

محكومة بدستور مستمد من اكثر المبادىء الدستورية تحولاً وتقدماً وحياتها البرلمانية حرة وثابتة ومصر بلاد مسالمة الى اقصى حد وهي تحترم المصالح الشرعية وتحسن ضيافتها مضرب المثل . فنحن اذن نتقدم الى هنا ولنا ثقة بان دوام الامتيازات سيبدو لكم امراً لا يمكن التسليم به كما يبدو لنا تماماً

لقد قلت ان الامتيازات اعتداء صارخ على سيادة مصر واقول هنا انها انشئت في الاصل لضمان الاجانب من كل حيف او غلو في المعاملة في الضرائب والرسوم وقد تحولت شروط اقامتهم في مصر على مر الزمان وتباعاً تحولاً اضاف الى هذا الضمان ما سمي ضمانات مالية جعلت الاجنبي غير خاضع لدفع ضريبة الا اذا وافقت الدولة التي ينتمي اليها على ذلك

وسيكون من رأي حضراتكم حتماً ان حالة كهذه لا يمكن السماح بها وستقدرون ما لقيود كهذه من نتائج في عالم اقتصادي معقد وازاء مقتضيات مالية تزداد زيادة مطردة فانها — اي تلك القيود — لا تمكن من تحقيق اي تقدم مستمر كما انها تحول دون تحقيق اي عمل اجتماعي واسع النطاق بعيد الاثر . وبين المساوىء التي ولدتها الامتيازات بتفسيرها تفسيراً خاطئاً وبتطبيقها تطبيقاً سيئاً فاسداً يجيء في الطليعة الامتياز المالي فهو من أشد تلك الامتيازات وطأة على حرية العمل في الدولة المصرية اذ لا يسع الدولة ان تفرض ضرائب على الوطنيين بدون ان تفرض الضرائب ذاتها على الاجانب وذلك تطبيقاً لمبادىء الانصاف الاولية ولتجنب المداورات والهرب من الضرائب

ويقال مثل ذلك عن الضمانات التشريعية والقضائية التي نشأت عن الاغلاط عينها وعن التفسيرات ذاتها فقد نشأت سلطة التقاضي القضائية في بادىء الامر نشأة متواضعة جداً في مستهل عهدها وكانت مقتصرة على الخلافات والمنازعات التي تقع بين اجانب من جنسية واحدة فانتهى الامر بواسطة سلسلة من الاقتناعات الفاسدة الى خلق حالة شبيهة بالفوضى وكان يمكني ان تمنح احدى الدول نفسها امتيازاً ما لا حق لها فيه لكي تسلك الدول الاخرى مسلكها مع اعترافها بعدم شرعية ذلك الامتياز ، وقد صحب هذا التوسع في الامتيازات تعمق في تطبيقها ، فانهُ منذ سنة ١٨٥٠ لم تزدد الامتيازات فقط بل انها اصبحت تنطبق على عدد اكبر من الناس ، ومن هنا غدت العلاقات بين المصريين والاجانب اكثر تعقيداً مما اوجد حالات جديدة للنزاع كانت تسويتها ذريعة جديدة لافتئات جديد

وافضى تراكم المخالفات والاساءات الى ان اصبح الامر سيئاً الى الاجانب انفسهم وهذا ما أدى في الواقع الى انشاء المحاكم المختلطة وبينا خطر للدول ان تكون هذه المحاكم عثابة هيئة تحت التجربة قررت حكومة الخديو ان تكون المحاكم المختلطة نظاماً مؤقتاً ربما تؤلف هيئة من القضاة المصريين مدربين على النظم الاوربية وتنظم السلطات القضائية الاهلية ، وفي تحديد مدة المحاكم المختلطة بخمس سنوات في بادىء الامر تم ادخال نص حق الغائها بعد اعلان الدول

بنة من الزمان — حقق في نظر هؤلاء واولئك هذه الصفة الوقتية بوجه خاص

ان الغرض الذي اتجه اليه الخديو اسمٰعيل وتوفيق باشا رئيس وزرائه اي انشاء قضاء يطابق روح العصر والعمل على انشاء هيئة قضائية وطنية منسجمة قد تحقق من زمان طويل . فأنشئت قوانين مستوحاة من الارتقاء الحديث في التشريع لكي تطبقها المحاكم الاهلية

وقد بدا في هذه القوانين وتنظيم المحاكم الجديدة تحسينات جمة بالقياس الى القوانين التي وضعت قبلاً . فالمحاكم الاهلية التي انشئت منذ نصف قرن قد اجتازت دور التجربة ودلّت على كفايتها . والحكومة المصرية لم تكفّ مطلقاً من ناحيتها عن ادخال جميع وجوه الاصلاح التي دلت التجارب على وجوبها

واذن يحق لنا ان نقول ان مدة المحاكم المختلطة قد انتهت

ولكن لما كانت مصر ترغب في ان تقيم الدليل على اعتدالها وعلى محافظتها في نطاق امكانها على مصالح الافراد المرتبطين بطبيعة اعمالهم بهذه المحاكم لم تشأ ان تفكر في الغائها الغاء عاجلاً وقبلت الاحتفاظ بها خلال مدة معقولة على ان لا تطول اكثر مما يجب

ولكن ذلك لا يمكن ان يطبق على وظيفتها التشريعية . ولا يسع المرء الاّ ان يدهش من ان محكمة للعدل مكلفة تطبيق القوانين يكون لها اختصاص تشريعي . والواقع ان من نتائج الامتيازات غير المتوقعة والتي لا يمكن تقديرها انهُ بينما كانت الدول غير مستعدة الاّ بالضمانات القضائية حملت مصر على طلب موافقة الدول على كل تعديل في القضاء المختلط . وقد قبلت هذه الدول بعد ثلاثين ان تعهد في سلطتها الى الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف المختلطة . ولكن في ذلك حالة لا تتفق مع مقتضيات حكومة عصرية

ان هذه الحالة حالة القاضي المشرع مناقضة بداهة لمبدأ فصل السلطات . ومن ناحية أخرى لا يسمح الوقت للقاضي ولا مؤهلاته ولا عدم حمله المسؤولية التشريعية بالنهوض بهذا العمل

وعلاوة على ذلك وبوجه خاص ان هذا تحديد خطر للسيادة ليس أقل تأثيره انهُ يجعل من المتعذر التفسير التشريعي للقوانين وهذا مخالف لروح التشريع اذ كيف يستطيع البرلمان وهو الاداة الطبيعية للتشريع ان يوفق بين عمله وبين حالة كهذه تنتقص من حقه التام

وان مصر التي في وسعها ان تضمن لسكانها الاجانب والوطنيين قوانين هي من أرقى القوانين ولها مجلسان تشريعيان ودستور هو من أكثر الدساتير حرية لا تستطيع ان تقبل الاحتفاظ بامتياز مرهق كهذا الامتياز . فمن الطبيعي ان يشتمل برنامجنا على الغاء الامتيازات من جميع وجوهها ومنها الغاء عاجل لكل حصانة تشريعية بما فيها الحصانة المالية

أما المحاكم المختلطة فلا يمكن ان تبقى كما هي خلال فترة الانتقال لان هذه الفترة لم تقترح

الا" تفضي الى الغاء المحاكم المختلطة بتحولها تحولاً تدريجيًّا . ولولا ذلك لم يكن ثمة مانع من ان تلغى حالاً . ولكن الرغبة في ان تجعل هذه الفترة فترة انتقال حقيقية ولكي تصل تدريجاً الى الغرض المقصود ينبغي ان نسير بطريقة تجعل هذا الانتقال يتم من غير رجة

وهذه الطريقة تشتمل على اجراءين : أولاً — نقل اختصاص المحاكم القنصلية الى المحاكم المختلطة . ثانياً — انشاء نظام للمحاكم المختلطة تقل فيه العناصر الاجنبية تدريجاً فتمهد السبيل لقيام المحاكم الاهلية بعملها

أما ما يتعلق بنقل اختصاص المحاكم القنصلية الى المحاكم المختلطة فيفسر بضرورة توحيد ادارة القضاء . وليس ثمة ما هو أعظم خطراً من تعدد القضاء الجنائي في بلاد واحدة لان القانون الجنائي يجب ان يكون وحدة متماسكة بين الاجراءات الضرورية لحفظ الامن والنظام في بلاد ما في وقت معين واذن لا يمكن للعقل ان يتصور الاعتماد على قوانين أجنبية ومحاكم أجنبية لحفظ النظام بمصر

وعندنا في هذا الصدد أمثلة ثابتة على القلق تدل على عدم المساواة في الاحكام في قضايا حكم على أصحابها او المشتركين معهم أحكاماً مختلفة في جرائم واحدة او جنح واحدة

أما في ما يتعلق بنقل قانون الاحوال الشخصية الى المحاكم المختلطة فليس هناك أي صعوبة فعدا كون هذه المحاكم كانت تنظر الخلافات التي من نوع شخصي علاوة على غيرها من الخلافات المدنية التي من اختصاصها فانها لن تكون أقل قدرة على تطبيق القوانين الاجنبية من تطبيق القوانين المختلطة . ثم ان مجموعة قواعد القانون الدولي الخاص تكفي لطمأنة الجميع وتبديد كل المخاوف

أما الاجراء الثاني اي انشاء فترة انتقال فغني عن البيان ان الخطوة الاولى هي الغاء مبدأ اكثرية القضاة الاجانب . ان هذا المبدأ لا يمكن ان يتفق وفكرة الانتقال نفسها . فاذا بدأنا بفكرة ابقاء القضاة الاجانب القائمين بالعمل الآن كان القول بالغاء مبدأ الاكثرية الاجنبية هو الصيغة الوحيدة التي تضمن الانتقال الحقيقي . فالقوانين الخاصة بالقضاة في ما يتعلق بعدم نقلهم او عزلهم والضمانات الضرورية لصون استقلالها تبقى من دون تغيير تقريباً . ولكن أهم التعديلات تتعلق بمادة الاختصاص وهي من نوعين مختلفين

فتعديلات النوع الاول تقصد الى توسيع نطاق القضاء والاخرى الى تحديده في بعض النقاط وهذه الاخيرة مرتبطة بمستحدثات قضائية في المحاكم المختلطة وهي تحديد معنى « الاجنبي » ومعنى « المصلحة المختلطة » وغيرهما وان القاعدة الجديدة في التنظيم القضائي انما تعود الى الفكرة الاصلية التي توخاها واضعو لائحة ١٨٧٥ بابقائهم المساواة التامة بين القضاء الاهلي والقضاء المختلط وبالنص على انهُ من حق الاجنبي اذا شاء ان يخضع للمحاكم الاهلية

اما في القانون الجنائي فسيحتفظ بالقوانين القائمة في المحاكم الاهلية ويضاف اليها الاختصاص في الجرائم والجنح التي يرتكبها الاجانب

أيها السادة: هذه هي القواعد الاساسية للمشروع الذي سيتشرف الوفد المصري بايداعه مكتب المؤتمر فليطمئن الاجانب الذين لا يعرفوننا . ففي أي بلاد من بلدان العالم يرون انسجاماً بين الاجانب والوطنيين أتم مما يرونه في بلادنا ؟ أين يجدون حسن ضيافة وتساهلاً ولطفاً في العلاقات وظرفاً في المعاملات ومودة حقيقية بلغ من تغلغلها في القلوب من زمن بعيد أن أصبحت تقليدية وكأنها طبيعية . والى شعور الصداقة هذا ينضم عامل آخر هو عامل مصلحتنا في المحافظة على تعاون يؤدّي في المستقبل بخير الثمار . ومن الواجب عليّ في هذا المقام ان اذكر بالاحترام العلماء والمعلمين والمالين والتجار وجميع اجيال الاجانب من أصحاب المواهب العالية والنية الحسنة الذين ما زالوا منذ قرن من الزمان ينقلون الى بلادنا كنوز معرفتهم وخبرتهم ونشاطهم. ان ذكراهم ستهيمن دائماً على العلاقات المودة المتوثقة لحسن الحظ بين جميع سكان بلادنا وتبدو خاصة في الاحتفاء الطيب الذي تعده مصر لضيوفها الاجانب . ان تقاليد التساهل والتسامح التي اقامت مصر عليها الدليل دائماً في الماضي تسمح للمصالح الاجنبية المادية بل للمصالح الذهنية والمعنوية كذلك بأن تنمو نمواً حراً في ظل القانون

ايها السادة : بعد معاهدة الصداقة والتحالف التي عقدناها مع بريطانيا العظمى تنوي مصر ان تنتظم قريباً في جامعة الامم لكي تنهض بحرية بنصيبها من التبعات الدولية في خدمة السلام والانسانية على اساس من المساواة مع الدول الاخرى. وأن مصر لتشعر بتبعاتها الحقيقية ولكنها لا تكون خليقة بمكانتها الا اذا عنيت دائماً بالعمل والتعاون مع الجميع لتضمن العدل والسلام

وعلى كل حال فان مواطنيكم الذين يقطنون بلادنا قد ادركوا ذلك من زمن بعيد ولذلك اغتنموا بنصيب فعال في افراحنا القومية التي صحبت توقيع المعاهدة البريطانية المصرية

واذا كانوا وقد عاشوا في وادي النيل المطمئن ورأوا حتى في أشد الساعات حرجاً أشخاصهم وممتلكاتهم مصونة فكيف لا يستطيعون الاستيثاق من أن هذا الصون سيكون أتم في المستقبل في ظل حكم طبيعي سوي ؟

ومن بواعث سرورنا العظيم أن نرى مواطنيكم محتفظين بصلاتهم العاطفية والعقلية بأوطانهم لا يترددون مطلقاً في الدخول في نطاق الوطن المصري الذي ينوي ان يبسط من دون تميز على جميع دوائر النشاط نعمة القوانين العادلة المتدلة الحرة . انا نريد ان نصل الى نتيجة ولا بد أن نصل ومهما تكن المصالح التي يتناولها هذا المؤتمر كبيرة فان نجاح المؤتمر مصلحة اكبر لانهُ يقرر في مصر بانهُ البرهان تقاطع على روابط الصداقة القديمة التي ربط المصريين والاجانب

امتيازات الملوك

بقلم امين الضريب

مما يستحق الذكر ان الملوك لا يدفعون رسوماً ولا ضرائب لمحض ان هذه الفرائض قد ضربت على الناس لاجل تأييد العرش وتأمين معاش كافٍ وافٍ للجالس عليه سعيداً . فلا يعقل ان يؤخذ من جيب الملك نفسه بعض المال ليوضع في الجيب الآخر

على أن هذا المبدأ قد تغير الآن ، وصار الملك يتناول مرتباً مخصصاً لهُ من الخزانة . اما باقي الواردات فبدلاً من ان يكون اليوم كما كان في الماضي مطلق التصرف بها يأخذ منها ما يشاء ويعطي ما يشاء — صارت الآن محرمة عليه تنفق بمعرفة المجالس النيابية على مصالح الامة

او — كما هي الحالة في بعض الاماكن الباقية — على مصالح الموظفين دون سواهم من الامة

فاليوم جورج السادس ملك الانكليز لا يستطيع ان يكافىء شاعراً مدحهُ بقصيدة مثلاً — بعشرة آلاف دينار كما كان الملوك يفعلون في صدر الدولة العربية . او عند ما يسمع نكتة لطيفة من زائر غريب أن يصيح بأعوانه : « زه . زه . املأوا فمهُ ذهباً » كما كان يفعل كسرى انوشروان . ولئن اعطى احد ملوك اليوم شيئاً زهيداً فذلك من مخصصاته المبينة المحددة

على ان ملك الانكليز الاسبق جورج الخامس لما تبوأ العرش البريطاني سنة ١٩١٠ سئل هل يريد ان يقتفي اثر والده ادوارد السابع وجدته فكتوريا في عدم التمتع بحقه القانوني الذي يعفيه من دفع الضرائب فأجاب : « كلا . بل اريد ان أتمتع بهذا الحق واعفى من جميع الضرائب والرسوم »

وقد قال ذلك بناء على رأي مستشاريه طبعاً . اما الملكة فكتوريا فكانت قد تنازلت عن ذلك الحق ودفعت الضرائب لان الاحوال في بداية عهدها (سنة ١٨٤٢) اقتضت انشاء (بل اعادة) الضريبة على الدخل . وهي ضريبة عادلة اشدّ انطباقاً على العقل والمنطق من سائر الضرائب المفروضة على الشعوب . فالذي يربح مالاً من اي وجه كان يدفع الى الحكومة رسماً على ما يربح . والذي لا يربح يبقى بطبيعة الحال . وهكذا لا يبقى الفقير مظلوماً والغني غير ممنوع بشيء كما هي الحال في البلدان المتأخرة . لكن الانكليز ولاسيما اغنياءهم لم يرتاحوا طبعاً الى القانون الجديد . وكانت فكتوريا الخالة الرصينة مقتنعة بصوابه . فأعلنت انها تتنازل عن حقها في عدم دفع الضرائب وتخضع من تلقاء نفسها له قاصدة بذلك ان يخجل المتذمرون وتزول العقبات كلها من امام الجباة

ولما خلفها ادوارد السابع تابع العمل العظيم الذي بدأته والدته العظيمة . وزاد على ذلك بعد عامين من جلوسه على العرش انهُ تنزل عن حقه في اعفاء ما يرد باسمه من الخمور والمشروبات الروحية والدخان من الرسوم الجمركية . وكان هذا المبلغ جسيماً لان هذه المكوس باهظة وما يرد من تلك الاصناف على البلاط الملكي مقادير كبيرة . وقد استحسن الملك ادورد السابع ان يخسر من مخصصاته ذلك المبلغ وهو نحو خمسين الف جنيه في السنة لكي يربحهُ صندوق واردات الحكومة

فلما جاء الملك جورج الخامس ودرس حسابات القصر ودقق في سجلات النفقات والواردات رأى الامور بغير العين التي كانت لوالده . لان جورج كان يتناول في عهده الراتب عينه الذي قرره القانون لجدته فكتوريا عام ١٨٣٧ ووالده ادوارد السابع سنة ١٩٠١ ومعلوم ان الجنيه في عهد فكتوريا كان يشتري أكثر كثيراً من الجنيه في عهد جورج . ولهذا أبى الحفيد ان يتابع الخطة التي درجت عليها جدتهُ . وأقرته الحكومة على عمله بكل طيبة خاطر

على ان الملك جورج الخامس تخلص في هذه الخطوة من كل ملامة وعتب من جانب رعاياه باتفاقه مع الحكومة على ان تدير هي الاملاك المخصوصة به من أراض زراعية ومسقفات كثيرة لحسابها لقاء ثلثمائة الف جنيه تدفعها لهُ نقداً كل سنة . وهي ما زالت تدير هذه الاملاك وتربح خزانة الدولة مبلغاً جسيماً بعد حسم المال المتفق على تخصيصه لهُ

وقد سببت هذه الاعمال في البلاط البريطاني مشكلات عديدة لملوك آخرين . لأن صحافة ايطاليا وبلجيكا وهولندا وأسوج ونروج والدانمارك وفي العهد السابق المانيا والنمسا حملت حملات صادقة على ملوكها كي يقتدوا بملك الانكليز ويتنزلوا عن حقهم القديم في عدم دفع الضرائب . لكن ملوكهم لم ينتصروا . ولما جاء الملك جورج الخامس الانكليزي أيدهم هو أيضاً في عدم الاقتناع

على ان الشعوب أحياناً اذا أطعمت الكراع طمعت بالذراع . فان الملكة فكتوريا الانكليزية نوقشت في صحف بلادها حسابات مرة ، مرة بعد مرة ، لانها لما تنزلت عن حقها في عدم دفع الضرائب استثنت الرسوم البلدية خصوصاً وامتنعت عن دفعها . وقد بلغ الحقد من بعض المجالس البلدية انها أقامت قضية على فكتوريا لدى المحاكم بطلب تلك الرسوم منها أسوةً بسواها . لكن المحاكم أسرعت الى رد هذه القضية شاربةً بها عرض الحائط

وهذه الامتيازات الملكية في انكلترا تتجاوز شخص الملك وتشمل أبعد أمسائه . من ذلك ان والدة ماري الملكة الوالدة الحالية ، وهي الدوقة تك ، استطاعت قبل موتها بقليل تعطيل قضية مقامة على زوجها الالماني في محكمة رتشموند البريطانية بطلب رسم بلدي على كلابه . وقد سقطت هذه القضية بمحض ان السوق تك حمو جلالة الملك ، وبالتالي من السلالة المالكة . أما ادوارد السابع فكان ، وهو ولي عهد ، يدفع للمجالس البلدية التي لهُ أملاك في مناطقها تقدمة مالية سنوية .

لكنهُ امتنع بعد تولي العرش عن ذلك لكثرة ما آل الى عهدته من الاملاك في مناطق عديدة

أما في ألمانيا فكان الامبراطور والملوك والصغار جميعهم يدفعون المكوس على واردا تهم الاجنبية عند وصولها الى الحدود الخارجية عن حدود ممالكهم الخاصة . فالامبراطور لم يكن يدفع شيئاً لجمرك برلين لأنها في أملاكه . لكنهُ كان يدفع مثل رعاياه لجمارك البلدان الخارجة عن نطاق روسيا . وقد مازحتهُ الجرائد الالمانية كثيراً عند ما سنت حكومتهُ سنة ١٩١٠ قانوناً يرفع كثيراً المكوس المفروضة على الخمور الفرنسية . فأمر الامبراطور بالتعجيل في استجلاب ملء شاحنات حديدية ثلاث من اجود أنواع الخمور الفرنسية وأطيبها حتى تقطع اتريكور بعد ظهر ٣٠ يونيه من تلك السنة . وذلك لانقاذها من دفع الزيادة على المكوس التي كان مقرراً تنفيذها في الغد ، اي من أول يوليه فصاعداً

وقد اهتمت صحف المانيا بذلك لما كان الامبراطور غليوم الثاني يتبجح بهِ من الكره لكل خمر غير المانية ولا سيما الشمبانيا الفرنسية . وهو كرهٌ لفظي لم يصدقه في وقته احد . وما كان يسرك طالماً باحيان مولاه في ابدال الورق الملصق على القناني الفرنسية بورق المانية تمويهاً وتضليلاً للجالسين على مائدته الامبراطورية . لان ذلك السياسي الذكية كان يؤكد ان الشبانيا الالمانية تفسد لهُ معدته . وانهُ مع استعداده الدائم للتضحية بنفسه كلها في في سبيل وطنه لم يكن مستعداً على الاطلاق للتضحية بمعدته وحدها

والشيء بالشيء يذكر . فنقول ان تمتع الملوك الالمانيين عن دفع الرسوم في بلدانهم كان مع قانونيته يثير عليهم صخب الرأي العام احياناً . فان ذوق سكس مانتجن كان واسع الثروة جداً وقد ادى اخفاء املاكه من الضرائب الى فقر الخزانة غالباً حتى اخذت الحكومة تبث روح المقت لهُ ، وصار كل موظف يتأخر عنهُ مرتبهُ يضع الحق في ذلك على الدوق ويدعو لهُ باشياء كثيرة غير طول العمر

ومعلوم ان بعض الملوك كانوا ولا يزالون يتاجرون لظير رعاياهم لا رأساً وصراحةً بل بالواسطة وفي الخفاء . فليوبولد الثاني جد ملك بلجيكا الحالي كان يدير اشغالاً عظيمة في ولاية الكونغو الحرة . والامبراطور غليوم الثاني الالماني وملوك اسوج وبافاريا وورتمبرج وهس كانت لهم علاقات مالية كبيرة ببعض الفنادق الكبرى وسكك الحديد والمصارف . فلا غرو في ان ينكر الناس عليهم حق التمادي في التمتع عن تأدية الضرائب فظير سواهم من العباد

ولا بدَّ من الاشارة الى ان ليس بين ملوك الارض الذين تقوضت اراثكم اوسعت في هذا العصر من يساوي ملك الانكليز في التخفيف عن عواتق رعاياهُ لاجل القيام بأوده . ولا ستثني ملك مونا كو وملك لتشنشتين الصغيرتين

ان جمهوريات فرنسا والولايات المتحدة حتى سويسرا نفسها التي رتبت لرئيسها خمسين جنيهاً في الشهر فقط تتفق على رؤسائها اكثر من انكلترا على ملكها واسرته. اما المستعمرات البريطانية والدومنيون فلا تدفع فلساً قط لاعالة الملك. بينما املاكهُ الخاصة التي تديرها الحكومة تغلّ ثلثمئة الف جنيه في السنة تدرُّ لها فوق ذلك نصف مليون جنيه. والملك يعلم ذلك كما كان والده وجده وجدة ابيه يعلمون من قبله. لكنهم رأوا ما يصيبهم من هذه الصفقة كافياً فلم يشاءوا الزيادة. وبدلاً من ان تكون الاسرة المالكة في انكلترا عبئاً ثقيلاً على عاتق الامة بلغ الربح الذي اصاب الامة من ادارة الاملاك الملكية من بدء هذه الصفقة اي منذ مائة سنة نحو سبعة وسبعين مليون جنيه. وهذا طبعاً في عداد الاسباب التي لاجلها يحب الانكليز ملكهم كثيراً ويدعون في نشيدهم الوطني: « الله يحفظ الملك »

ومعلوم ان ملك انكلترا لا يزال بمقتضى القانون مطلق السلطة كما كان سلفهُ القديم وليم الفاتح. فهو رئيس الاشتراع في البلاد. وما المجلس النيابي الاّ من اعوانه. ولا يصير القانون قانوناً بدون تصديقه. ومفروضٌ حضوره في كل محكمة. وهو قادر على العفو عن جميع المجرمين. ولا سبيل الى مقاضاتهِ او محاكمته على ذنب. لكن هذه الامتيازات كلها صورية فقط لم يسبق للملك أن استعان بها او أمر بامتحان قوتها. لان الملوك في كل مكان رضوا بالتخلي عن كثير من امتيازاتهم الداخلية، ورضوا بالتجويف التام لمركزهم العالي كي يحتفظوا بالسلطة الظاهرة والضمان الخارجي

على ان الملك الانكليزي مع افتراض حضوره قانوناً في كل محكمة لا يستطيع طبعاً ان يحضر بنفسهِ. وقد امتنع الملوك من عهد فكتوريا عن حضور المناقشات في مجلس النواب. وهم لا يشهدون المجلس الاّ يوم افتتاحه فقط عند تلاوة خطاب العرش. وفي نهايته ينصرفون

ولكن لا يجوز لاحد الوزراء والنواب ان يشير ولو من طرف خفي اثناء المناقشات الى ما هي رغبة الملك او رأيه في موضوع البحث. ففي اجتماع ١٧ ديسمبر ١٧٨٣ قرر مجلس الامة البريطاني: « ان اذاعة رأي حقيقي او مزعوم لجلالة الملك في اية مناقشة كانت من مناقشات المجلسين الاعلى والادنى بقصد التأثير في الاقتراع يعد جرماً كبيراً مضرًّا بشرف التاج ومخالفاً لاساس الامتيازات النيابية ومزعزعاً للقانون الاساسي »

ولما قال النائب بيرني في احدى الجلسات سنة ١٨٠٨ ان احد زملائهِ كان «قد خالف رأي البلاد في خطابه ورأي المجلس وفي اعتقادي رأي الملك» انتهره الرئيس ونبههُ الى ان لا حق لهُ في ادخال رأي الملك الشخصي في المناقشة

في عهد الملك جورج الثالث كان مفروضاً رسم خاص على كل من يعبر جسر هنلن. وكان

الملك يصطاد الغزلان مع رفاق لهُ . فانقسموا شطرين وطارد احدهما غزالاً الى ضفة النهر . فسبح الغزال الى الضفة الثانية . واسرع مطاردوه الى الجسر. ولما خشوا من التوقف لدفع رسم المرور أن ينجو الغزال بنفسه في الجهة الاخرى صاحوا بحارس الجسر : « الملك . الملك » . ففتح الحارس الباب على مصراعيه . ودخلوا كلهم بدون رسم . ولكن بعد هنيهة جاء الملك نفسهُ ورهطهُ وقالوا للحارس : « افتح الملك » . فرفض الرجل قائلاً ان الملك سبقهم ومرّ وبعد اللتيا والتي أفهموه انهُ مخدوع ففتح الباب متكدراً وقال : « ان مرَّ من هنا ملك فرنسا فلن أفتح لهُ » . على ان الغزال الذي كان الملك ورهطهُ يطاردونهُ نجا بحياته اثناء الجدال . فغضب الملك واستدعى حارس الجسر ليوبخهُ . لكنهُ عاد فاقتنع بصحة كلامهِ ودفع لهُ الرسم المعين عن اربعين من رفاقه

وبعد يومين مرَّ جورج الثالث من هناك وعبر الجسر صامتاً من مركبته بالحارس « ان ملك فرنسا لن يمرَّ اليوم من هنا »

وملك انكلترا بعد صاحب مهود الانهر كلها . وصاحب الجزر التي تكون على شواطىء بلاده . ولهُ الحق الخاص دون غيره في طبع التوراة وكتاب الصلوات الانكليكانية . وكل سمكة « سلطان ابرهيم » (بوربوني) يصطادها الصيادون تكون لهُ . وكل حوت يكون رأسهُ لهُ وذنبهُ للملكة بمقتضى القانون البريطاني

ثم ان الملك ادوارد السابع وحده كان كاهناً بحسب طقس الكنيسة التابع لها . يأخذ جثياً واحداً في السنة من كنيسة القديس داود في ويلس لقاء حقه في القاء عظة واحدة كل سنة من فوق منبرها . وكان محامياً قانونيًّا . ودكتوراً في الطب . على انهُ لم يراقب بتاتاً في قضية لعجزه بمقتضى القانون عن الحضور الذاتي في المحاكم . ولم يطب احداً لان احدى الجامعات اهدت اليهِ لقب دكتور طب ، وهو اسمى من هذا العلم

ومما يستحق الذكر ايضاً ان لملك انكلترا حقًّا قانونيًّا في ان يمنع ايًّا كان من رعاياه من مغادرة البلاد . وان يستدعي ايًّا كان منهم اليها . لان الدفاع عن الملك حقٌّ له على جميع رعاياه ولكن ليس له ان يخرج انكليزيًّا من انكلترا رغم انفه لهذا الغرض . فحق الدفاع عن ملك انكلترا يتناول انكلترا وحدها لا خارجها

وبالتالي كل انكليزي يخرج من بلاده للدفاع عن حقوق العرش والتاج يفعل ذلك من لطفه وكرم اخلاقه بمقتضى القانون الاساسي اذ لا حق في ذلك للملك عليه

ويعلم الله ان الانكليز قد تلطفوا كثيراً مع ملكهم بخروجهم المتواتر حتى جعلوا الشمس لا تغيب عن املاكه

باب المراسلة والمناظرة

نظرات في مجلة لغوية

مختار الصحاح

للأب أنستاس ماري الكرملي
عضو مجمع اللغة العربية الملكي

١ — تمهيد

ألف الجوهري معجمه (الصحاح)، فذاع بين الناس ذيوعاً عجيباً وأصبح حجة، يستشهد به كل من أراد ان يدعم كلامه بدعامة متينة، او يصحح، او ينزّهُ قوله عن كل شائبة أو شائنة. ولما شاع في أندية الأدب، ومجالس العلم، حسده عليه جماعة، وحاولوا ان يحطوا من منزلة صاحبه، لكن ذلك النقص زاده علاء وسلطة على من ساوره وعاداه. فكان كل ما أخذوه عليه: «قذيفة شيطان رجيم رمى بها».

وأخذت طائفة أخرى تصنف المعاجم، ومن وقت الى وقت تشير فيها الى ما في الصحاح من المغامز والاوهام، فلم يؤثر ذلك النقد الى ما في بحار الجوهري من الدرر واللآلىء، بل الفرائد الغوالي، وبقي تصنيفه عالي المقام، كما ان القمر، لا يناله الضرر، اذا ما عابه الاطفال، أو شتمه الاذلال

هذه هي منزلة ابي نصر اسماعيل من البصراء وفقهاء اللغة. ثم جاء الامام زين الدين بن محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي في المائة السابعة للهجرة، (وهي المائة الثالثة عشرة للميلاد) واختصره اختصاراً حسناً سماه: (مختار الصحاح)، فاتخذه كل متفقه أو أديب يجتزىء بالوشل عن الفيض، وبالقل عن الكثر، فتخلل الطلبة والمتعلمين الى المدارس، وتناولته أيدي الكبار والصغار، لأن صاحبه وضعه على طرف الثمام

وقد نسخ هذا السفر مراراً لا تحصى، وترى منه أمثلة في البلدان العربية اللسان، لا بل في الديار الاعجمية، كايران والهند وربوع الترك، وارجاء الافرنج، ومطارحهم. وكذا يقال عن طبعه، فانه نشر في اصقاع شتى، وأفاد مطالعيه الفوائد الجلى. وأحسن طبعاته ما برز بحلة قشيبة في المطبعة الاميرية العامرة من وادي النيل المبارك، على ما رتبه صاحب العزة محمود خاطر بك، وقيده بالشكل الكامل صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية سابقاً، وعني بتصحيحه وتنقيحه وتعليق بعض حواشيه حضرة الزميل الصديق صاحب العزة الشيخ احمد بك العوامري، من أعضاء

مجمع اللغة العربية الملكي . ولهذا السبب قررت وزارة المعارف العمومية المصرية طبعه على نفقتها ، واستعماله في المدارس الاميرية ، فجاء تحفة من التحف يفاخر بها أرباب فن الطباعة ، وأبناء المدارس

ولما كان هذا المعجم في منتهى النفاسة ، مع ما عليه من صغر الحجم ، كان من الحق ان يخلو من كل شائبة ، او وصمة ، او عيب أيًّا كان . وقد رأينا في طبعته هذه ، بعض المغامز نود ان لا تكون فيها في الطبعة الجديدة الآتية ، ونفضل نشرها في المقتطف لما نالت هذه المجلة من الانتشار في الآفاق ، والذيوع بين ظهرانيّ المتمين الى الأدب الصحيح وعشاق اللغة المضرية

ونحن لا نتكلم هنا الا عن اخلاص نية ، بغية الانتفاع بهذه الفريدة الحريدة صادق الانتفاع ، وسعياً لان يكون آية من آيات التحقيق والامعان في التدقيق

٢ — ملاحظات عامة

قال مرتب الديوان في المقدمة التي صدره بها ما هذا بعضه بحروفه : « هذا وقد آتى على (المختار) من تحريف النسخ والطبع ، ما تنكرت معه صورته ، ورثى له من أجله صاحب العطوفة الهمام ، « حسين فخري باشا » ، ناظر المعارف العمومية ، وصاحب السعادة « يعقوب ارتين باشا » وكيلها المفضال ، فاستقر رأيهما على اعادة طبعه بنفقة المعارف ، وعهدا في تصحيحه وضبطه الى حضرة فضيلة الاستاذ الثقة اللغوي « الشيخ حمزة فتح الله » المفتش الاول للغة العربية في النظارة ، ورغب سعادة الوكيل المشار اليه ان يتم الفائدة من الكتاب ، وان يسهل على الطلبة تناوله ، فرأى ان يكون على اعتبار الحرف الاول والثاني كما هو ترتيب المصباح ، للامام الفيومي ، وان ترد الى كل مادة مشتقاتها التي يصعب على الطالب ردها اليها ، مع حذف ما لا ينبغي ان يطرق مسامع النشء ، بشرط المحافظة على أصل الكتاب وقد تم بحمد الله تعالى وفق المرام » اه

فهذا كلام يدل على ان في (المختار) تحريفاً كثيراً ، منه ما وقع من قلم النساخ ، ومنه ما جاء من الطبع . ولهذا عني العلماء المذكورون فوق هذا بتصحيحه ، واعادة نصه الى نصابه بما في الامكان — الا ان هذا العمل او هذا المسعى الحميد لا يقفنا على ان التهذيب موافق للاصل ، او مقارب له ، اذ لم يذكر لنا ان المصلحين عثروا على نسخة الاصل ، او على نسخة منقولة عن الأم . وكان يحسن بالناشرين او الطابعين ، ان يبحثوا عن مخطوط ، تكون احدى مزاياه ، هذه الحلة الكبرى ، اي ان يكون من نسخة هي ابنة الأم

وقد حصلنا نحن على مخطوط محلى بهذه المزية . ولهذا نرى من المستحسن ان ننشر بعض فصول تفيد متولي تدبين الأدباء ليستفيدوا منها اذا ما حاولوا اعادة طبعه . وقبل ان نشرع في الكلام ونتصدى للغاية التي نرمي اليها ، يحسن بنا ان نقول كلمات ، توطئة للبحث فنقول :

كان يجدر بالناشر او الناشرين ان يقولوا كلمة على النسخة التي اعتمدوها لطبع الكتاب ، ويذكروا اسم ناسخه وسنة التي كتبه فيها . وإلا فمجرد اخراجه للقوم بهذه الصورة ، لا يوحي الثقة في صدر المطالع فيه

وكان يستحسن ايضاً ان يصدر السفر بترجمة المؤلف ، ترجمة مختصرة ، يذكر فيها ايضاً ولادته ومسقط رأسه ويوم وفاته ومنزلته من اللغة وبعد هذا انتقل الى تدوين بعض النظرات

٣ — نظرة عامة في النسخة المطبوعة

١ — نظرة اولى في رسم الحروف

حروف المطبعة الاميرية المصرية « الخالية » مشهورة بانها من ابدع الحروف ، ومن اجمل الخط فهي لآلىء تزري بدر البحار — ان صغارها وان كبارها — الا ان فيها عيباً ، هو انها لا تنقط الياء التي تختم بعض الكلم ، وهي تفعل ذلك « قصداً وعن عمد » لا عن محض اتفاق . وكذلك تفعل اغلب مطابع الديار المصرية ، واغلب طلبة المدارس والعلماء في ربوع وادي النيل ، زاعمين ان سبب اهمال النقط شهرة الالفاظ ولاسيما لان التنقيط وضع للذين لا يحسنون القراءة او انه يهين القارىء كأن الكاتب يحاول ان يبين جهل القارىء . فلو كان الامر كما يدعون فليهملوا تنقيط جميع احرف الكلمة ، او لا اقل من ان تهمل الكلمة التي فيها ياء في رأس اللفظة او في قلبها او حشوها

وقد كتبنا مرة في (المقتطف) الاغر ، وفي رسالة خاصة ، ان اعظم علماء العربية وأمعنهم في أسرارها لا يتمكن من قراءة بعض العبارات ، ان لم يقرأها مرتين او ثلاثاً ، بل ربما لا يمكنه ان يقرأها البتة ، ان لم ينقط آخرها ، ان كان فيها ياءات . وقد عرضنا عبارة واحدة على عدة متبحرين في احكام اللغة واصولها فما اهتدوا اليها ولن يهتدوا ، ان لم يؤخذ بالاصلاح الذي نشير اليه ، ولا بد منه يوماً ، ولو طال الامد

زد على ذلك ان هذا الاهمال سبب اغلاطاً جمة في اللغة ، ووسع مدى التصحيف والتحريف فلا نعود الى هذا الموضوع ، وقد قتلناه بحثاً في ما كتبناه سابقاً ونتمنى ان تجاري مطابع ربوع ديار الفراعنة ، مطابع سائر البلاد العربية اللسان ، كسورية ، ولبنان ، وفلسطين ، والعراق ، الى غيرها ، فيسهل على المطالعين ، قراءة تلك الكلمات ، من غير ان يتعبوا النظر فيها ثناء وثلاث ورباع ، ليهتدوا الى القراءة الصحيحة التي ارادها الكاتب

وليأذن لنا ناشرو هذه النسخة ايراد مثل واحد من هذا المعجم المفيد . فقد جاء في مادة (د م ا) ما هذا نصه : « ... وتصغير الدم (دمى) وجمعه (دماء) » وضبطت (دمى) بضم الدال وفتح الميم . والذي يعهده القارىء ان (دمىٌ) جمع دمية وزان غرفة وغرف . وتصغير دم : دمي ، بضم الدال وفتح الميم وتشديد الياء المنقوطة فلو كانت الياء الخاتمة الكلمة منقوطة ، لكانت تقرأ (دُمَيّ) ولو لم تضبط اللفظة باي حركة كانت ، لكن اهمال تنقيطها ،

فحار النظر في امرها . وكذلك الشكر . فانظر بعد هذا الى ضرورة وضع التنقيط

وقائل يقول : لو كانت الكلمة تقرأ (دمى) جمع دمية ، لوضع التنوين على الميم ، فوضع النحاة وحدها عليها ، يدل دلالة صريحة على ان الياء التي تليها تقرأ (دميّ) اي بضم الدال وفتح الميم وتشديد الياء . — قلنا : ولماذا ضبط الكلمة بالضم والفتح « ورشّ الكلمة بالبارز الكزبرة والحبة السوداء » في حين اننا نختصر كل ذلك ، بتنقيط الياء فقط ، فنخفف على الطابع تشكيل حرفين ، ونقتصد في الوقت ، وندفع عن منقح مسودة الطبع (كما يقول العراقيون او التجربة كما يقول المترجمون في مصر ، او البروفة ، كما ينطق بها عمال المطابع) اذ كثيراً ما يقع المنضد في الوهم حين يكثر بين يديه تقييد الالفاظ . افليس الاحسن ان نختصر كل ذلك بتنقيط الياء — هذا الحرف المسكين المظلوم الذي يبخس حقه بعض الادباء على غير أم اجترحه — زد على ذلك ان تشكيل اللفظة بالصورة المعهودة ينشىء سطراً جديداً هو سطر الحركات والضبط ، فوق السطر الاصلي الذي هو سطر الاحرف . اوليس الاحسن ان ننقط الياء — وتكون هذه الياء المنقوطة متيسرة لنا في منازل سائر الحروف التي في صندوق الطبع — فنخفف على القارىء ايضاً عناء اشغال النظر والفكر ونحن في منذوحة عنه

هذا مثال واحد لا غير من آلاف امثلة لا تحصى . ونحن نشفق من الاسترسال في هذا البحث ، حرصاً على الوقت وامتناعاً من ان نعل ماء مشرعة كنا نهلناه في ما تقدم من العهد

ب — نظرة ثانية في رؤوس مواد المعجم

واما بنتنا الثانية او نظرتنا الثانية ان يكون اصل الكلمة ، او رأس ترجمتها بحرف ممتاز ربان ، او ضخم ، حتى يسقط طائر الناظر او الباحث عن المادة ، سقوطاً قاصداً ، من غير ان يتصيدها في مطاويها او مثانيها . انظر الى المطبعة الاميركية في بيروت ، فانها جارت المطابع الافرنجية جميعها التي تتخذ الحرف الضخم الممتاز في رأس كل مادة من مواد المعاجم التي تتولى نشرها . (قالبستان) مطبوع على هذا الغرار ، وهو آية في الطبع ، لا في التحقيق . وما يطو اصل المادة مطبوع بحرف ادق . وهكذا يفعل جميع اهل الغرب في طبع معاجمهم من صغيرة او كبيرة ، فاذا راجعتها على اختلاف قوميات اصحابها ، فانك تلفيها جميعها على هذا الاسلوب البديع الذي اصبح ضرورياً في هذا العصر الذي يرمي دائماً الى التسهيلات والمريحات وحسن الذوق وجمال المرئيات ، بل اصبح مثل هذا الطبع من اهم ضرائر المطبوعات في عهدنا هذا . والمعجم المنشور بهذه الحلة البديعة يرغب الناس في شرائه ولو لم يكن الشاري من القراء ولا من المحققين وقد تنفق سوقه — ولو كان الكتاب مشحوناً اغلاطاً — وتكسد سوق الكتاب الصحيح التأليف ، او القليل الاوهام لانه لم يحل بهذه الحلية العصرية . والاختبار احسن دليل على ذلك ، او احسن داع لنشره . فعسى ان لا نبقى في آخر الرعيل في هذا الامر وان نجاري الافرنج فيه كما جاريناهم في شؤون لا تحصى

ج — النظرة الثالثة في الحروف المكسورة

يشوه بعض المطبوعات — ولا سيما المصرية منها ، كأن هذه المزية لحقتها دون سواها — الحروف المكسورة . وهذا امر يجب ان تلافاه ولا تبقي له اثراً . خذ اي معجم كان من معاجم اللغة الانكليزية او الفرنسية او الايطالية او الالمانية ، وفيها مئات الصفحات ، بل الوفها ، ولا تصيب فيها حرفاً واحداً مكسوراً او ممحواً او مقلوباً رأساً على عقب ، او معيباً باي صورة كانت ، بل ترى العكس ، اذ تجد جميع السطور كسطور الحسان ، بينة التناسق صحيحة ، سالمة من كل علة ولو طفيفة ، بل لا عوج فيها ولا امت . زد على ذلك ان حروف دواويتهم اللغوية ادق بكثير من حروف اسفارنا . وكنا نتوقع ان نشهد هذا العيب في مطبوعاتهم لا في منشوراتنا ، والسبب واضح لان حروفهم دقيقة وتختل مما يكاد يسمى « لاشيء » ومع ذلك فالامر بخلاف المنتظر

هذا (مختار الصحاح) فليس فيه إلا ٧٤٥ صفحة ، وقد وقعنا فيه على حروف مسحوقة او مهشمة تنيف على المائة . اليس هذا مما يعاب عليه ويشين محاسنه . ومصداقاً لقولنا نذكر هنا بعض هذه المشوهات ، مشيرين هنا الى صحته ويبقى على القارىء مراجعة الاصل لاصلاحه ونشير بالرقم الاول الى الصفحة وبالثاني الى السطر ، ولا نعنى بذكر العمود لان السطور متوازية بعضها لبعض . وكل املنا ان لا يعود الى هذا السفر الجليل مثل هذا التشويه . ودونك شيئاً من تلك الامثلة :

سُمّي الاسير ١٦ : ٣ — وسمي البدر بدراً ٤٣ : ١ — عليها ٦٤ : ٩ — تأخرت ٧٣ : ٢٠ — استطرادي ٩٠ : ٢٠ — ام زوجها ١٥٨ : ١١ — سمي ١٦٥ : ١٤ — تضربان ١٧٩ : ١ والخلفة ١٨٥ : ١٧ — والجنة ٢٠٣ : ١٩ — الموالاة ٢٤١ : ١٠ — فرضي ٢٤٦ : ٢ — الحدي — ٣١٣ : ١٩ — مازلنا ٣١٦ : ٢ — عذاب ٣٢١ : ١٣ — الهروي ٣٢٤ : ١٩ — وترنم ٣٣٢ : ١٧ — والمصوبة ٣٧٢ : ١٥ فقل ٣٧٢ : ١٦ — الحطب ٣٨٠ : ٧ — نبياً ٤١٠ : ٥ — تشبه ٤٢١ : ١٠ — بنات ٤٢٣ : ١٩ — الشيء ٤٢٥ : ١٧ الظلام ٤٤٨ : ١٣ — زيداً (مكررة في) ٤٥٣ — الشيء ٤٥٩ : ٧ — عيال ٤٦٦ : ١١ — معي ٤٦٧ : ٨ — وقضي ٤٨٤ : ١٣ — كناية ٥١٢ : ١٩ — يمين ٥١٣ : ١٢ — والجهلة ٥١٣ : ١٥ — مفيض ٥١٦ : ١٥ — وزيد ٥١٧ : ١٥ — الشيء ٥٢٤ : ٥ والاذلة ٥٤٩ : ٥ — قوام ٥٥١ : ٧ — اتجمع ٥٨٥ : ١٧ — زيداً ٦١٠ : ١١ — ثمن ٦٣٠ : ٢٠ — التؤدة ٦٣٨ : ١٥ — والمحدثون ٦٤٤ : ٧ ونلا ٦٥٢ : ٥ — ومجيتها ٦٩١ : ٤ — معناه ٤٠٢ : ١١ — من اديم ٧٢٣ : ٧ الكسائي ٧٣٩ : ١٩ — وايقظه ٧٤٣ : ٥ — تحالفوا ٧٤٥ : ٣

فهذه خمسون كلمة مكسورة الحرف فتجتزىء بهذا القدر عن ايراد الكل ، اذ به ما يؤيد ملاحظتنا . وكفى

د — النظرة الرابعة في رسم الهمزة

لم نر كتابا اختلف كاتبه في رسم همزة كلمه مثلما القيناه في هذا السفر الجليل ، فان طابعه صور الهمزات بخلاف القواعد المتعارفة عند الاقدمين من البصراء بالكتابة وتجويد الرسم . والغريب في هذا الامر ان الناشر لم يخالف السلف وحسب في هذا الاسلوب ، بل ناقض نفسه بنفسه ، ولم يجر ابداً على اصول متبعة ، وربما انحاز الى مذهب طائفة لم يتفق عليه اغلب الصرفيين ، بل سار وراء بعض المتفردين في آرائهم ليشار اليهم بالبنان ، مخالفتهم « اغلب » ارباب رسم الهمزة

فاما ما اختلف الناشر في تصويرها مع نفسه فكرسمه لاسرائيل واسرائين (في اسر) وجبرائيل (في مادة روح) بالوجه الذي ذكرناه هنا وهو الوجه الشائع عند اغلب الصرفيين وقد خالفه في تصوير ميكائيل وميكائين في مادة (م ك ا) بهذا الرسم الغريب المنقول عنه . وكذلك فعل في اسرائيل فانه من بعد ان صوره بهذا الشكل خالفه في ص ١٦ : ٤ — وص ٢٨٣ : ١ — و٢٩٨ — و٢٩٨ : ٣ — و٦٣١ : ٢ و٣ — الى غيرها ولم تفهم سبب هذا الاختلاف في الكلمة الواحدة — والمشهور ماذكرناه اي ان الهمزة ترسم على صورة الياء وهكذا وجدناها في النسخة المنقولة عن الام

واما رسم الهمزة الذي خالف به القاعدة المطردة عند ارباب اصول اللغة فيرى في كثير من الالفاظ ونحن نذكر بعضها مشيرين الى ان الناشر رسم الهمزة الواردة في حشو الكلمة « على خط صغير مستقيم كالسين غير المسننة بل المبسوطة بسطاً . هذا اذا كان ما قبلها مفتوحاً . اما اذا كان ما قبلها ساكناً او مضموماً فيخالف طريقته هذه فمرة يكتبها بلا قائمة تقوم عليها بل وحدها بين حرفي الكلمة ومرة يرسمها على خُطَيِّط مستقيم واحياناً على صورة الياء . فالقارىء يعارفي هذه التيه الذي دونه تيه بني اسرائيل . ونحن نسرد هنا بعض هذه الحروف على ما جاءت بالصورة الواردة في هذا الكتاب :

مُؤد (ص ٣٢) — يُؤل . مُؤف (٣٣) — توءمان (٧٤) كُؤوداً (وردت مراراً بهذه الصورة كما في ص ١٨٢، ٣٦٣، ٥٦٠ — ورءوسهم في ١٨٣ و٢٦٨ و٢٩٢، و٦٠٩ و٦٨٠ الى غيرها — تُؤل ١٩٨ — مذءوم ٢١٨ — مراءون ٢٢٧ — ظُؤور ٤٠٣ — أظْآر ٤٠٣ — ملجؤه ٤٦١ — كُؤس ٥٦٠ — مُؤتة ٥٧٥ كتبت مرتين اخريين في ص ٦١٢ ومرتين في ٦٤٠ و ٦٣٧ — الأماق ٦١٢ — آبار ٦١٢ — تمرياً ٦٦٠ — تمالؤا ٦٣١ — المشؤم ٦٧٩ — تَؤوم ٦٨٦ ومن الغريب انه كتب هؤوراً في ص ٧٠١ ولم يكتبها على مألوف عادته هُؤوراً . وكتب

موءودة ٧٠٥ — النشور ٧٢٣ — تواطئوا . وطئاً ٧٢٧ — ونشاً ومرفؤها ٧٣٧ — يئوس ٧٣٠ الى غيرها مما يطول تعدادهُ

***

اما القاعدة العامة التي قررها الواقفون على احكام العربية وأصولها المتينة فنستخلص فيما يأتي . قبل ان ترسم الهمزة حاول ان تليّنها — اذا كانت في الوسط ، الى أحد احرف العلة ثم اكتبها على صورة الحرف الطيل الذي أمثلها اليه . وان لم تحل أكتبها بلا عماد ، اي وحدها بلا حرف علة . اما اذا كانت في الاول فارسمها على الالف بلا شاذ . واما اذا كانت في الآخر ، فان سبقها حرف متحرك فاكتبها على صورة حرف علة يجانس حركة ماقبلها . واما اذا كان ماقبلها ساكناً ، فارسمها قائمة بنفسها اي بلا حرف عليل ، ودونك الشواهد على ذلك

(الهمزة في الأول) : أَخَذ وأُخِذ وإخاذة

(الهمزة في الوسط) — الساكنة مثل يُؤمنون ويأتمنُ ، ومِئْر

(الهمزة المتحركة وهي في الوسط) : مؤود ، ومُؤونة وفيئة — ونؤام ونِئاس وتؤمن ، وأطآر — سؤول مِئين ، ميئات . سُؤال وذِئاب . وسآمة — جبرائيل ، ورائيم ، راؤول

الهمزة في الآخر : شنُؤ وبرِيء وأبرأ — شيء وسُوء وراء وخبء

فرسم هذه الهمزات بالرسوم التي خططناها هنا منقولة عن مختار الصحاح وعن الصحاح نفسه . ونسخة هذا الكتاب ايضاً منقولة عن الأم للجوهري

ولهذا لا تكتب شؤون الاّ بواوين وعلى الاولى همزة . ومن صورها على الياء فقد اخطأ وابتعد عن رسم الاقدمين لها وهو الرسم الصحيح الذي لا غبار عليه

***

ولا ننس ان تصوير الهمز على ماينبغي هنا هو الذي انشأ لنا كثيراً من الالفاظ التي نقلت الينا بحروفها العليلة اي غير مهموزة بسبب تليينها مثل الخطيئة فانها تركت لنا الخطية غير مهموزة، والذؤبون : الذوبون بواو ممدودة ساكنة ، والقانىء : القاني ، والدؤلي : الدولي ، ومساوئه : مساويه . ومن مضارع يؤكد ويؤرخ ونحوهما جاءتنا التواريخ والتواكيد . الى آخر ماجاء من هذه الاشياء السهلة الكثيرة العدد

(الباقي للآتي) الاب انستاس ماري الكرملي

باب الأخبار العلمية

السيلوتكس

Celotex

خشب يصنع من مصاصة القصب وخواصهُ العجيبة

ما انتشر مقتطف ابريل الماضي بين مشتركيه وقرائه حتى جاءتنا استيضاحات شتى بشأن مقال السيلوتكس اي الخشب الصناعيّ الذي اشرناهُ فيه بقلم عوض جندي الكاتب المعروف لقرائنا فرأينا لزاماً علينا استجابةً لاستعلاماتهم أن نتقصى الموضوع من سائر نواحيه فنقول : —

قد شاهدنا الواح السيلوتكس فاذا بها مختلفة طولاً وعرضاً وثخانة ولا يزيد ثمن المتر المربع منها على ١٢ قرشاً صاغاً ومقاييسها كالآتي : — العرض ٣ و ٤ اقدام والطول ٧ و ٨ و ٨ ½ و ٩ و ١٠ و ١٢ قدماً والثخانة نصف بوصة وكل ١٠٠ قدم مربعة منهُ تزن نحو ٦٠ رطلاً انكليزيًّا . ودرجة توصيل السيلوتكس للحرارة تكاد تساويها في الفلين الصرف . والسيلوتكس لا يحتوي على غراء . ويكتسب السيلوتكس قوته من تماسك الياف . وفي أثناء صنعه تجعل تلك الالياف مسيكة لكي يصير اللوح كله المصنوع منها مقاوماً للمياه في جميع ثخاناته . فاذا ادهن اول (وجه) دهنة من البوية ، صلح جدًّا لواجهات المباني . ويمكن تبييض السيلوتكس بالجبس والمصيص او بتشبيهِ بطبقة تؤلف من جزء واحد من المصيص وجزءين من الجير . وعلمنا ان مصنوعات السيلوتكس عرضت نماذج منها وبعض صورها الفوتوغرافية في المعرض الزراعي الصناعي الذي اقيم في شهري فبراير ومارس سنة ١٩٣١ بالجزيرة بضواحي القاهرة حيث نصب كشك كلُّهُ من السيلوتكس وزخرف زخرفة انيقة أُعجب بها زائروه أجمعون ولا سيما حينما علموا انهُ يقاوم الحريق اكثر من الخشب الطبيعي مائة مرة لخلوه من المواد الراتينجية التي تساعد على سرعة التهاب الخشب الطبيعي وانهُ لا يتعرض للتسوس ولا لغيره من عوامل الفناء ، فضلاً عن رخص ثمنه . والواح السيلوتكس الكبيرة تلصق بالقار أو الزفت على مباني الخرسانة المسلحة لوقاية السقف من أُوار الشمس والطريقة المثلى المستعملة الآن لذلك :

ان ينظف السقف المراد وقايته من الحرارة الشديدة ومياه الامطار الغزيرة ، تنظيفاً جيداً من التراب وغيره من الاقذاض ، وتبسط فوقه طبقة من الزفت السائل

الساخن . تسحق بها انواع السيلوتكس بحيث يترك بين كل لوح والآخر فراغ دقيق لا يجاوز ربع سنتيمترات على ان يملأ هذا الفراغ ايضاً بالزفت ويلصق فوقهُ شرطٌ من البفتة السمراء المعروفة باسم الدمور او من الكتان عرضها عشرة سنتيمترات . ثم تغطى الواح السيلوتكس بطبقة من الزفت ايضاً يلصق فوقها نوع من الورق المشمع يسمى سيزالكرافت Sisalcraft وهو ورق متين جداً لا يمكن تمزيقه ولا يخترقهُ الماء ولا الهواء ومعالج بطريقة كيميائية تحول دون استهدافه للتسوس والتعفن والفطر ويساوي المتر المربع منهُ ٢٥ مليماً . وهو مؤلف من طبقتين ملصقتين بالقار . ويغطي السيزالكرافت بطبقة من الرمل يوضع فوقها بلاط السقف المعتاد . وبهذه الوسيلة تصبح درجة حرارة البيوت المسقفة بالسيلوتكس أقل من غيرها نحو ست درجات سنتيغراد . وقد استعمل السيلوتكس في الاسكندرية لوقاية سقوف عدة مبانٍ ومنها عمارة المؤسسة وفندق سبسل وكلية فكتوريا والمستشفى الايطالي وتكنات مصطفى باشا وغيرها واستعمل في القاهرة في كابينات التليفونات وقاية لها من ضجة الشوارع وفي مستشفى رعاية الاطفال والولادة وعمارات وسبنا توغراقات جمة ومنها أوليمبيا ورويال وديوللي بلاس . وذلك إما للتسقيف وإما للزخرفة وإما للحشو وإما لاخفاء الضوضاء الخارجية وتحسين سمع الاصوات الداخلية . وقد بنى بالسيلوتكس بيت في الصحراء للمهندسين المقيمين بمنجم السكري لاستخراج الذهب فوقاهم وهج الشمس المحرقة هنالك . فعسى ان تهتم الحكومة المصرية او بعض كبار رجال المال والاعمال في هذه البلاد باقامة مصنع للسيلوتكس من مصاصة القصب وعيدانه المحصورة ، فنستغني عن استيراده من الخواجه يوسف أبرام وكيل الشركة الاميركية بشارع الكنيسة الجديدة رقم ٦ بالقاهرة والخواجه مكس ريبو ٣٨ شارع سعد زغلول بالاسكندرية

البصاصة الكهربائية
تحرس السجون بدلاً من حراسها

جاء في أحدث الانباء من اميركا ان البصاصة الكهربائية قد جربت لتحل محل الحراس الذين يغدون ويروحون تجاه أسوار السجون . وذلك أنهُ متى حاول مجرم الهرب بتسلق حائط السجن تطلق البصاصة عليهِ نوًّا مدفعاً فيجدلهُ في مكانهِ . وفي الوقت نفسهِ تطن البصاصة الكهربائية ضباط السجن بالحادث . وذلك بأن تسلط عليها شعاعة من الضوء تمتد فوق سور السجن فاذا اعترض ظلُّ السجين الفار تلك الشعاعة أثارت نوًّا البصاصة الكهربائية فتتم الدائرة الكهربائية في باطنها ومنها ينبعث التيار الكهربائي المتصل بالمدفع فيسدده على قمة السور ويدق جرس التنبيه في الحال والبصاصة هي البطرية الكهرنورية

فعل تفعل الاعصاب فعل الغدد

الجهاز العصبي يفعل فعل الغدد كذلك والخلايا العصبية تفرز مواد لها فعل فسيولوجي قوي كما تفرز الخلايا التي في الغدد الدخامية والدرقية والكظرين وغيرها

هذه حقائق كانت معروفة عند العلماء في حياة الحيوانات الفقرية ولكن بحث الدكتورة برتا شارر وهي عالمة المانية يدل على انها تنطبق كذلك على الحيوانات غير الفقرية

كان العالم الالماني كرول في مقدمة من وجه النظر الى وجود مفرزات شبيهة بالمفرزات الغددية في داخل الدماغ ثم جاء العالم الاميركي الدكتور باركر احد علماء جامعة هارفرد فأثبت وجود مفرزات في اطراف الاعصاب دعاها المائيات العصبية (نوروهومر)

وتلا ذلك بحث واسع النطاق عن الخلايا والانسجة المفرزة في المراكز العصبية نفسها. وقد امتد نطاق هذه البحوث حتى شمل بلدانا كاسبانيا واليابان

وكان في مقدمة الباحثين هذه العالمة الالمانية الدكتورة شارر. فكشفت عن خلايا اطلق عليها اسم الخلايا العصبية الغددية وثبت انها كثيرة الانتشار في الجهاز العصبي في الحيوانات الفقرية

وفي السنوات الثلاث الاخيرة عنيت الدكتورة شارر ببحث هذا الموضوع من حيث علاقته بالحيوانات غير الفقرية كالديدان والحشرات والمحار وغيرها وكانت هذه الحيوانات تلتقط من اماكن متباعدة على سطح الكرة الارضية

وقد وجدت الخلايا العصبية المفرزة في الانسجة العصبية في جميع هذه الحيوانات

هذه الخلايا لا تختلف على شريحة المكرسكوب عن سائر الخلايا العصبية ولكن عندما تعالج بالمواد الكيماوية يظهر حول نواها ما اطلقت عليه الدكتورة شارر «قطيرات الافراز»

وهذا باب جديد في تركيب المادة الحية لا نعلم مدى ما يفضي اليه في المستقبل

البصاصة الكهربائية

معوان لدرس الحشرات

توصل عالم من علماء جامعة يايل بطائفة من الآلات الكهربائية الى اثبات نظرية كون المواد العضوية المعروفة باسم الحشرات ذات تأثير كيماوي مباشر في حل المواد التي تستعمل غذاء، وفي احداث تخميرها. وكانت البصاصة الكهربائية من هاتيك الآلات فبينت التفاعلات الكيميائية الناشئة من ذلك التضخيم ويقوم بتسجيلها من تلقاء نفسه جهاز الالكتروكارديوغراف، وهو الرسام الكهربائي الذي يرسم حركات القلب البشري

اكتشاف قعر اليم بالراديو المبصر

اخترع عالم في ولاية آيوى بأميركة عيناً لاسلكية تكشف مكنونات قعر البحر، من سفن محطمة وكنوز غريقة ثم تُنقل صورها الى آلة لاقطة توضع على ظهر باخرة الاستكشاف فتسهل أعمال مستكشفي أعماق البحار حيث يقوم المركب الرائد بسبر اللجج. وتركب العين اللاسلكية في وعاء كشاف لا يدخله الماء وهو شبيه بشكل الناقوس « الجرس » ويمكن توجيهه الى اية جهة وذلك بتحريك الاسلاك الاربعة الحاملة له. ويضاء قعر البحر بفوانيس كهربائية قوية ذات نوافذ كثيفة من البلور الصخري ينبعث نورها فيبين الاشياء جيداً بوساطة طائفتي العدسات الكشافة المثبتة في الوعاء الحديدي الشبيه بالناقوس، ومن ثم تستحيل صور الاشياء التي في قعر اليم الملتقطة بالآلات الكشافة؛ نبضات كهربائية فتضخم وتجدد بسلك موصل الى جهاز من اجهزة الراديو المبصر المستقبل يوضع في حجرة « قمرة » من الحجر التي على ظهر المركب حيث تؤلف الصورة تأليفاً جديداً وتعرض من عدسة على ستار لصف شفاف للمشاهدة. وذلك بمساعدة مجموعة من المرايا الثائثة. ثم يطبع من المشاهد المنقولة بالراديو المبصر شريط ثابت مسجل وذلك بتصوير ستار المشاهدة بآلة تصوير السينما

ويتوقع المخبرون بأن هذا الجهاز سيمنع اخطار الغوص ويقلل نفقات استكشاف الاعماق

كيف اخترعت شبكيات المصابيح الغازية

كان الحظ والمصادفة حليفين عظيمين ومعوانين كبيرين في اختراع شبكيات مصابيح غاز الاستصباح. وذلك ان الغاز كان اولاً يشعل من طرف انبوبه المفتوح على ان تسد الفتحة متى اريد اطفاء ضوئه بسدادة خاصة فاتفق ذات يوم ان ضاعت السدادة حينما وجب اطفاء الضياء فجاء امرؤ بمدخن مخرم فسد به فتحة انبوب الغاز المشار اليه. فكان ذلك الحدث منشأ اختراع الفرسة القديمة التي كانت تسبب انبساط لهيب الغاز عند اشتعاله. ثم بزغ العالم بنسن فاخترع مشعله المشهور الذي يجمع بين الغاز والهواء ليولد لهباً ساخناً يكاد يكون عديم اللون وهو في حد ذاته غير صالح للاضاءة. ثم عقبهُ كارل فون فلزباخ فكان ذات مرة يجرب بعض التجارب الكيميائية في معمله فترك محلولاً من التوريوم والسيريوم وهما معدنان نادران يغليان بنار مشعلة بنسن على خشبة من حجر الفتيلة (أسبستوس او الكتان الحجري) فشاهد اطرافها البالية تبيض بياضاً ناصعاً. فضم فلزباخ مبدأ مشعلة بنسن الى تلك المعلومات التي اقتبسها اتفاقاً فكانت مصدراً لاختراعه رتابن المصابيح الغازية التي انتشر استعمالها في الآفاق من ذينك الفلزين النادري الوجود

الفؤاد وصحة الانسان

انذار طبيب

ان مكافحة حفر الاسنان عمل يستغرق الحياة كلها . ولا يقصد بالحياة مداها من ساعة الولادة الى ساعة الوفاة بل يمتد هذا المدى الى ماقبل الولادة عندما يكون الجنين في رحم الام

وقد القى الدكتور كوجلماس — وهو متخصص في امراض الاطفال — محاضرة في أكاديمية نيويورك الطبية قال فيها ان الغذاء الموافق الذي يقي من حفر الاسنان يجب اولاً ان يعطى للحامل . ثم يجب ان توجه عناية عظيمة الى الجانب الاول من حياة المولود اي من ساعة ولادته الى سن البلوغ لتزيز قوته على مقاومة حفر الاسنان

ومما قاله ان نحو ٨ في المائة من الاطفال يرثون اسناناً جيدة او ضعيفة او فيها ميل الى هذا او ذاك . وان ٨ في المائة ايضاً لا يتلقون العناية الوافية بالاسنان

وان ٩ في المائة تختر اسنانهم او تبقى سليمة لان عددهم سوية او مضطربة وان ١٠ في المائة تؤثر حالة التمثيل الغذائي في اسنانهم

ولكن الأكثرية الكبرى وهي نحو ٦٤ في المائة من الذين يصابون بضعف الاسنان وتخربها ترجع اصابتهم الى سوء التغذية

الصفير يبرد الضباب

تجربة عجيبة

رأينا على لوحة الصور المتحركة من اسابيع صورة عالم اميركي يدعى سانت كلير وقد صنع في انبوب ضخم من انابيب التجارب ضباباً ثم جعل صفارة تصفر في زاوية بعيدة من الحجرة التي جربت فيها التجربة فاذا بالضباب في الانبوب يتبدد رويداً رويداً يتكون كتل صغيرة تهبط الى قعره ثم يصفو فضاؤه مما يشوبه

وهذه التجربة على اقتصارها الآن على أنبوب البحث العلمي قد تكون سبيلاً في المستقبل الى تطبيقها تطبيقاً واسع النطاق في المدن الصناعية التي يكثر الضباب في جوها

وتفسيرها العلمي يرجع الى اكتشاف تم من عهد غير قريب وهو انه اذا رشت برادة الحديد على لوح مسطح وأحدث في جوارها صوت من نغم معين اهتزت دقائق البرادة وتجمعت اشكالاً وانماطاً معينة على سطح اللوح والغالب ان يكون تجمعها حول نقط تصطدم فيها امواج الصوت بعضها ببعض فبلاشي بعضها بعضاً فتكون تلك النقط خالية من تأثير الامواج الذي يهز الدقائق

وعلى مثال ذلك تهز الدقائق التي يتألف منها الضباب فتتجمع كما تتجمع دقائق البرادة ولكنها لاتجد سطحاً تستقر عليها فتسقط الى قعر الاناء

عصير البابار في القوارير
وشيوع هذا الثمر في مصر

البابار شجر شبيه بالنخل ، ينمو في اميركا الجنوبية . وهو ذو ثمر وسيقان وأوراق تحتوي على عصارة لبنية تُلَيِّن اللحوم الثاروة اذا ما دُهنت بها قبيل طهوها

وقد جاءنا في احدث الانباء من اميركا أنهُ سيتم استخلاص تلك العصارة في الولايات المتحدة وغيرها . وذلك ان احدى الشركات في مدينة سينسيناتي بولاية أوهيو قد شرعت في خزن عصير البابار في زجاجات معتدلة الاحجام لتوزيعها على ربات البيوت ليستعملنها في تحضير شرائح اللحوم القاسية تسهيلاً لنضجها وهضمها

والمشهور عن عصارة البابار أن أهالي جزائر المحيط الهادي ما برحوا من قديم يتوسلون بها لتليين اللحم القصيد قبل طبخه وهم لا يفقهون خصائص تلك العصارة المدهشة اذ تحتوي على مادة البابائين وهي عنصر نباتي معادل للبيبسين pepsin الهاضم للبروتين . والبابائين معروف عند الصيادلة بأنهُ من العناصر الاصلية لتركيب الادوية الشافية للتخمة

وقد زرعت أشجار البابار في ولايتي فلوريدا وكليفورنيا منذ بضع سنين من اجل ثمارها اللذيذة ، وهي رائجة في اسواق الولايات الشمالية

وزرع البابار في مملكتنا المصرية وقد بحثنا في شؤونهِ ثم نشرنا نتيجة بحثنا في المقتطف (وذلك بمناسبة عطلة المقتطف الصيفية في السنة الماضية) فآثرنا اعادة نشر المقال المشار اليهِ تمامًا لفائدة قراء المقتطف واليك البيان : —

« ما كنت ادري حينما كتبت مقالي على البابار في مقتطف يونيه سنة ١٩٣٥ أن ذلك الشجر العجيب يزرع في بعض بلادنا المصرية العريقة في الزراعة . بيد ان زارعي البابار وآكليه قلما يعرفون جميع مزاياه الرائعة التي افضنا في سردها في ذلك الحزء من المقتطف حتى اقيم معرضنا الزراعي الصناعي الحديث في الجزيرة بأرباض القاهرة ، فرأيت لزامًا عليَّ ان اطوف بأرجائهِ باحثًا في معروضات بلادنا الزراعية لعلي اعثر على ثمر البابار ، وهو ضالتي المنشودة ، اذ تذكرت اني كنت قد شاهدت الثمر نفسهُ في المعرض السابق ، بين معروضات السودان التي عرضها حينئذٍ المرحوم الشاهد باشا

فتحقق ظني اذ وجدت الفاكهة المبتغاة بين معروضات مدرسة دمنهور الزراعية المتوسطة فقط ، حيث رأيت ثلاث ثمرات من البابار معروضة في طبق . فكانت مفاجأة لطيفة قوَّت عزيمتي على مواصلة البحث والاستقراء افادة لقرائي الاعزاء . فسألت مندوب المدرسة الزراعية المذكورة آنفًا ، وهو احد المستخدمين في حقولها : ما اسم هذا الثمر ؟ فقال « بابار » وهو يؤكل ناضجًا كالفاكهة

والشمام . فتدركت عليه قائلاً « بل هو قاوون الشجر » ثم استزدته ايضاحاً فأجاب « عليك يا سيدي بزيارة مشتل المدرسة في دمنهور فتظفر بغيتك »

فاكتفيت بذلك وانصرفت ، عاقداً النية على السفر الى دمنهور متى حانت الفرصة . ومضت اسابيع بعد ذلك قصدت في خلالها ، بحراً ، ذات يوم ، الى متنزهات الثغاطر الخيرية ، فالفيت في اثناء الرحلة بالدرجة الاولى ياخرة سكة الحديد ، التي أقلتنا الى تلك الضاحية الجميلة ، راكباً فلسطينياً كهلاً ، توسمت فيه الفضل والنبل فتعرفت به ، فاذا هو (علي افندي المستقيم) من كبار اصحاب البساتين وتجار الفاكهة بثغر يافا . وساقنا الحديث ، وهو ذو شجون ، الى ذكر الباباز ، فسألته رأيه فيه ، فقال : زرعته في بستاني بيافا ولم أجنِ منهُ ربحاً يذكر لان اهل فلسطين لا يقدرونهُ حق قدره . وهو يزرع بكثرة في (ريحا) فلاحظت عليه قائلاً — املك تقصد مدينة أريحا المشهورة . فقال: نعم — لان أريحا بلد رملي حارٌ يصلح لزرع الباباز ، فتجت على الاكثار من زراعته ذاكراً لهُ منافعه التي اسهبت في ايضاحها في المقتطف ، فأثنى على مجهودات هذا الكاتب الضعيف واستبشر خيراً

***

وأتيحت لي فرصة فاغتنمتها وسافرت الى دمنهور ابتغاء زيارة مشتل بمدرستها الزراعية ، حيث تشرفت بلقاء بعض حضرات الاساتذة وكاشفتهم بأمنيتي ، فاحتفوا بي وتفضلوا فسمحوا لي بزيارة مشتل مدرستهم الذي يزرع فيه الباباز فيممت شطره مع مندوب من قبل حضرة الفاضل ضابط المدرسة

ولقيت في المشتل حضرة ابرهيم افندي صالح ، رئيسه ، فصارحتهُ بمهمتي ، فأحسن استقبالي وزوّدني بالمعلومات الآتية فاذكرها اتماماً لفائدة القراء : —

يثمر الباباز على مدار السنة متى بلغت شجرته ثلاث سنين من عمرها . وتنبت أشجاره من البذور الناضجة الخضة وهي سوداء ، وتكون ملتصقة بلب الثمر وتكاد تشبه حب الفلفل الاسود ، غير انها ذات غشاء زلالي . وتبذر البذور في مكان ظليل بذراً خفيفاً في الاصص أو في مواجير البذرة . وذلك في تربة مؤلفة من رمل أبيض ناعم بمقدار الثلث ، ويجعل ثلثاها الباقيان من طمي النيل ، مخلوطاً بقليل من روث الخيل ، التعفن (السبلة القديمة) وتغطى البذور بالمخلوط السمادي نفسه بطبقة توازي حجم البذور أي بثخانة نصف سنتيمتر . وتتعهد بالري طبقاً للاحوال الجوية . وتزرع البذور ابتداء من شهر مارس الى آخر شهر اكتوبر ويمكن استفراد النباتات بعد بلوغ طولها من ١٠ سنتيمترات الى ١٥ سنتيمتراً . ومتى نمت في الاصص ، وضاقت بها ، تنقل الى مكانها الدائم . وتصلح لها الاراضي الرملية فتزكو فيها . ويثمر من البذور ذكور واناث

من الاشجار . ويمكن تمييز بعضها من بعض عند بدء الاثمار . ومتقدم الذكور انها تقوم بتلقيح إناثها ، على ان تكون قريبة منها بحيث لا تبعد ، عنها أكثر من ثلاثة أمتار

***

والباباز يحمل ثماره تحت آباط الاوراق . وبعضها يحمل ثمرة واحدة في حامل زهري ومنها ما يحمل ثمرتين او ثلاث ثمرات . وهذه الحوامل لا يزيد طولها في الاناث على خمسة سنتيمترات . اما في الذكور فتبلغ احياناً متراً او متراً ونصف متر . واعناق الاوراق جوفاء . ومتى نضجت الثمرة جفت الاوراق التي تحتها ، فتذبل وتسقط بنفسها . والذكور لا تحمل ثماراً الا نادراً . وتكون ثمارها خالية من البذور . وطعم لبها شحمي ، وهو أقل جودة من ثمر الاناث وأصغر منها حجماً

ويزرع الباباز بكثرة في بلدة قاقوس بمديرية الشرقية « واول من زرعهُ هناك المرحوم امام بك محمد اسماعيل ، جد حضرة الاستاذ ابرهيم افندي صالح » الذي اقتبسنا منهُ هذه المعلومات

***

ويباع الباباز في تلك البلدة بسعر نصف قرش للثمرة الواحدة . واذا قطفت البابازة من شجرتها خضراء قبل نضجها وجب عليك حفظها في الخالة اسبوعاً حتى يتم نضجها . واما اذا تركت على شجرتها حتى تستوي ، اصفرّ لونها وصارت الذّ طعماً . ويوجد الباباز في قسم البساتين التابع لوزارة الزراعة . وقد اخبرني حضرة مرشدي ايضاً انهُ هو اول من زرع الباباز في مشتل دمنهور فزرع منه ثلاث شجرات فأثمرت وهي التي شاهدتها انا وتناولت منها ثمرة

والاشجار التي رأيتها في مشتل دمنهور لا يزيد طولها على ثلاثة امتار . واذا خدشتها هي او ثمارها سال لبنها وهو كابن التين الشوكي النافع لعلاج الاكزيما ، كما ذكرته في مقالنا السابق بالمقتطف

وعلمت ان الباباز يزرع في جزيرة المنايفة ببستان السيدة الفاضلة هدى هانم شعراوي ، وفي جهات أخرى من المملكة المصرية . ويزرع أيضاً في بستان المنشاوي باشا في القرشية

وقد اشرت على حضرة محمد افندي امين فؤاد (الفلاح المصري) تاجر البذور المعروف (بشارع طاهر بميدان ابراهيم باشا بالقاهرة) بزراعة الباباز فزرعه في بستانه في نوى بمركز قليوب

***

ولا يسعني قبل ختم هذه المجالة الا التماس المستطاب على حضرات معلمي مدرسة دمنهور الزراعية المتوسطة الذين تشرفت بلقائهم في المشتل ولاسيما حضرة ابرهيم افندي صالح الذي رحّب بي كثيراً وأبدى اليَّ المساعدة الواجبة خدمة للعلم

عوض جندي

مكتبة المقتطف

في عالم السدود والقيود

تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد — ٢١٩ صفحة من ورق مصقول حجم وسط
طبعة نشره مكتبة النهضة بمصر

أصدر هذا المؤلف النفيس الكاتب الشاعر الاستاذ العقاد فأتحف العربية بذخر من اثمن الذخائر الأدبية الحديثة ، كما اظهرنا على ناحية جديدة من أدبه الرائع وصورة من تفكيره العالي المتسم بنفاذ النظرة وصدق التعبير ، وقد تناول العقاد في كتابه هذا فترة شاجية من الفترات الخالدة في الحياة التي مر أشباهها قديماً بعض الفلاسفة والعلماء والشعراء فأطلقتهم بالنغمات الفريدة ، وأطلعتهم تجلي أبعد أسرار النفس وأطلقت خواطرهم بأسمى المعاني واجرت ألسنتهم بآيات الحكمة . وانك لتلمس في سطور الكتاب روحاً مبدعاً من التهكم الرفيق وتقرأ في فصوله تحليلاً عميقاً للنفس البشرية ، ونوازعها ، واستقراء واسع الاحاطة بالجزئية ودوافعها ، كل هذا في استطراد بديع ممتع واسلوب رائق شائق تشيع فيه الطلاقة والعذوبة والجمال والبساطة . وتلك خصائص يمتاز بها أدب العقاد ، ولكنها في كتابه هذا مثلة أجمل تمثيل من بدئه الى منتهاه . وأحب ان أقول انه قما يتاح لمن عبر عالم السدود والقيود من الكتاب والشعراء ان يوفقوا توفيق المؤلف في استكناه اسراره وطلاسمه وأعاجيبه ، في فترة مداها أيام او شهور ، من مرض غير رفيق ، وضيق نفس شاعرة تضيق بنظرتها آفاق الدنيا الرحبة المترامية . ولكن الومضات الخاطفة التي تنطلق من العقول المتألقة تغني عن إدمان النظر في الضحوة الساطعة ، للوصول الى حقائق الحياة وطبائع النفوس . والاستاذ العقاد هو القائل

أنا المفرد الزاري على الكون كله تبسم حال أو تجهم كالح

فهو على ما وصف به نفسه ، وما هو منبت في تضاعيف كتبه واشعاره ، رجل متمرد متوفز الشعور مرهف الحس ، لا يطيق الحدود ولا يأبه للقيود ، فاذا اضطربت روحه بالألم والنقمة على هذا العالم الذي قدر له ان يعبره فلا غرابة في ذلك ولا عجب ، والمفكرون الحرون بهذا الاسم متمردون بطبائعهم على الحياة يرون النقص والفساد شائعاً في أشكالها وأوضاعها حيث لا يرى الآخرون غير الصواب والتمام فيها . ولكن الجانب الانساني المركب في نفس العقاد كشاعر قضى على هذه الحواجز ، التي تقوم دائماً بين البيئات البعيدة التنافر والتناقض ووصل ما بينه وبين هؤلاء الذين يعيشون في عالم القيود والسدود فآنس فيهم متراداً لتأملاته وأفقاً جديداً لخطرات نفسه ، فعاد المتمرد الزاري على الاشياع الهائمة في عالم الحرية والطلاقة ، حانياً عطوفاً على هذه المخلوقات الجاثمة في عالم القيود والسدود ، يستروح متعة العقل والنفس في أحاديثهم ومحاورهم وغنائهم وعجونهم وطيبهم وخبثهم . وفي الكتاب شواهد على ما اسلفنا تطالعك في كل فصل بل في كل صفحة من صفحات الكتاب

علي محمود طه

اسماعيل المفترى عليه

لا شك في ان الخديو اسماعيل هو أول باني لمصر الحديثة ، مصر الاوربية في مظاهرها . فلقد كان طموحاً كل الطموح الى ان يجعل مقر سلطانه بعيداً البعد كله عن أن يعتبر جزءاً من القارة المظلمة افريقيا ، ولم يقصر في هذا السبيل ، ولم يضن على اخراج فكرته بالثمن

ولقد اجتمعت في هذا الرجل العظيم صفات بارزة من الشخصية القوية والعزم المتين والفكر السديد مما ضمن له السير بحكمة بين تيارات مختلفة من رغبات متباينة تثيرها فرنسا من ناحية وانجلترا من ناحية ثانية وتركيا من ناحية ثالثة

مني اسماعيل عند توليه العرش بتركة ثقيلة أورثها اياه سلفه فوجد من الحكمة أن يقف حيال اطماع فرنسا التي رمتها لنفسها عند تفكيره في حفر قناة السويس فيحولها عن وجهتها وبذلك يحفظ لمصر سيادتها على أراضيها وأبعد عنها الاستعمار الاجنبي — وقتذاك — وحافظ لها على مرافقها العامة بحرمانه شركة ترعة السويس امتيازاً يعتبر الآن من حق الدولة وهو ترعة الملاحة العذبة

ولقد كانت بصيرته النافذة الى صميم السياسة الاستعمارية سبباً فيما لقي من عنت أوربا ومحاولتها الاساءة اليه والتشهير به فاندفع كثير من رجال السياسة الى تشويه وجه التاريخ في صفحات هذا الرجل ، ولصقوا به تهمة الاسراف والتبذير على ملاذه وتحميل بلاده الدين الفادح في هذا السبيل

ارتدت مصر بعد اليقظة الاولى التي تلبثت فيها في عهد محمد علي الى رقدة طويلة وخمول عميق حتى آخر عهد سعيد فأراد اسماعيل أن يوقظها على فجر جديد . وطبيعي ان مثل هذه اليقظة تحتاج الى البذل في نواح شتى لبث الحركة والنهوض في كيان هذا البلد . ونحن الآن في الوقت الذي اتصلت مصر بالعالم الأوربي أوثق اتصال لا نزال نبذل آلاف الجنيهات في الدعاية كل عام بين طبع النشرات واستضافة الصحفيين الاجانب وعقد المؤتمرات الى غير ذلك من ضروب الاعلان عن مكانة مصر الادبية والاجتماعية ورفعها الى المستوى اللائق بها بين أمم العالم . اذا كانت هذه حالنا الآن فما بالنا مصر منذ سبعين عاماً ، ألم تكن وقتذاك بأشد حاجة منها في وقتنا الحاضر الى الدعاية الطويلة والعريضة معاً وهي في دور التكوين والخلق في كل نواحيها ؟ ! لقد أراد اسماعيل إيقاظ مصر ولكن تلك اليقظة غالية الثمن فهل يضن عليها بذلك ؟ ان نفسه العظيمة الفياضة بالطموح لتستصغر كل شيء وتسترخص كل غال . غير ان الحاجة الى المال ألجأته الى معاملة شر المرابين الدوليين فكانت النتيجة القاسية ، ولكنها اذا قيست بما أسدى للبلد من ضروب الاصلاح في مرافقها العامة مع مقابلة ذلك بما تفعله دول العالم في هذا السبيل لهانت تلك النتيجة شيئاً ما

تاريخ اسماعيل صفحة شوهتها الاغاليط حتى أصبح صاحبها في نظر المصريين قبل الاجانب المبذر المتلاف الشهواني ذا الرغبات الذاتية . وأصبح كل مؤرخ لعصره يستجمع أقوال كرومر وملنر وكولفن واضرابهم ويستعرضها في بحثه ويرجع اليها كقضايا مسلم بها على فساد التدبير في حكم هذا العاهل

ولكن الحق هو الحق ، وان طال عليه جحود الزمن ، فلقد أتيح بعد نصف قرن لهذا الرجل

العظيم مؤرخ فانوني نافذ البصيرة نقادها ، يتبع الحجة بالحجة حتى تتكشف له من بين ثنايا السطور التي خطها هؤلاء الساسة عن حجج قوية في مصلحة قضية اسماعيل المفترى عليه

ذلك هو القاضي الاميركي بيج كرايتيس الذي تصدى لانقاذ سمعة الحاكم المصري فاستطاع ان يخرج لنا صفحة نقية بدلت وجه التاريخ المصري في ذلك العهد . من ذلك انه اضعف الدعوى الشائعة عن استماعيل الشهواني الغارق في لذاته فأثبت ان اللذة والاستمتاع وليدا الكسل ، وكان الكسل أبعد الصفات عن هذا الرجل الذي كان يقضي كل يوم من اثنتي عشرة الى اربع عشرة ساعة في القيام بأعمال الدولة ، ولو فرض انه استطاع ان يترك العنان لنفسه في الملذات لأثر ذلك بمرور الأيام على ذاكرته التي شهد مورلي بل بقوتها .

ومن ذلك ايضاً انه رفع عن عاتق اسماعيل تبعة عدم ملكية مصر اليوم حصتها في أسهم القناة بفقرة من دائرة المعارف البريطانية تثبت ان حصته في ارباح الشركة التي بيعت بعد نزول اسماعيل عن عرشه تمت صفقتها حين كان لورد كرومر صاحب السلطان المطلق في الرقابة الثنائية ، وكان في وسعه ان يعقد بكل سهولة قرضاً يضمن تلك الحصة لو انه ادرك ما في بيعها من الخطر العظيم . وعرض المؤلف امامنا بعضاً من محامد اسماعيل في مقدمتها استنقاذه من الشركة الفرنسية ستين الف هكتار من الارض تساوي الآن اضعاف قيمتها التي قدرها تولون الثالث في سنة ١٨٦٤ بمليون ومائتي الف من الجنيهات وكذلك استعادته لامتياز ترعة المياه العذبة

وأطلعنا بالبيانات والارقام الثابتة ما لاقته مصر من ضروب الاصلاح في المرافق العامة في عصر اسماعيل كحفر الترع ومد السكك الحديدية والاكثار من دور التعليم الى غير ذلك مع مقابلتها بمثيلاتها حتى آخر عهد سعيد . وهذا غير ما قام به من مساعدات جمة لبيكر وامثاله من رجال الاستكشاف العلمي في مجاهل افريقيا وعمارته للنخاسة في السودان وبذله في هذه السبل ما انقل ديونه فأسدى الى العلم يداً جليلة

وصوّر لنا المؤلف في فصول مختلفة كتبها بروح قصصية جذابة ما كان يقيمه رسل السلطان العثماني مع اسماعيل مما دعاه الى تقديم هدايا ورشاوٍ كلفته اموالا طائلة ، كانت سبباً في اتهامه بالتبذير فيما لا يجدي . وقد دلل المؤلف على ان هذه الهدايا والرشاوى وان بلغت قيمتها ما بلغت بموازاك فلها لا تساوي ما كان يصرفه اسماعيل لو انه حارب تركيا ، فكانت هذه الهدايا والرشاوى سبباً في خطب ود السلطان وحقن الدماء وايقاف خطر مالي جسيم والفوز بالاصلاح القضائي والاستقلال الذاتي . وقد أورد المؤلف ما كان يمد اليه بعض الوكلاء الدبلوماسيين الاجانب في استعمال نفوذهم لينتزعوا مالا لتوفية اوقح المطالب واستشهد على ذلك مما ورد في كتاب لورد ملنر « انجلترا في مصر » من حوادث هؤلاء الوكلاء مما يبعث الدهشة ويدعو الى الضحك والسخرية . وهذا قليل بالقياس الى ما اغدق على اشياع السلطان

هذه لمحة سريعة الى هذا الكتاب النفيس الذي غير صفحات التاريخ المصري الحديث لحياة أهل مصر المفترى عليه وكشف عن نواح خفية جديرة بالاطلاع وجديرة بالدرس على ضوء الحجج التي اثارها كرايتيس السبل على الباحثين ومهدها لهم حسن كامل الصيرفي

مشكلة السكان في مصر

The Population Problem in Egypt, by Wendell Cleland, 1936

يجد القارىء في مكان آخر من هذا الجزء من المقتطف مقالاً في عدد سكان مصر من العصور القديمة الى ما بعد الفتح العربي في القرن السابع الميلادي . وهذا المقال ملخص عن كتاب الدكتور وندل كليلند « مشكلة السكان في مصر » . ولا يظنّ القارىء ان هذا الكتاب يعنى بالموضوع من ناحيته التاريخية فقط ، لأن جميع فصوله ما عدا الفصل الأول وقف على دراسة مشكلة السكان من نواحيها المختلفة في مصر الحديثة . فهو يعالج مسائل حيوية ، بدأنا ندرك شيئاً من خطرها منذ شرعنا نعالج بشيء من الصراحة موضوع تحديد النسل في الشهور الأخيرة . ومن محاسن الصدف ان يصدر هذا الكتاب والعقول متنبهة للموضوع الذي يعالجهُ بوقوع الاحصاء العام في بدء هذه السنة واهتمام الصحف والجمعية الطبية وعلماء الاجتماع ببحث مشكلة تحديد النسل التي صدر في صددها فتوى شرعية

والدكتور كليلند ، أهلٌ لمعالجة الموضوع . فقد تدرّب على اساليب هذا البحث الاجتماعي البيولوجي الاحصائي ، في خيرة معاهد اميركا . وهو يقيم في مصر من عشرين سنة استاذاً في جامعة القاهرة الاميركية قديراً لتسم الخدمة العامة فيها وقد اتصل في خلالها بمثلي جميع طبقات الشعب المصري من كبار رجال الحكومة والقرية الى صغار الفلاحين واولاد الفقراء والمعوزين في مراكز رعاية الطفل . فاتجهت عنايتهُ الى دراسة موضوع السكان دراسة علمية عملية منظمة ، كان حاديهُ عليها ما شعر بهِ من العطف على الفقراء واولادهم وما يعانونهُ من الفاقة والمرض ، وغرضهُ فهم هذه المشكلات الاجتماعية الخطيرة بغية الوصول الى ما قد يتيسر الطريق الى حلها

ان عدد سكان مصر قد زاد زيادة سريعة في نصف القرن الماضي حتى بلغت الزيادة بين سنتي ١٨٩٧ و١٩٢٧ — ٤٧ في المائة والازدحام في سنة ١٩٢٧ بلغ ١٠٤٥ في الميل المربع من الاراضي المزروعة ، ومع ان مساحة الاراضي المزروعة لم تزد في المدة عينها الا ٨ في المائة فان تحسين وسائل الريّ جعلت الزيادة في مقدار المحاصيل ٢٨ في المائة . ولذلك زاد ازدحام السكان في ١٠٩ في سنة ١٨٩٧ الى ٢٢٦ في سنة ١٩٢٧ اي ان زيادة الازدحام بلغت ٣٧ في المائة . فمن الواضح ان الزيادة في مقدار الحاصلات الزراعية كان اقلّ من الزيادة في نموّ السكان وازدحامهم

ولما كان ثمانون في المائة من اهل البلاد يشتغلون بالزراعة ، والحاصلات الزراعية هي مورد الثروة الاول ، فمن الواضح ان زيادة نموّ السكان على نموّ ما يجنى من الارض ، لا بدّ ان تفضي الى خفض مستوى المعيشة ، وهو ليس بالمستوى العالي على كل حال . ثم ان توسيع نطاق الاساليب الحديثة في الري ، افضى الى زيادة انتشار البلهارسيا والانكلستوما فأضعف انتشارها من حيوية

الفلاحين . ونشاطهم . فالزيادة في عدد السكان تقابلها هبوط في مستوى المعيشة من الناحيتين الاقتصادية والصحية

هذا هو قلب مشكلة السكان التي تعانيها مصر ، ولا ينكر لها حلٌّ . وغرض هذا الكتاب توجيه النظر اليها ، وبحث العوامل الاساسية فيها

لخصنا في غير هذا المكان بعض ما جاء في الفصل الاول وهو عرض تاريخيٌّ . ولكن الفصول الباقية وهي ثمانية تقسم بوجهٍ عام الى قسمين . فالقسم الاول يعالج مشكلة السكان من الناحية العددية أو الاحصائية ، وهو يشتمل على الفصل الثاني وفيه بحث في المصادر التي يصحُّ الاعتماد عليها ونقدها والفصل الثالث وهو يتناول ازدحام السكان والرابع وهو يتناول المواليد والخامس وهو يتناول الوفيات . اما القسم الثاني فيعالج مستوى المعيشة من حيث الملبس والمأوى والغذاء والثقافة العامة (الفصل ٦) والصحة العامة وصلتها بنظام الري (الفصل ٧) وعلى سكان مصر اكثر مما تتسع لهم اراضيها (الفصل ٨)

وقد وقف الفصل التاسع على الاحكام العامة التي خلص اليها من بحثه

مصطفى النحاس أو الزعامة والزعيم

درس بحث وتحليل

صفحاته ٤٣٠ من القطع الكبير طبع في مطبعة مصر

هذا كتاب نفيس أصدره الاستاذ عباس حافظ من اشهر كتاب العربية واطرفهم باعاً في ضروب البلاغة والفصاحة تناول فيه زعامة حضرة صاحب المقام الرفيع دولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا ذي الرآسات الكثيرة بالتحليل والشرح فوضع بكتابه دروساً في الوطنية اقتبست من سيرة زعيم البلاد الكبير وأوحت بها فعاله الغر الميامين . ولقد اتى المؤلف الفاضل على تاريخ نهضة مصر في عهدها الاخيرة باسهاب وشرح ما استلزمهُ البحث من سير النهضات المجاورة لمصر فتكلم عن نهضة ايطاليا بزعامة المسيو موسوليني ونهضة الهند بزعامة مهاتما غاندي وغيرها

شرح المؤلف كثيراً من خصائص صاحب المقام الرفيع عند ما كان جنديًّا في ميدان الجهاد الوطني وهو قاضٍ وكيف كان يحمل المنشورات الوطنية ويوزعها على نقابة المحامين ويزوّد المحامين بالاوامر واسهب في فضل نشأته الدينية وطهارته الخلقية والنفسية وقوة ارادته وعمله الجليل في رفعة شأن البلاد وظفره بمحاربة خصمه القوي الشديد وحسب القارىء الكريم أن يطلع على بعض الموضوعات التي درسها الكتاب ليلم بما وراءها وها نحن نذكر منها شيئاً : —

« سر الزعامة والعوامل والمؤثرات في نشأتها والصفات والخواص المشاهدة في الزعامة والزعماء والشخصية البارزة وصفاتها ومختلف مظاهرها وقوة الارادة وضبط النفس والباقة والروح المرحة والأسلوب والتنظيم وحاجة الزعامة اليها واخطار الزعامة والعوامل السيئة التي تتأثر بها والزعامة والزعماء في النظام الديموقراطي والمروءة والزعامة في الشرق وظهور عاندي والثورة المصرية في أدوارها الاولى وسعد زغلول في دور التكوين وزعامة سعد وظهور مصطفى النحاس ونشأته وتكوينه وحياته العملية وفي عهد الثورة وسعد ومصطفى ببنيان الديمقراطية والدستور ومصطفى النحاس زعيم الامة وقائد الشعب وفي الكفاح للدستور والاستقلال وتوافر صفات الزعامة فيه » . فمن هذه الموضوعات يتبين القارىء النواحي التي درسها المؤلف الفاضل بأسلوبه الشامل وعقله المفكر وسعة معلوماته ودقيق اطلاعه فجاء كتابه درساً مفيداً للجيل الحاضر والاجيال القادمة

وقد حلل المؤلف نفسية دولة الرئيس الجليل فبين ما فطرت عليه من فضائل وحب الخير وبين قوتها وعزتها وصلتها بالله العلي العظيم واثر الزعيم الديني وفوزه في معترك الحياة لانه يستمد ايمانه وثقته من الله وطهارة ذمته وقوة ارادته وحصافة رأيه وكيف اذعن الجميع لزعامته ونختم كلمتنا بهذه الجملة نقتبسها من قول المؤلف قال حضرته في صفحة ٥٤٠ مايلي : —

« ولقد اتاح الله لنا في مصطفى النحاس زعيماً مؤمناً ورئيساً وطنيًّا به دافعاً . وفي ذلك قوة اخرى بجانب قوات جهادنا ومناعة من اليأس والوهن تجتمع الى مناعتنا كأمة شابة مستبسلة وحصانتنا . . . وبفضل ايمان زعيمنا محونا من تجربة اعدائنا وظللنا نكافح الى الآن بثباتنا وثقتنا بالله وقوة صبرنا ومراسنا . وما دمنا مع مصطفى النحاس ، ومادام هو المستلهم السماء من اجله ومن اجلنا فلن يقهرنا خصومنا ، ولن نغلب على امرنا مهما تألبت علينا جموع الاعداء والمحاربين

« ولقد تقدم بنا في الجهاد على لحن ايمانه ، وساق بنا الى النصر على حداء وجدانه ففاز في كل خطوة خطاها بمعنى جديد من معانيه ، كلما اشتدت الحلكة على طريقه لتغريبه بالعدول عن مسيره والرجوع عن وجهه ، انبثق الضياء فبدد الظلام ودياجيه ، وكشف عن جديد من فضائح خصمه ومخازيه وكلما وسوس الامل في صدر اعدائه انهم قد تمكنوا منه او كادوا يتغلبون عليه ، دهمتهم داهية من الغدر ، وفاجأتهم مفاجأة جديدة من السماء فانقلبوا من بعد الامل يائسين »

***

والكتاب مطبوع طبعاً متقناً في مطبعة مصر ومزدان بصور الزعماء فهو درس مفيد في باب الوطنية المصرية

شوقي او صداقة اربعين سنة

تأليف الامير شكيب ارسلان — صفحاته ٣٠٤ قطع المقتطف — مطبعة عيسى البابي الحلبي

كلُّ ما يكتبهُ الامير شكيب ارسلان جدير بالاهتمام وامعان النظر لان فيه متعة للخاطر وغذاء للذهن ، ولا بدع في ذلك فالامير شكيب سريُّ النسب سريُّ الفكر سريُّ القلم وقد اتصل برجالات الشرق العربي وسائر العالم الاسلامي بصلات ودٍّ واحترام متبادلة ، واشترك في اعمال النهضة الادبية والحركة السياسية خلال الاربعين السنة الماضية اشتراكاً فعّالاً ، هيأ لهُ معرفة كثير مما انطوى بانطواء صحف الاقطاب الذين لازمهم وصاحبهم وراسلهم . فني جعبته سواء اعتمد على الذاكرة ام رجع الى اوراقه ، حوادث ونوادر هي في الطبقة الاولى متعةً ومقاماً عند ما يحين الوقت لكتابة تاريخ هذه النهضة

وجيذا الحال لو اتيح للامير ان يتفرغ لكتابة ذكرياته الادبية والسياسية ، فان اقطاب الغرب جروا على كتابتها في مجلّدات هي من انفس ما ينشر على الناس

وهذا الكتاب الذي نحن في صدده اليوم خاص في قسمه الاول بما لا يزال عالقاً بذهنه عن صداقته لشوقي ، وقد بدأت منذ نحو اربعين سنة ، واتصلت خلالها اوثق اتصال ، ويحتوي في قسمه الثاني ، على دراسات ادبية بيانية في امهات قصائد شوقي وميزاتها

***

يروي الامير انهُ جاء مصر اولاً سنة ١٨٩٠ وكان حينئذٍ بين العشرين والواحدة والعشرين فمكث شهراً في الاسكندرية ثم جاء القاهرة وانضمَّ الى الرهط الملتفّ حول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ولم يكن احد قد سمع حينئذٍ « بشخص يقال لهُ شوقي ولا احسسنا لهُ ذكراً »

ثم غادر مصر في تلك السنة ولم يسمع بشوقي ، وكان حينئذٍ يراسل الاهرام ، فكانت تصلهُ اعدادها فوقع في احد الايام على ابيات لامية في مدح الخديو توفيق من نظم « احمد افندي شوقي » . قال الامير « ولما كان الناظم مجهولاً عندي لم اشأ ان اضيع وقتي بقراءة الابيات » ولكنهُ لم يطل الامر حتى رأى ابياتاً اخرى لاحمد افندي شوقي فجرّب ان يطالعها فلم يعجبها ووضعهُ حينئذٍ في طبقة الشعراء الذين يقال فيهم « من حقه ان تسمعهُ » . وبعد قليل قرأ لهُ قصيدة ثالثة وهي التي مطلعها

ان الوشاة وان لم أحصهم عدداً تعلموا الكيد من عينيك والقصدا

فطرب لها وأعاد قراءتها وعلم ان هناك شاعراً مطبوعاً وأصبح كلما رأى شعراً لأحمد شوقي

يتهافت عليه «تهافت الظآن على نمير الماء لاني رأيت الشاعرية بجميع شروطها : النسج الرقيق المتين والاسلوب الرشيق الرصين ، اللغة العربية الفصحى التي لا تؤتى من جهة ، والمعنى المتهامي في الدقة اللابس من اللفظ أجمل حلة والانسجام المطرد من الاول الى الآخر في سكب واحد وسبك متوارد »

ولكن الأمير وشوقي لم يجتمعا الاّ سنة ١٨٩٢ في باريس وكان الامير قد ذهب اليها مستشفياً ، وشوقي جاءها من مونبلييه حيث كان يتلقى علم الحقوق . وتمّ الاجتماع في الحي اللاتيني ولكن الامير لسى كيف تعارفا «ولكن لم يجتمع حتى صرنا كاخوين» وكان متابتهما مقهى داركور « وفي أثناء لقائنا الاول كنا نتذاكر حول أمور كثيرة ولكن أهم حديث كنا نخوض فيه هو حديث الشعر وكان مع شوقي ديوان المتنبي . . . » ويروي الامير أنهُ الذي أشار على شوقي حينئذٍ بأن يجمع قصائدهُ ويجعل منها ديواناً فلما سألهُ وأي اسم أعطيه قال الامير : سمه الشوقيات فنسبة هذا الشعر اليك هي عندي كافية . وقد ذكر شوقي هـذه القصة في ديوانه الطبعة الأولى سنة ١٨٩٨

***

ومن النوادر اللطيفة التي جرت لها ان شوقي ذهب الى لبنان ووصل عاليه وكان الامير مصطافاً في صوفر فقيل لهُ ان شوقي في عاليه وانهُ يريد مشاهدتهُ . وكان الامير متوعكاً فبعث الى شوقي ان ينتظرهُ وانهُ يكون في الغد عنده . وبكر اليه في اليوم الثاني وذكر لهُ سبب تأخره فقال شوقي على الفور : رجوت ان تكون كاذباً ولا تكون مريضاً . فقال الامير : المرض احب اليّ من الكذب

وكان آخر اجتماع لهما عند عودة الامير شكيب من الحج ، سنة ١٣٤٧ هـ ، فذهب شوقي الى مقابلته فيها ، وكانت قصيدة شوقي في دمشق ذاعت على الالسن ومن ابياتها في بني معروف واليهم ينسب الامير

لكل لبوءة ولكل شبل فضال دون غابته ورشق

قال الامير وقد جرّنا الحديث الى هذه القرية فقلت لهُ : عندما بدأت بقولك (لكل لبوءة ولكل شبل) خفت ان يكون جواب هذه الجملة (فضال عن مغارته ورشق) فقال لي (وهي اية) قلت لهُ هي : (فضال دون غابته ورشق) والغابة هي المغارة كلتاهما مأوى للاسد ولكن الغابة اخف وقعاً على السمع واقرب الى الالسن

رحم الله شوقي ومدّ في عمر الامير ونفعنا بعلمه وفضله

تاريخ الفلسفة اليونانية

تأليف يوسف كرم — مدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية — صفحاته ٢٠١ × ٣٠ قطع المقتطف
اصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر وتد طبع بمطبعتها

هذا كتاب مدرسي متقن في تاريخ الفلسفة اليونانية . ومقام الفلسفة اليونانية في تاريخ الفكر لا يحتاج الى شرح او بيان . ويكفي ان يذكر القراء أسماء اعلام كبرقليطس وفيثاغوراس وانكساغوراس ولوقيبوس وزينون الايلي وسقراط وانبادقليس وديموقريطس وأفلاطون وأرسطوطاليس وأرسطخس القوريني وديوجنوس وزينون الكلبي ليعلم اي ذري بلغتها الفلسفة اليونانية ، في تعاليم هؤلاء الرجال وأحكامهم . والفلسفة اليونانية هي على ما قال المؤلف «فلسفة الشرق الادنى منذ فتوح الاسكندر ، وفلسفة الغرب منذ استولى الرومان على بلاد اليونان في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد . . . . اصطنع المفكرون المسيحيون هذه الفلسفة ثم اصطنعها المفكرون المسلمون ، ودخلت المدارس في الشرق والغرب فكونت العقول وهيمنت على وضع العلوم»

ليس ثمة مسألة من مسائل الفلسفة لم يعالجها اليونان ، وما يتحدّر اثر مما قالوه فيها الى العصر الحديث . «فقد نظروا في سمى المسائل مثل الوجود والتغيّر والخير والشر والاصل والمصير» فكانوا «اساتذة الانسانية»

« وقد اجتازت الفلسفه اليونانية ثلاثة ادوار هي دور النشوء ودور النضوج ودور الذبول

«والدور الاول فيه وقتان : الوقت المسمى بما قبل سقراط وهو يمتاز باتحاد وثيق بين العلم الطبيعي والفلسفة . ووقت السوفسطائيين وسقراط يمتاز بتوجه الفكر الى مسائل المعرفة والاخلاق

« والدور الثاني يملأه افلاطون وارسطو . اشتغل افلاطون بالمسائل الفلسفية كلها وجهد نفسهُ في تمحيصها ولكنهُ مزج الحقيقة بالخيال والبرهان بالقصة ، حتى اذا ما جاء ارسطو عالجها بالعقل الصرف ووفق الى وضعها الوضع النهائي

« الدور الثالث يمتاز بتجديد المذاهب القديمة وبالعود الى الاخلاق والتأثر بالشرق والميل الى التصوف مع العناية بالعلوم الواقعية »

وهذا الكتاب من أوّله الى آخره شرح لهذا الايجاز

هنا اقطاب الفلسفة اليونانية ، في أبواب وفصول وفقرات مرتبة منسّقة على خير ما تروم من ترتيب وتنسيق ، بذ موجزة في سيرهم متى ولدوا وأين نشأوا وعلى من تلقوا العلم والفلسفة هنا آراؤهم الفلسفية مبسوطة في دقة ، يسيغها قارئ لم يدخل صروح الفلسفة من أبوابها ، ويرضى عنها الاستاذ ، وهذا عمل شاقّ لا يتاح النجاح فيه الا لمن كان كمؤلف هذا الكتاب

أخذ الفلسفة عن أساطينها ثم قضى العمر بعد الاجازة في درسها وتدريسها

معظم الفلاسفة يجتمع طوائف طوائف في هذا الكتاب وفقاً للرأي الفلسفي الذي يؤلف بينهم . فالطبيعيون الاولون هم طاليس وانكسيمندريس وانكسيمانس وهرقليطس . الاول يقول ان الماء اصل الاشياء والثاني يفسر تكوين الاشياء تكويناً آليًّا اي بمجرد اجتماع عناصر مادية وافتراقها بتأثير الحركة والثالث ان الهواء اصل الاشياء والرابع ان النار اصل الاشياء

وكذلك فعل المؤلف بسائر الفلاسفة . اما افلاطون وارسطوطاليس فقد افرد لكل منهما باباً خاصًّا به وفصّل آراءهما الفلسفية وحلل اشهر مؤلفاتهما

ولعل القارىء يطرب من بعد وصف الكتاب وتبويبه مثالاً على اسلوب المؤلف وهو اسلوب جمع بين التصد والابانة ، فاليك لسوق الفقرة التالية وقد فتحنا الكتاب اتفاقاً لنقل شيء منهُ فاذا هي امامنا وموضوعها «الفضيلة» وهي في سياق الكلام على افلاطون صفحة ١١٨

ا — الفضائل ثلاث تدبر قوى النفس الثلاث : الحكمة فضيلة العقل تكمله بالحق — والعفة فضيلة القوة الشهوانية تلطف الأهواء فتترك النفس هادئة والعقل حرًّا — وبتوسط هذين الطرفين الشجاعة وهي فضيلة القوة الغضبية تساعد العقل على الشهوانية تقاوم إغراء اللذة وعثاقة الألم . والحكمة أولى الفضائل ومبدؤها فلولا الحكمة لجرت الشهوانية على خليقتها وانقادت لها الغضبية ولو لم تكن العفة والشجاعة شرطين للحكمة تمهدان لها السبيل وتشرفان بخدمتها لما خرجنا من دائرة المتعة الى دائرة الفضيلة اذ « ما الهرب من لذة لنيل لذة اعظم سوى عفة مصدرها الشره ، وما خوض الخطر لاجتناب خطر آخر سوى شجاعة مصدرها الخوف . ليست الفضيلة هذه الحسبة النفعية التي تستبدل لذات بلذات وأحزاناً بأحزان ومخاوف بمخاوف كما تستبدل قطعة من النقد بأخرى فان النقد الجيد الوحيد الذي يجب ان يستبدل بسائر الأشياء هو الحكمة بها تشتري كل شيء وتحصل على كل الفضائل ، اما الفضيلة الخالية من الحكمة والناشئة عن التوفيق بين الشهوات فهي فضيلة عبدة » . فالفضيلة اذن من جنس العقل والنفس ولا يسوغ ان نذكرها الا بالإضافة اليها ، والحياة الفاضلة لا تستمد قيمتها من لذتها او منفعتها بل من هذه الاضافة ، ويستحيل على من يفكر النفس والعقل ان يلح الى معنى الفضيلة

ب — واذا ما حصلت هذه الفضائل الثلاث للنفس خضعت الشهوانية للغضبية والغضبية للعقل تحقق في النفس النظام والتناسب . ويسمي افلاطون حالة التناسب هذه بالعدالة باعتبار ان العدالة بوجه عام اعطاء كل شيء حقه . فليست العدالة عنده فضيلة خاصة ولكنها حال الصلاح والبر الناشئة عن اجتماع الحكمة والشجاعة والعفة . اما العدالة الاجتماعية فهي تحقيق مثل هذا النظام في علاقات الافراد .....

تابع المنشور على الصفحة ٥٥٧

وهو في الشرق بحق — في هذا العصر — كنيته في الغرب عاماً الآ ان الثاني أي بيتهوفن رام المجد عن طريق الهجوم فخض على الحرب والكفاح والثورة فكان من مفاخر شعره الحرب الكبرى بالامس ، واليوم لظرية الاجتماع الشائعة في المانيا ودعوة النازية المتعصبة وطرد اليهود واضطهادهم والقوة السارية في شرايين الامة كالكهربائية والتحفز للوثوب بغية المجد والامل والقتال . أما الاول — اي الزهاوي — فقد رام المجد عن طريق الدفاع . الدفاع عن الشرق المريض اجتاح ، الشرق الذي يترصد له الغرب ويسد عليه السبل ويبغي أن يجعله لقمة سائغة في جوفه الوسيع الذي لا يشبع . ولم ينفل الزهاوي في يوم ما احياء الهمم الراكدة واذكاء روح القوة في النفوس الخامدة وتذكيرنا ماضينا المجيد غير ان ضعف اسلوبه لم يجعل لاناشيده تلك العذوبة التي بتنيها كل لسان وتشيع بين الناس كالامثال . اما تمرده فقد كان في بعض الاحايين ينصب على رجال الدين ، وذلك يرجع لتأثره بتعاليم استاذه المعري ولان كلا الرجلين لاقى الامرين من تعصب رجال الدين الذين لا يتبعون خطوات العلم ويوفقون بينه وبين الدين

وعلى الرغم من ان بعض المدارس الادبية تظن تمرده هذا انما هو تمرد على الدين نفسه ، فان اناشيده الثورية التي نادى بها يستفز الهمم ويوقد نار الوطنية في الصدور ويشعرنا بكرامتنا المهدورة وحتمنا المضاع ووحدتنا المتفرقة مستهلاً في دعواته الاصلاحية التجديدية فيثنه بترديدها ألسنة الشباب ، شباب الشرق العربي اولئك الدعاة الجدد الذين يحملون اليوم عبء المجد الثقيل .

انظر الى قصيدته «حث على الاقدام» التي وجهها الى الطلبة الشرقيين والتي بدأها بقوله :

ثوا بألسنة لكم من نار ما في جماجمكم من الافكار
سيروا الى غاياتكم في جرأة كالسيل هداراً وكالاعصار
ثوروا على العادات ثورة حانق وتمردوا حتى على الاقدار
كونوا جميعاً سادة لنفوسكم فالعصر هذا سيد الاعصار

الى ان يقول وهذا ما لا نقره عليه بعض الشيء :

لا تقبلوا في الدين ما يروونهُ الا اذا ما صح في الابصار

الى ان يقول : وتحرروا من قيد كل عقيدة سوداء ما فيها هدى للساري
أمن اكتفى بخرافة هو مؤمن ومن امترى فيها من الكفار ؟

وهذا دستورنا نحن الشباب ، لكنهُ عند قوله :

انضوا القديم وبالجديد توشحوا حتام تختالون في الاطمار

حكم خاطىء ، وان كان يهتدي بهدى المنطق العلمي المنطلق من عقاله — على حد زعمه — فما كل جديد بصحيح وما كل قديم بزائف كما اسلفنا القول من قبل «الحديث بقية»

فهرس الجزء الخامس من المجلد التسعين

٥٢٧ الفيتامينات وأثرها في الصحة والمرض والنمو

٥٣٦ الجباية في الاسلام : لفارس بك الخوري

٥٤٢ الجغرافية الحديثة : لمصطفى عامر

٥٤٨ أهذا دم بشري ؟

٥٥١ الزهاوي : لاحمد محمد عيش

٥٥٨ أندري (قصيدة) : لمحمد فهمي

٥٥٩ سر « الفيروس » وصلته بسر الحياة

٥٦٤ تباذل الاحساس : لابرهيم مطر

٥٦٧ الخزف الفاطمي : للدكتور كارل جوحان لام

٥٧٥ عمر بن أبي ربيعة : لجبرائيل جبور

٥٨١ العقلي والمادي : لفليمون خوري

٥٨٥ أثر بيتشه : لابراهيم ابراهيم يوسف

٥٩٠ المعطف : للكاتب الروسي جوجل : نقلها كامل محمود حبيب

٥٩٩ فوسيت العصرية : لرسلان عبد الغني البني

٦٠٥ سكان مصر من أقدم العصور الى ما بعد الفتح الاسلامي

٦٠٧ حديقة المقتطف * سير لوتي وناحية من ذكرياته . ليوسف البعيني . لمن (قصيدة) : لعمر أبو ريشة . العرس الاسود (قصيدة) : لفؤاد سليمان

٦١٥ سير الزمان * الامتيازات الاجنبية وهؤتمر مونترو . امتيازات الملوك : لامين الغريب

٦٢٨ المراسلة والمناظرة * مختار الصحاح : للأب أنستاس ماري الكرملي

٦٣٥ الاخبار العلمية * البلوتكين . البصامة الكهربائية لحرس السجون بدلا من حرسها . هل تقبل الانصاب قبل التعدد . البصامة الكهربائية عنوان لحرس الخائن . اكتشاف قمر آخر بالراديو المبصر . كيف اخترعت شبكات المصابيح النازية . الغذاء وصحة الاسنان . الصفير يبدد الضباب . عصير الباباز في التوابل (لموفق جندي)

٦٤٣ مكتبة المقتطف * في عالم السدود والقيود . اسماعيل المتنبي عليه . مشكلة السكان في مصر . مصطفى النحاس باشا او الزعامة والزعيم شوقي او بعثة الى بيئته تاريخ الفلسفة اليونانية